دراسات في تاريخ الحركة الصليبية

(٣)

مقالات وبحوث
فى
التاريخ الاجتماعى للحروب الصليبية

دكتور

حسن عبد الوهاب حسين

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أفمَنْ أسَّسَ بُنيانَه على تقوى منَ الله ورضوان خيرٌ أمَّنْ أسَّسَ بُنيانَهَ على شَفَا جرفٍ هارٍ فانهارَ به فى نارِ جهنَّمَ والله لاَ يهدى القومَ الظالمين﴾

«التوبة، آية : ١٠٩»

بسم الله الرحمن الرحيم

تتناول هذه المجموعة من المقالات جوانب شتى من تاريخ الحروب الصليبية وخاصة الجوانب الاجتماعية منها. ولاشك أن هذا المجتمع الذى نشأ فوق أرض الشام كان مجتمعًا غريبًا على هذه الأرض ووسط هذا الكيان الإسلامى الذى عمل جاهدًا على لفظه. وإذا أمعنا النظر فى العوامل التى أدت إلى فشل هذا الكيان الصليبى، فمما لاشك فيه أن الجوانب الاجتماعية كان لها دورًا أساسيًا فى ذلك. فقد قام هذا المجتمع على أسس واهية سرعان ما انهارت بعد أن عاد المسلمون إلى وحدتهم وبدأوا فى مقاومة هؤلاء الغزاة. وبالإضافة إلى تناول سقوط بيت المقدس فى عام ١٠٩٩م من خلال مصدر معاصر هو بطرس تيدبوده وعقد مقارنة مع مختلف المصادر لذلك، فقد أوردت مقالة ليوشع براور عن استيطان اللاتين فى هذه المدينة وقيام هذا المجتمع الصليبى. وعقب ذلك انتشرت الأمراض الاجتماعية بين فئاته المختلفة وذلك منذ قدوم الصليبيين فى الحملة الأولى، ومن بينها الزنا والدعارة وهى مقالة لجيمس بروندج الذى أوضح لنا ذلك كاشفًا حقيقة هذه الادعاءات الكاذبة لأدعياء الإيمان فى تلك الحروب. ومن جانب آخر فقد كشفت عن مرض آخر انتشر فى هذا المجتمع فى مقالتى عن الرشوة والتى أوضحت كيف كان لرنين الذهب والفضة أثره على آذان هؤلاء الغربيين فأصمها، وترك أثره على أخطر الحملات ونتائجها. أما جان ريتشارد فقد تناول وضع المرأة فى الشرق اللاتينى من خلال نصوص نادرة فى مجموعة قوانين البرجوازية ومؤلفات جان دى أبلين وفيليب دى نوفار. ومن زاوية أخرى قدم لنا سيفيان إيمانويل دراسة قيمة عن: اللاجئون السوريون ــ الفلسطينيون فى زمن الحملات الصليبية. وهى دراسة ذات أبعاد اجتماعية هامة لتناول أثر هذه الحروب على هذا الجانب الاجتماعى والهجرات التى

حدثت. ومن خلال مخطوط الفضل المأثور لشافع بن على قدمت دراسة لوصايا المنصور قلاوون وهى دراسة شاملة لنواحى سياسية واجتماعية واقتصادية هامة. واختتمت ذلك بدراسة عن دور مصر فى حماية أمن البحر الأحمر فى القرن الثانى عشر الميلادى، وأثر العوامل الجغرافية على الحروب الصليبية حتى معركة حطين.

وأتقدم بخالص شكرى وتقديرى لكل من قدّم لى يد العون والمساعدة خاصة أساتذتى الأجلاء الذين تتلمذت على أيديهم وإلى والدى ـ رحمه الله ـ ووالدتى وزوجتى وأبنائى جميعاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

د. حسن عبد الوهاب حسين

استيلاء الصليبيين على بيت المقدس

(١٠٩٩م)

فى ضوء رواية بطرس تيدبوده

«دراسة تاريخية مقارنة»

بسم الله الرحمن الرحيم

دعا البابا أوربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت الكنسى (١٨-٢٨ نوفمبر ١٩٠٥م) إلى الحرب الصليبية بادئًا بذلك ما عرف فى تاريخ الحروب الصليبية بالحملة الأولى. واندفعت الجموع الصليبية للمشاركة فيها، خاصة هذه المجموعة من مؤرخيها وشهود عيان أحداثها مثل فوشيه أوف شارتر(١) وريمونداجيل(٢) والمؤرخ المجهول لأعمال الحجاج(٣) وبطرس تيدبوده(٤) وقد بدأ الأخير مؤلفه عن تاريخ رحلة بيت المقدس بمقدمة عامة وسريعة عن استعدادات ورحيل الحملة مما لا يجعلنا نعرف مع من رحل المؤرخ. وهناك احتمال أن يكون قد رحل مع قوات بواتييه الذين خرجوا تحت قيادة هيودى لوزجنان ثم آلت القيادة إلى جاستون دى بيارن. ثم انضم تيدبوده إلى قوات بوهمند النورماندى حيث عبر معه الإمبراطورية البيزنطية وكان متواجدًا فى حصار نيقيه وظل معه حتى سقوط أنطاكية (١٠٩٨م).

ثم نجد المؤرخ تيدبوده ينضم إلى ريموند كونت تولوز عندما رفض بوهمند التقدم جنوبًا مع بقية القوات الصليبية ويبدأ يسجل لنا صفحات تاريخه حيث شارك فى حصار معركة معرة النعمان وأخيرًا تواجد مع القوات الصليبية التى حاصرت بيت المقدس واستولت عليه (٥).

وفى الواقع فإننى كنت قد انتهيت من إعداد ترجمة كاملة لتاريخ تيدبوده، غير أننى علمت بطريق الصدفة أن الزميل الدكتور حسين عطية بصدد ترجمته أيضًا، وحتى كتابة هذا البحث فإن هذه الترجمة لم تنشر بعد ولذا فقد احتفظت أيضًا بحقى فى إعداد هذا البحث وتقديمه للقارئ الكريم حيث أن الهدف فى النهاية هو إثراء العلم بهذه الدراسات التى تتناول مصادر تاريخ الحروب الصليبية من وجهات نظر مختلفة وسوف أترك الحكم فى

النهاية للقارئ الكريم عند مقارنة العملين معًا لإصدار حكمه على بحثى المتواضع.

وقد وقع اختيارى على الفصل الخاص باستيلاء الصليبيين على القدس لكى يكون مجال دراسة مقارنة بين ما كتبه تيدبوده وما كتبته المصادر الأخرى من شهود العيان المعاصرين ومن المتأخرين عن هذا الزمن قليلا وكتبوا عن سقوط القدس. فالدراسة المقارنة تظهر أهمية تاريخ تيدبوده وتضعه فى مكانته بين هذه المصادر من ناحية، وتبرز لنا أفضل هذه المصادر التى يمكننا الاعتماد عليها عند تسجيلنا لأحداث هذه الفترة الزمنية الهامة من ناحية أخرى.

وبالإضافة إلى مقارنة المترجمين لتيدبوده مع ريموندا جيل والمؤرخ المجهول لأعمال الحجاج. فإننى أيضًا استكملت تلك المقارنة مع عدد آخر من المؤرخين الصليبيين المعاصرين. ففوشيه أوف شارتر ـ الذى على الرغم من أنه لم يكن شاهداً عيانًا ـ قدم لنا معلومات هامة استكملت بعض النقاط لدى تيدبوده. فقد عاصر الحملة الأولى ولكنه كان آنذاك فى الرها ثم كتب تاريخه عن الحروب الصليبية والذى يعد أحد أهم مصادرنا عن حصار بيت المقدس. كذلك اعتمدنا فى المقارنة على مصدر آخر هو «أعمال تانكرد» لرادلف أوف كين[٦] والذى سجل لنا حياة تانكرد. وأهميته أيضًا بصفة عامة تتمثل فى أنه سجل مؤلفه بعد موت تانكرد حتى لا يكون ذلك نوعًا من التملق له أو ربما لكى ينأى بنفسه عن الصراعات بين تانكرد ومعارضيه. وعلى الرغم من أنه قدم إلى الأراضى المقدسة فى عام ١١٠٨م فإن ألفته مع تانكرد قدمت له روايات عن أحداث الحملة الأولى لم تكن معروفة لدى المؤرخين الصليبيين الآخرين[٧]. وبالنسبة لحصار القدس قدم لنا أيضًا رادلف مادة فى غاية الأهمية عن الحصار وإعداد الآلات وغيرها من الأحداث التى تظهر فى التعليقات المذيلة بهذه الترجمة. وعلى الرغم من أن مصدره كتب بأسلوب أدبى صعب إلا أنه يمكن استقاء مادة تاريخية هامة

منه لمقارنتها مع غيرها من مصادر هذه الفترة[٨]. ونستكمل هذه الدراسة المقارنة بالمؤرخ وليم الصورى[٩] والذى يقدم لنا مادة هامة أيضًا. فعلى الرغم من اعتماده على ريموندا جيل وأعمال الحجاج، إلا أنه أيضًا اعتمد على تيدبوده فى أحداث الحملة الأولى وخاصة عند حصار القدس، وقد أثبت ذلك فى الهوامش والتعليقات الواردة فى نهاية البحث. وأخيراً فقد أشرت إلى بعض النقاط من خلال مصادر أخرى هامة مثل تاريخ بيت المقدس لألبرت إكس [١٠]، وكذلك مقارنة مع مصادرنا العربية والتى لم تعط لنا إلا مادة قليلة للغاية عن استيلاء الصليبيين على القدس ولكنها على أية حال استكملت الصورة فى كثير من جوانبها.

ومن خلال ما قدمه المترجمان [١١] وما أثبته أيضًا عن تيدبوده كمصدر للحملة الصليبية الأولى ـ وبصفة خاصة موضوع هذه الدراسة وهو الاستيلاء على القدس ـ فإنه إما انفرد بأحداث لم يشر إليها ريموندا جيل والمؤرخ المجهول أو أنه قدم لنا مادة أفضل منهما وكذلك دقته فى تسجيل أحداث الحملة. وعلى سبيل المثال تحديده للتاريخ الصحيح لوصول الصليبيين أمام القدس، ثم اتفاقه مع أعمال الحجاج فى الإشارة إلى الاشتباكات الأولية فى ٩ يونيو ١٠٩٩م، ثم تحديده بدقة لهجوم ١٣ يونيو ١٠٩٩م وتحليله الصائب عن أسباب فشله. كذلك تقديمه لأفضل وصف عن الموكب الذى قام به الصليبيون حول القدس وتحديده لتاريخه بدقة فى ٨ يوليو ١٠٩٩م. وانفراده بالإشارة إلى مقتل أحد الصليبيين. كذلك وصفه للشارة أو العلم الفاطمى على القدس ولكنه لم يعط لنا لونه. كذلك قصته عن تحطيم الصليب على سور القدس وهى التى نقلها عنه المؤرخون الآخرون مع المبالغة فى القصة وإضافة مزيد من الإثارة إليها، وكذلك مناقشتى للعبارة التى سمعها من أهالى القدس وهم يحطمون الصليب والتى اعتقد أنها «أيها الفرنجة أيجيب الصليب؟» وليس «أيها الفرنجة صليب عجيب» كما أوردها تيدبوده.

كذلك دقته فى تحديد عدد الأسرى المسلمين متفقًا فى ذلك مع ريموندا جيل وطريقة معاملتهم، كما انفرد بإيراد قصة ذلك الجاسوس المسلم والتى رجحنا صدقه فيها مع إشارته إلى دور النصارى الشرقيين الذين كانوا مع الصليبيين فى ذلك. كذلك أوردت قصة مشابهة وردت لدى ألبرت إكس ربما كان مصدرها شفهيًا ولكن مع إدخال ألبرت تعديلا عليها بما يتفق مع اهتماماته عن المحاولات المبكرة للتبشير بالمسيحية.

ومن النقاط الهامة أيضًا إيراده للتواريخ الدقيقة وخاصة الاستعدادات المبكرة للهجوم النهائى على القدس. ثم تقديمه لنا مادة هامة عن نشاط ريموند أوف سان جيل خاصة وأن ريمونداجيل انتقل للحديث عن جودفرى، فقدم لنا تيدبوده محاولات اقتحام القدس من ناحية برج داود وناقشت كيف وصل الخبر إلى ريموند حيث حل ابن الأثير هذه المشكلة التى لم تتفق عليها المصادر الصليبية، فأشار إلى أن المستغيث من أهل المدينة أوصل إلى الأهالى فى هذه المنطقة خبر اقتحام القدس من ناحية الشمال.

وهناك رواية هامة أوردها تيدبوده عن تانكرد أثناء اقتحام المدينة فقد ذكر أنه أعطى رايته للأهالى الذين اعتلوا المسجد الأقصى، ثم أصدر أوامره فى اليوم التالى بقتلهم. وقد اختلفت المصادر فى مساءلة إصدار تانكرد لهذا الأمر. فأعمال الحجاج تذكر أنه كاد يتفجر غيظًا عندما رأى الصليبيين يقتلون هؤلاء الأهالى، أما رادلف فلم يقدم لنا رواية عن ذلك وكذلك فعلت بقية المصادر الأخرى ـ وربما أن تانكرد لم يستطع أن يمنع هذه الجموع الصليبية من اقتحام المسجد الأقصى بحثًا عن الثروة وهو ما فعله تانكرد بنفسه، ومرجع غيظه إلى أنه كان يرغب فى أن يحصل على فدية منهم، ولكن الأمراء أقنعوه بضرورة القيام بهذه المذبحة مع وصول أنباء عن تحركات فاطمية من مصر لإنقاذ القدس ـ وهو ما أكده ابن القلانسى ـ فمن الصعب الإبقاء على هؤلاء الأسرى أحياء. وهذا الرأى أخذ به المؤرخ نكاسون.

أما عن بقية روايته عن الاستيلاء على القدس، فقد انفرد بالإشارة إلى مقاومة الأهالى بعد اقتحام المدينة، وكذلك دقته فى الإشارة إلى سيل الدماء فى المسجد الأقصى ـ دون أن يبالغ مثل بقية المصادر فى أنه وصل إلى ألجمة وسروج الخيل. كما أنه كان دقيقًا فى وصفه عن اختيار جودفرى حاكمًا للقدس ـ وكذلك أرنولف بطريركًا للمدينة.

وعلى الرغم من هذه الإشارات السابقة إلا أن هناك بعض المآخذ فى رواية بطرس تيدبوده. مثال ذلك عدم استكماله لأحداث الغارة الصليبية عند يافا ومبالغته فى ذكر نتائجها. كذلك عدم إعطائنا تفاصيل الهجوم الرئيسى على القدس يومى ١٤ و ١٥ يوليو ١٠٩٩م بينما أفاضت المصادر الأخرى فى ذلك. كذلك ما أشار إليه من إصدار تانكرد لأوامره بقتل أهالى القدس وهى ما سبقت الإشارة إليها ورجحنا عدم صحة ذلك.

وفى الحقيقة فإن تاريخ تيدبوده على الرغم من أهميته التى اتضحت لنا من خلال أحد فصول كتابه لم يلق هذا القدر من الأهمية منذ قرنين من الزمان. فقد اعتبره كثير من المؤرخين الحديثين مثل «هنريش فون سايبل»[١٢]، و«أوف دى سالى» [١٣] أنه عمل منتحل من أعمال الحجاج وريموندا جيل واعتبره هنرى والن وأدولف رينيه أنه «سلسلة من التقارير الرسمية»[١٤]، واستمرت هذه النظرة التاريخية لتاريخ تيدبوده بعد نشر هاجمنير[١٥] وبريين[١٦] لأعمال الحجاج حيث أشارا إلى كثير من الأدلة ضده.

ولكن مع بداية القرن العشرين أشار نيقولاس يورجا إلى أهمية تيدبوده ومع الدراسة التى قدمها جون هيو هيل ولوريتا هيل لريموندا جيل[١٧] ثم الدراسة الدقيقة التى قدماها أيضًا لتاريخ تيدبوده من خلال مقارنة مخطوطاته المختلفة كلمة كلمة ومع أعمال الحجاج وريموندا جيل توصلا إلى أهميته ومكانته بين مصادر الحملة الأولى. وأشارا إلى وجود مادة جيدة به

ومعلومات انفرد بها من خلال مؤلفه بصفة عامة واختلافات لم تدخل فى حسابات النظريات القديمة بمن نقله عن من [١٨].

وبالفعل ومن خلال مراجعتى للمراجع المتخصصة فى تاريخ الحروب الصليبية مثل ستيفن رانسيمان[١٩] ورينيه جروسيه[٢٠] وستيفنسون [٢١] وغيرها لم تشر إلى تاريخ تيدبوده ضمن حواشيها بينما اعتمدت على أعمال الحجاج وريموندا جيل. ومرجع ذلك إلى أن هذه المراجع صدرت قبل عام ١٩٧٤ وهو تاريخ نشر تاريخ تيدبوده. كما أن ج. فرانس لم يشر إليه ضمن مصادره على الرغم من أنه تناول نقطة هامة تتعلق بالفترة من هزيمة كربوغا حتى الرحيل من عرقه، وربما أيضًا تأثر بالآراء القديمة عن تيدبوده لأن تاريخ مقالته يرجع إلى عام ١٩٧٠م[٢٢].

غير أن هذه النظرة بدأت تتغير نحو تيدبوده كمصدر، فقد استخدمه المؤرخ الشهير رالى سميث[٢٣] مقتبسًا منه وصفه للموكب الصليبى حول القدس، وكذلك يوشع براور [٢٤] فى مقالته عن القدس الذى استخدمه ضمن مصادره وخاصة عن دور ريموند كونت تولوز فى اقتحام القدس.

ولم يقتصر ذلك على المؤرخين الحديثين بل أيضًا أفاد منه القدامى مثل ألبرت أوف إكس ووليم الصورى وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وأخيرًا لابد أن أشير إلى أننى أوردت نص تيدبوده مترجمًا بكلماته والتى ورد فيها ما يتفق مع معتقده، مع تصحيح ذلك بآيات من القرآن الكريم لتصحيح ذلك. كذلك وصفه للمسلمين بكلمات تعبر عن روح التعصب لدى هؤلاء المؤرخين مثل «الكفار» و«الوثنيين» وغيرها.

أرجو من الله تعالى أن تكون هذه الدراسة إضافة إلى تلك الدراسات التى تتناول دراسة مصادر تاريخ الحروب الصليبية والتى لاشك أنها تفيد الدارسين فى هذا المجال من ناحية، وتبرز الحقيقة التاريخية دون تحيز من

ناحية أخرى. وانتهز هذه الفرصة لأعبر عن خالص شكرى للأستاذ الدكتور محمد محمد مرسى الشيخ لمراجعته لهذا البحث وتوجيهاته القيمة لى، وكذلك للزميل الفاضل الأستاذ الدكتور محمد السيد عبد الغنى على ملاحظاته على النص اللاتينى، فله خالص شكرى وتقديرى.

والله أسأله التوفيق والسداد.

هوامش المقدمة

(١) Fulcher of Chartres, Gesta Francorum Iherosolem (ed. by Frances Rita Rayan, as A History of the Expedition to Jerusalem, Tennessee, 1969.

(٢) Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem,

ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: د. حسين محمد عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠.

(٣) Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, as: The Deeds of the Franks and the other Pilgrims to Jerusalem, ed. by Rosalined Hill, Medieval Texts, London, 1962.

وكذلك راجع: ترجمة : د. حسن حبشى لنفس المصدر، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، القاهرة، ١٩٥٨.

(١) وردت كثير من الصيغ لكنية المؤلف فى المخطوطات المختلفة مثل:

Tudebouis, Tudabouis, Tutebouis, Tudebodus

وربما يرجع هذا الاختلاف فى الصيغ إلى أثناء الترجمة لاسيما من الفرنسية إلى اللاتينية. وقد أوردت المخطوطات أنه ولد فى سيفركوم أو من مواطنيها وسيفراى Sivray هى مدينة صغيره فى بواتيه وأوردت مخطوطتان أنه «أسقف سيفراى» وكان لتيدبوده أخ وربما اثنان فى الحملة. وقد مات أحدهما من إصابة لحقت به عند أسوار أنطاكية، والآخر قتل أمام المعرة، ووصفه لهما يدل على أنهما فارسان من عائلة نبيلة. ويبدو أن تيدبوده استكمل كتابه بعد موت جودفرى دى بويان ولكنه توقف عند معركة عسقلان فى ١٤ أغسطس ١٠٩٩م، ومن المؤكد أنه وضعه قبل عودته إلى فرنسا مع جموع الصليبيين بعد انتهاء الحملة الأولى، للمزيد، انظر:

RHC.Occ. Vol. III, pp. I-X.

(٥) Ibid.

(٦) Radulph of Caen, Gesta Tancridi Siciltiae Regis in Expeditione Hierosolymitana, in RHC, H.Occ. Vol. III.

ولد رادلف فى كين «ويذكر د. مارتين D. Martene أنه ولد فى عام ١٠٨٠م،

وكان تلميذًا لأرنول أو أرنولف الذى سيصبح بطريركًا لبيت المقدس، ورحل إلى الأراضى المقدسة فى حوالى عام ١١٠٧م أثناء إعداد بوهمند لحملته ضد الإمبراطورية البيزنطية ووصل إلى أنطاكية حيث كان راغبًا فى خدمة تانكرد وكان لذلك أثره على حصوله على روايات عن أحداث لم يشاهدها بعينه بل رواها له صانعوها وهناك إشارة عن وفاته فى عام ١١١٥م، ولكنها غير صحيحة لأنه أورد أحداثًا جرت فى عام ١١٣١م، مما يعنى وفاته بعد ذلك العام. انظر:

RHC. H. Occ. III, pp. XXXVIII, XXXIX.

(٧) Ibid.

(٨) J. Prawer, «The Jerusalem the Crusaders Captured: Contribution to the medieval Topography of the City» in Crusade and Settlement ed. P.W. Edbury, Cardiff 1985, p. 9.

(٩) William of Tyre, A History of Deeds done beyond the Sea, 2 vols., trans. and annotated by E. Babcock A.C. Krey New York, 1943.

(١٠) Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in RHC, H. Occ., Vol. IV.

(١١) John Hugh Hill and Laurita L. Hill.

(١٢) Heinrich Von Sybel, cf. Introduction to Peter Tudebode, p. 2.

(١٣) F. de Saulcy, Ibid.

(١٤) وضع هنرى والن Henri Wallon وأدولف رينيه Adolph Renier مقدمة تيدبوده فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية. انظر:

RHC. H.Occ, Vol. III, pp. I-X.

(١٥) H. Hagenmayer, Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitan Orum, ed. by H. Hagenmeyer (Heidelberg, 1890).

(١٦) Historie anonyme de la premiere croisade, ed. and trans. by L. Brehier (Paris 1924)

(١٧) ريموند اجيل، المصدر السابق، ٣٥-٥٦.

(١٨) Introduction to Peter Tudebode, pp. 6-12.

(١٩) S. Runciman, A History of the Crusades, 3 Vols. Cambridge , 1975, Vol. I, pp. 279-288.

(٢٠) R. Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem 3 Vols, Paris, 1948, Vol. I, pp. 155-166.

(٢١) W. Stevenson, The Crusaders in the East, Beirut, 1907, pp. 35 ff.

(٢٢) J., France, The Crisis of the First Crusade, From the Defeat of Kerbogah to the Departure from Arqa, Byzantion XL, 1970, pp. 277-78.

(٢٣) J. Riley - Smith, The Crusades, Idea and Reality (1095-1974) , London, 1981, pp. 164-65.

(٢٤) Prawer, op.cit., p. 7.

قائمة المختصرات

- B.E.O. Bulletin des Etudes Orientale.
- B.I.H.R. Bulletin of the Institute of Historical Research.
- H.Chr. Hagenmeyer, Chronologie.
- J.A.Journal Asiatique.
- J.J.S. The Journal of Jewish Studies.
- R.H.C. H.Occ. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentax.

الترجمة العربية
حادى عشر ـ الاستيلاء على بيت المقدس

وصل ريموند أوف سان جيل وجودفرى ومعهم المؤمنون السعداء إلى مشارف بيت المقدس مبتهجين فخورين فى يوم الثلاثاء السابع من يونيو وفرضوا حصاراً رهيباً [١]. وقد احتل روبرت النورمانى المنطقة إلى الشمال المجاورة لكنيسة سيد الشهداء العظيم ستيفن حيث رجم القديس بسعادة من أجل اسم المسيح [٢]. وعسكر بجوار قسمه كونت فلاندرز، وعسكر الدوق جودفرى وتانكرد إلى الغرب[٣]، بينما اتخذ ريموند أوف سان جبل موقعه على جبل صهيون فيما يلى كنيسة القديسة مريم أم الرب[٤]. فى هذا المكان رحلت مريم عن العالم، وقطع الربُّ الخبز مع حوارييه، ودخل الروح القدس قلوبهم[٥].

خرج فرسان جيشنا، جيش الضريح المقدس، فى اليوم الثالث من الحصار، وهم ريموند بيله وريموند دى تورين وآخرون وقد أزمعوا النهب والتخريب. والتقى فرسان المسيح بمائتين من العرب، وشنوا الحرب على الوثنيين ويعون الرب والضريح المقدس سحقوهم. وذبحوا الكثيرين منهم واستولوا على ثلاثين فرساً[٦]، وفى اليوم الثانى من الأسبوع التالى (الاثنين) نفذ الصليبيون هجوماً مماثلا كادت بيت المقدس تسقط على إثره لو كانت سلالم التسلق متاحة. على أية حال لقد عثروا على سور أضعف من الباقين ودفعوا بالسلم على السور الأعلى (أو الرئيسى) وتسلقه فرساننا والتحموا بالوثنيين فى معركة بالسيوف والرماح[٧]. ولقى ريجنالد مستشار هيو دى ليزينا كينسس وكثير من المسيحيين الآخرين حتفهم، بيد أن قتلى الأعداء كانوا أكثر[٨].

ظل المسيحيون بدون خبز لمدة عشرة أيام[٩]، بينما وصلت أنباء أن سفننا قد رست فى ميناء يافا القريب[١٠]. وهكذا عند الصباح تخلى مائة فارس من جيش ريموند أوف سان جبل عن الحصار، منهم ريموند بيله وجلديمار كاربنيل وإكهارد أوف مونتمريال ووليم أوف سابران وآخرون لا أعرف أسماءهم[١١]. وعندما انطلقوا إلى الميناء / قام ثلاثون من فرساننا من بينهم جلديمار وإكهارد بعمل حركة التفاف وهاجموا ستمائة من العرب والأتراك والمسلمين. وقد حمل الفرسان المسيحيون بشجاعة بيد أن تفوق الوثنيين على رجالنا كان كبيراً حتى أنهم طوقوا الصليبيين من جميع الجهات وقتلوا إكهارد أوف مونتمريال ومشاة مساكين.

وبينما كان المسيحيون فى الشرك حتى أنهم لم يكونوا يتوقعون سوى الموت، اندفع رسول إلى ريموند بيله وسأله: لماذا تبقى هنا مع فرسانك؟ يا للحسرة إن كل رفاقك قد وقعوا بين براثن العرب والأتراك والمسلمين ولعلهم قد لقوا حتفهم فى هذه اللحظة. أسرع هلم إلى نجدتهم. وأحيت كلمات الرسول أمل الحياة فى نفوس الصليبيين، واندفعوا مسرعين إلى مسرح المعركة. شكل الكفار صفين للقتال عندما شاهدوا فرسان بيت المقدس. وتصدى لهم المسيحيون وهم يهتفون باسم المسيح والضريح المقدس وألقوا بأنفسهم فى شجاعة فائقة على أعدائهم حتى أن كل فارس ألقى بنفسه على خصم له. فلما أدركوا أنهم لن يكونوا نداً لشجاعة الصليبيين تملكهم الرعب، فتنادوا بالتراجع ثم لاذوا بالفرار. وأخذت قواتنا تطاردهم حوالى أربعة أميال، حيث قتلوا عدداً هائلا منهم، وأمسكوا بواحد منهم أبقوا على حياته ليكون مصدراً لإخبارهم. أضف إلى ذلك أنهم استولوا على مائة وثلاثين فرساً[١٢].

كان نقص المياه أثناء الحصار يشكل كارثة على الصليبيين حتى أنهم قاموا بتخييط جلود الثيران والجاموس والماعز فى قنينات جلدية وحملوا فيها

المياه لمسافة ستة أميال. هذه المياه الآسنة والعفنة كانت تشرب من هذه القنيات حتى أننا كنا يوميًا فى بؤس وعذاب شديدين بسبب عفن المياه ونقص الخبز. وقد نفعنا نبع سيلوام الواقع عند سفح جبل صهيون فترة من الوقت. ولكن حتى المياه كانت تباع بين مسيحى الرب والضريح المقدس حتى أن الرجل كان يطفىء غلة ظمأه ببنس.

قام المسلمون الذين كمنوا حول كل الينابيع والآبار بذبح أولئك الذين أمكنهم العثور عليهم، واقتادوا الأنعام بعيداً إلى مغارات أو كهوف فى الجبال. بينما كان الكفار فى أماكن أخرى يذبحون أولئك الذين يدخلون مزارع العنب بحثًا عن طعام(١٣).

وعندما رأى قادتنا هذه الفظائع تملكهم غضب شديد وعقدوا مجلسًا للتشاور أوصى فيه الأساقفة والرهبان بأن يتحرك الصليبيون فى موكب حول المدينة. وهكذا خرج الأساقفة والرهبان حفاة الأقدام يرتدون الثياب الدينية ويحملون الصلبان فى أيديهم من كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون إلى كنيسة القديس ستيفن سيد الشهداء، وهم يترنمون ويبتهلون للرب أن يعتق مدينتهم المقدسة والضريح المقدس من أيدى الوثنيين ويضعهما فى أيدى المسيحيين للقيام بواجب العبودية المقدسة له(١٤). وسار رجال الدين فى أرديتهم مع الفرسان المسلحين وأتباعهم جنباً إلى جنب.

وقد جعل هذا المشهد المسلمين يصطفون بالمثل على أسوار بيت المقدس، يحملون شارات محمد ﷺ على راية وعلم طويل مثلث(*). وصل المسيحيون إلى كنيسة القديس ستيفن وهناك اتخذوا مواقعهم حسب العادة فى المواكب. وفى الوقت ذاته وقف المسلمون على السور وهم يصرخون وينفخون الأبواق ويعرضون كل أنواع السخرية. وإضافة إلى هذا الإيلام صنعوا صليباً من الخشب يشبه ذلك الصليب الذى انساب عليه دم المسيح

الرحيم الذى فدى العالم(*). وبعد ذلك أظهروا حزنًا شديداً على المسيحيين عندما وعلى مرأى من الجميع أخذوا يضربون الصليب بالعصى ويحطمونه على الأسوار وهم يصيحون صارخين : أيها الفرنجة صليب عجيب والتى تعنى «أيها الفرنجة هل ذلك صليب عجيب؟»(١٥)

تألم المسيحيون بشدة لهذا المشهد، ولكنهم واصلوا صلواتهم وهم يشقون طريقهم فى الموكب إلى كنيسة جبل الزيتون التى صعد منها المسيح إلى السماء. هنالك راح أرنولف رجل الدين العظيم المبجل يتلو مواعظه يمجد الرحمة التى سوف يتفضل بها الرب على المسيحيين الذين ساروا فى إثره إلى قبره المقدس الذى صعد منه إلى السماء(١٦). فلما رأى المسلمون وقوف المسيحيين هناك فى مشهد بالغ الروعة بدأوا يهددونهم بالجرى مجيئة وذهابًا فيما بين هيكل الرب وهيكل سليمان. بيد أن المسيحيين واصلوا موكبهم ووصلوا إلى دير القديسة مريم فى وادى جوسفات، الذى صعدت منه روحها إلى السماء. ومن هناك عادوا إلى جبل الزيتون وأراد أحد رجال الدين أن يدخل الكنيسة حيث وصل الموكب إلى مدخل الدير، فتلقى ضربة فى منتصف جبهته ومات على الفور. إننى أعتقد أن روحه سوف تسكن مع المسيح إلى الأبد فى عالم لا آخر له آمين(١٧). هذا ما يعتقد أول من كتب هذا عندما كان فى الموكب وشاهده بعينه الفانيتين، أقصد بطرس تيدبوده(١٨).

على الفور راح قادتنا يدرسون الوسائل التى يمكنهم بها الاستيلاء على بيت المقدس ويدخلون القبر المقدس بغرض عبادة ربهم ومنقذهم. فشيدوا برجين خشبيين وآلات حرب أخرى كثيرة. وقام كل من جودفرى وريموند بتجهيز برجيهما بوسائل حربية خداعية. وكان ينبغى جلب ألواح خشبية من أجل سحب تلك الألواح من مكان بعيدة(*). وقام خمسون أو ستون أسيراً / مسلمًا بحمل الأخشاب على أكتافهم، وهكذا أربك

المسيحيون أعدائهم برجالهم[١٩]. وقد تسبب بناء هذه الآلات فى أن يتخذ المسلمون إجراءات غريبة لتقوية المدينة وأبراجها وراحوا يواصلون العمل ليلا ونهاراً.

وفى أحد الأيام قام الأعداء بإرسال أحد المسلمين للتجسس على بناء الات الحرب المسيحية بيد أن السريان واليونانيين حين رأوا هذا المسلم أخبروا الصليبيين بأمره قائلين، ومعناه «وحق المسيح إن هذا المسلم جبان». وسرعان ما أمسكوا به وأخذوا يستجوبونه من خلال مترجم وسألوه عن سبب مجيئه. فرد ذلك الأسير بقوله «لقد أرسلنى المسلمون إلى هنا لكى أتعرف على ابتكاراتكم». وقضى المسيحيون بحكمهم عليه، لقد ساقوا ذلك الجاسوس ويداه وقدماه مقيدتان وألقوا به فى قاع آلة تسمى المنجنيق. لقد ظنوا أن بإمكانهم أن يقذفوا به بكل قوتهم داخل بيت المقدس، فوجدوا أن هذا مستحيل لأنه تم إلقاؤه بقوة شديدة حتى أن قيوده تحطمت قبل أن يصل إلى الأسوار وتمزق إرباً[٢٠].

بعد التجسس على أكثر جزء من دفاعات بيت المقدس الذى يسهل منه مهاجمتها، قام القادة فى ليلة السبت بتحريك آلاتنا الحربية وأبراجنا الخشبية إلى القطاع الشرقى من الحصار[٢١]. وعند الغروب قاموا بنصبها وظلوا طوال الأيام الثلاثة التالية من الأسبوع يضعون الأبراج فى ترتيبها ويهيئونها للمعركة. وفى اليومين الرابع والخامس من الأسبوع شنوا هجوماً خاطفاً على بيت المقدس من كل الجوانب[٢٢]. وفى اليوم السادس واصلوا الهجوم فجراً مرة ثانية على المدينة/ ولكنهم أصيبوا بالذهو والخوف عندما باءت جهودهم هذه بالفشل، وبرغم هذا، فعند اقتراب الساعة التى قرر فيها سيدنا يسوع[٢٣] المسيح أن يصلب على صليب من أجلنا، قاتل فرساننا والدوق جودفرى وأخوه كونت يوستاش بشجاعة فوق برج الحصار. ثم قام فارس يسمى ليتولد[٢٤] بتسلق سور المدينة، وتبعه فرساننا فرسان المسيح،

ومعهم الكونت يوستاش والدوق جودفرى. وانطلق المدافعون مهرولين من السور وانتشروا فى أنحاء بيت المقدس، بينما راح رجالنا يطاردونهم ويقتلونهم ويطيحون برؤوسهم.

وفى نفس الوقت كان ريموند سان جيل فى موقف حرج بسبب خندق عميق بالقرب من السور أثناء قيامه بتحريك برجه نحوه. وبعد التشاور مع رجاله بشأن ما يمكن من وسائل لردم هذا الخندق، أعلن ريموند أن أى شخص يقوم بإلقاء ثلاثة أحجار فى الخندق سوف يكافئ بدينار، وبعد إتمام الهجوم بثلاثة أيام وليلتين، قام المسيحيون بتحريك برج الحصار إلى أحد أبراج المدينة.

تصدى المدافعون لقواتنا بشدة باستخدام النيران والصخور حتى أنهم أطاحوا بالجزء الأعلى من برج ريموند. واشتد غضب الكونت وفرسانه واضطرابهم لما فعله المدافعون من كسر الجزء الأعلى من البرج والذى بدا أنه سيحترق، وفجأة لمح ثلاثة فرسان من جيش الدوق جودفرى يقتربون من جبل الزيتون ويصرخون أن الدوق جودفرى ورجاله داخل بيت المقدس. ولدى انتشار أنباء اختراق الفرنج القدس صرخ ريموند فى رجاله: «لماذا تتخلفون، استمعوا أن جميع الفرنج فى المدينة» ولدى هذا الأمر التقطوا سلالمهم ودفعوا بها إلى السور وناضلوا لدخول بيت المقدس(٢٥).

بادر الأمير الذى يتولى القيادة فى برج داود بالتخلى عنه/ لريموند سان جيل وفتح البوابة التى طالما اعتاد الحجاج دفع الضريبة عندها. وبهذه المعاهدة وافق ريموند على توصيل الأمير وأتباعه الذين فى برج داود آمنين دون أى أذى بعيداً حتى عسقلان (٢٦). وقد نفذ ما وعد. وعند دخول بيت المقدس راح الحجاج يطاردون المسلمين ويقتلونهم هم والأعداء الآخرين حتى هيكل سليمان وهيكل الرب(*) وتجمع الأعداء هناك وشنوا هجوماً شديداً فى معركة حامية حتى غروب الشمس. بيد أن رجالنا قتلوا الكثيرين

حتى أن الدم سال فى كل أرجاء الهيكل[٢٧]. وأخيراً بعد سحق الكفار اختطف رجالنا عدداً كبيراً من الذكور والإناث فى الهيكل. وقتلوا بعضهم وأبقوا على البعض الآخر لفكرة طرأت فى أذهانهم[*]. سلم كل من تانكرد وجاستون ديبيارن راياتهما لعدد ضخم من الأعداء من كلا الجنسين المتجمعين على سقف الهيكل.

سرعان ما انطلق الصليبيون عبر أرجاء المدينة كلها يسلبون الذهب والفضة والخيول والبغال والمنازل المليئة بكل أنواع الثروات، وبعد ذلك وفد الجميع فرحين يبكون من السعادة عند القبر المقدس لمنقذنا. وفى الصباح التالى أرسل تانكرد أوامره/ أن يذهب المسيحيون إلى الهيكل ويقتلوا المسلمين[٢٨]. وعند وصولهم بدأ البعض يستخدمون أقواسهم ويقتلون الكثيرين. وقامت مجموعة أخرى من الصليبيين بتسلق سقف الهيكل وانقضوا على المسلمين المجتمعين هناك وقطعوا رقاب الذكور والإناث بشفرات سيوفهم المسلولة. وجعلوا البعض منهم يقفزون من فوق سقف الهيكل ليلقوا حتفهم بينما لاقى الباقون حتفهم فى أعلاه[*].

عقد الصليبيون اجتماعاً[٢٩] فى يوم آخر أمام الهيكل واتفقوا على أنه ينبغى لكل واحد أن يتلوا صلوات ويقدم صدقات ويصوم حتى يختار الرب واحداً منهم يرضاه ليحكم الآخرين ويحكم بيت المقدس ويسلب الوثنيين. بيدأن الأساقفة والكهنة قضوا بأن الصليبيين عليهم أولا جر جثث المسلمين وسحبها من المدينة حتى لا تتسبب روائحهم الكريهة فى إيذائهم. وبالفعل كانت شوارع بيت المقدس تغص بالجثث.

قام الأحياء من المسلمين بجر أجساد ذويهم إلى خارج البوابات وكوموها فى أكوام مثل المنازل ثم أشعلوا فيها النيران[٣٠]. هل رأى أحد قط أو سمع بمثل هذه المجزرة البشرية للأعداء ؟ الربُّ وحده يعرف العدد ولا أحد غيره يعلم.

احتفل الصليبيون فى كافة أنحاء المدينة بعيد أوكتاف (الثمانية) للاستيلاء على بيت المقدس. وفى نفس اليوم عقدوا مجلسًا اتفقوا فيه على اختيار الدوق جودفرى أميرًا على بيت المقدس ليقوم بواجب قتال الكفار وحماية المسيحيين[٣١]. وبنفس الطريقة اختاروا بطريركًا بالغ الحكمة وذائع الصيت يسمى أرنولف فى عيد القديس بطرس فى القيود[٣٢]. سقطت بيت المقدس فى الخامس عشر من يوليو، سادس أيام الأسبوع، بمساعدة سيدنا يسوع المسيح الذى له المجد والشرف أبد الآبدين آمين[٣٣].

التعليق والهوامش

(١) وصل الصليبيون إلى بيت المقدس فى ٧ يونيو ١٠٩٩م H.Chr. ٣٨٥ وأورد تيدبوده التاريخ الصحيح. أما أعمال الحجاج فتاريخها غير صحيح. ولم تذكر وصول ريموند أوف سان جيل والدوق جودفرى. انظر:

Brehier, Gesta, p. 194, fn.1; Hagenmeyer, Gesta p. 448, fn. 1.

وكان افتخار الدولة حاكماً للقدس (الترجمة الإنجليزية).

اتفقت غالبية المصادر الصليبية على أن وصول الصليبيين أمام القدس كان فى يوم الثلاثاء السابع من يونيو ١٠٩٩م. وهو ما أشارت إليه أعمال الحجاج ولكنها أخطأت فى ذكر التاريخ حيث أشارت إلى أنه فى ٦ يونيو، أما فوشيه أوف شارتر فحدد نفس التاريخ بطريقة غير مباشرة وذلك عندما ذكر هجوم ١٣ يونيو أنه تم فى اليوم السابع لوصولهم أى يقصد ٧ يونيو، أما وليم الصورى والذى ينقل عن المصادر المبكرة فحدده أيضًا بيوم السابع من يونيو. وأشار رادلف أوف كين إلى خروج تانكرد قبل وصول الصليبيين إلى القدس متجهًا إلى بيت لحم لإنقاذها من المسلمين وأنه نجح فى ذلك وحررها من الأعداء وعاد إلى المعسكر الصليبى قبل الفجر. ويشير فوشيه وألبرت أوف إكس إلى مصاحبة بلدوين أوف بورج ومعه مائة من الفرسان الصليبيين لتانكرد فى الاستيلاء على بيت لحم وذلك فى ٦ يونيو ١٠٩٩م ثم انضمامهم إلى بقية القوات الصليبية فى اليوم التالى وليس فى فجر اليوم نفسه كما بالغ رادولف عن إشارته عن تانكرد. وللمزيد انظر:

Gesta Francorum, p. 87;

William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 348-50; Radulfus, op.cit., p. 689; Fulcher of Chartres, op.cit., XXVII, 13-17, p. 118; Albert d'Aix, op.cit., p. 461; cf. also: Richard, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, Trans from French by J. Shivley, 2 vols. Amsterdam, 1979, p. 14.

(٢) يقع باب القديس ستيفن إلى الشمال وسمى باسم أول الشهداء ستيفن الذى مات رجماً.

انظر: Actus Apostolorum 6 & 7. وكانت الكنيسة تقع خارج أسوار بيت المقدس (الترجمة الإنجليزية).

وعن أبواب المدينة ومواقع القوات انظر الرسم التوضيحى.

(٣) أضاف ريمونداجيل أن روبرت النورمانى عسكر هنا أيضًا. ودافع هؤلاء القادة عن المنطقة من كنيسة القديس ستيفن إلى برج الزاوية الملاصق لبرج داود، والذى يقع إلى الغرب ويحرس باب يافا. انظر Raymond d'Aguilers, p. 116 (الترجمة الإنجليزية).

(*) أشار ريمونداجيل إلى حدوث اشتباكات أولية بين طليعة الجيش الصليبى وأهالى المدينة قتل على أثرها ثلاثة أو أربعة من الصليبيين. أما رادلف فيشير إلى رواية أخرى يمجد فيها تانكرد حيث اشتبك مع خمسة من الفرسان المسلمين قتل ثلاثة منهم وفر الاثنان الآخران وعاد وهو محمل بالغنائم. ويفند نيكلسون رواية تانكرد مشيرًا إلى أنه وردت نفس القصة فى المصادر القديمة وينسبها لبطله تانكرد والذى فى ضوء شخصيته لا يستطيع نسب هذه التقوى الدينية إليه. كما أنه من خلال علاقاته بالقادة الصليبيين لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل دون إخبار جودفرى وروبرت أوف فلاندرز والذى كان على علاقة وثيقة بهما. ولاشك أن رواية ريموند هنا هى الأرجح وهى عادة ما تحدث عند بدء حصار المدن اشتباكات أولية أو مناوشات وأيد البرت إكس هذا ولكنه لم يعترف بحدوث خسائر للصليبيين.

ريمونداجيل : المصدر السابق، ص ٢٣٥،

Radulfus, op.cit., p. 686; Albert d'Aix, op.cit., pp. 402-63; Cf. Also; Nicholson, R., Tancred, Chicago 1940, pp. 85-86.

(٤) يقع جبل صهيون فى الجانب الغربى لبيت المقدس. ويذكر ريمونداجيل أن الكونت سان جيل حرك معسكره. (الترجمة الإنجليزية).

(*) يعطى ريمونداجيل بعض المعلومات عن طبيعة المنطقة جغرافيًا، مثل إشارته إلى وجود وادى عميق عند معسكر ريموند سان جيل، ومعلومات عن جبل صهيون لا يشير إليها تيدبوده، أما رادلف فكان أكثر تحديدًا فى روايته مشيرًا إلى الأماكن التى حاصرها الصليبيون وتلك التى لم يحاصروها. وانفرد وليم الصورى برواية ذكر فيها أن الصليبيين عقدوا اجتماعًا مع الرجال ذوى الخبرة لمناقشة أى الأماكن التى يسهل منها اقتحام القدس. وتم اتخاذ القرار بأن يكون ذلك من باب القديس ستيفن حتى الباب الواقع عند برج داود. كما أن تغيير ريموند لموقعه تم بناء على نصيحة بعض الرجال الدهاة لسببين: الحصول على موقع

أفضل، والثانى لحماية كنيسة جبل صهيون. وتجدر الإشارة إلى أن جميع القادة الصليبيين كانوا يبحثون عن أسهل مكان يتم اقتحام المدينة منه ليكون لهم قصب السبق فى ذلك لتحقيق أطماعهم الشخصية. ويشير ريموندإجيل إلى حدوث معارضة من جانب بعض الأمراء حتى أن كونت تولوز اضطر لدفع مبالغ لفرسانه ولمن يقوم بالحراسة الليلية. أما مصادر الرحالة والجغرافيين العرب فقد أعطت لنا أيضًا وصفًا مسهبًا لهذه المدينة المقدسة وأسوارها. فقد زارها ناصر خسرو قبل استيلاء الصليبيين عليها بفترة قصيرة، وكذلك المقدسى الذى كتب عنها فى القرن الرابع الجرى/ العاشر الميلادى. وكلاهما يعلنان لنا رواية هامة عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة والنفائس الموجودة بهما وكذلك عن طبيعتها الجغرافية ومصادر المياه بها. وسوف نورد روايتهما فى موضعها للمقارنة مع المصادر الصليبية.

ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمه وعلق عليه: د. يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٢٠ وما بعدها؛ المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٩، ص ١٦٦ وما بعدها؛ ريموندإجيل، المصدر السابق، ص ٢٣٦.

Radulfus, op.cit., pp. 687-88; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 349-50; Cf. also; Prawer, J., THe Jerusalem the Crusaders Captured, in Crusade and Settelment, ed. by P.W. Edbury, Cardiff, 1985, p.p. 5-6.

(٥) يوجد لدى تيدبوده تفاصيل أكثر قليلا عن جبل صهيون مما ورد فى أعمال الحجاج. ويقدم ريموندإجيل معلومات أكثر من ذلك. والمصدر المشترك لهؤلاء المؤرخين الثلاثة هو «الأماكن المقدسة» ويبدو أن أعمال الحجاج تشطب إما من تيدبوده أو ريموندإجيل أو المصدر المشترك. انظر:

MS 5135 A., Folio 37b-39 (Bibliothcque Nationalc, Paris)

بحثًا عن نص مختصر، يشار إليه عادة باسم الأماكن المقدسة وقد نسخ بعد خاتمة نصوص أعمال الحجاج وتيدبوده إلا فى حالة مخطوط برلين لأعمال الحجاج الذى فقد أجزاءه الخاتمة ولذلك فإنه لا يعطى دليلا. انظر:

Brehier, Gesta, p. 194 (الترجمة الإنجليزية).

(٦) وقعت هذه المناوشة فى ٩ يونيو ١٠٩٩م. H. Chr. 386 ويكتب تيدبوده عن جيش الضريح المقدس ويضيف وبمساعدة الضريح المقدس. (الترجمة الإنجليزية).

(*) انفـرد تيـدبوده والمؤرخ المجـهـول بذكـر هذه المناوشـة ـ ولم يشـر إليـهـا أيًا من ريموندإجيل أو فوشيه أو وليم الصورى. ومن الملاحظ أن مكانهـا لم يشر إليه كلاهما. وربما كانت غارة للسلب والنهب والبحث عن المؤن والتى أشار إليها تيدبوده فى موضع تال أن الصليبيين أخذوا يعانون من نقص فيها. انظر:

Gesta Francorum, pp. 87-88.

(٧) تم هذا الهجوم فى ١٣ يونيو ٩٩ H Chr. 389 ولدى ريموندإجيل رواية مشابهة. انظر: Raymond d'Aguilers, p. 117 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يحدد أيضاً فوشيه تاريخ هذا الهجوم ولكنه يشير بأنه تم فى اليوم السابع لوصولهم. أما وليم الصورى فقد أخطأ فى تحديده بأنه جرى فى اليوم الخامس ـ أى ١١ يونيو ـ بدأ الهجوم بإعلان المنادى وعزف الأبواق كما أشار فوشيه ووليم الصورى. بينما يورد كل من رادلف وريموندإجيل الرواية الخاصة بذلك الكاهن الذى ظهر عند جبل الزيتون ونصح الصليبيين بشن الهجوم مدعيًا بأن المدينة سوف تسقط دون آلات حصار وقد استهدف هذا الهجوم جزءً من سور المدينة والذى كان يعسكر تانكرد أمامه، ولم يستهدفها بأكملها كما ادعى فوشيه ووليم الصورى، وأكد رادلف ذلك بقوله «إن المعركة قد تجمعت فى هذا الركن من الداخل، بينما كل مساحة المدينة الباقية قد خلت من الخارج كما لو كانت فى سبات عميق».

وقدم لنا رادلف أفضل مادة عن إعداد السلم للهجوم. فقد ذكر أن تانكرد علم بالأماكن السرية التى جلبت منها مواد هذا السلم. وتقدم تانكرد لتسلق السلم ولكن ريبالد أوف شارتر استأذنه فى ذلك حافظًا عليه ولكى يكون له شرف دخول المدينة. ولكنه ما أن اقترب من السور إلا وعاجلته ضربة سيف أصابته فى ذراعه الأيسر فقط وحمل إلى عربة تانكرد لتلقى العلاج، واتفقت أغلب المصادر على صعوبة العثور على مواد لصناعة سلالم الاقتحام، فلم يتم العثور إلا على ما يكفى لسلم واحد فقط مما يؤكد الرواية السابقة بأن الهجوم كان ضد جزء من السور وليس المدينة بأكملها التى يستحيل اقتحامها بسلم واحد فقط.

ويشير ألبرت أوف إكس إلى المقاومة الباسلة التى أبداها سكان القدس لصد هذا الهجوم حيث قابل الصليبيون سيلا من القذائف والسهام من داخلها. وينفرد تيدبوده بإشارته إلى مقتل ريجنالد. ولكنه يبالغ فى أن قتلى المسلمين كانوا أكثر

فى الوقت الذى لم يستطع فيه الصليبيون الاقتراب من المدينة وفشل ريالد أوف شارتر فى ذلك.

وقدم لنا المؤرخون الصليبيون تحليلات مختلفة عن فشل الهجوم. فيشير ريمونداجيل إلى أن السبب يرجع إلى التخاذل والخوف، بينما يذكر رادلف أن ذلك يرجع إلى عدم محالفة الحظ لهم. أما تيدبوده والمؤرخ المجهول فيشيران إلى أن ذلك يرجع إلى قلة السلالم وهو التحليل الصائب. وفى الحقيقة فإن هذه المحاولة الأولى لاقتحام القدس لم يسفر عنها إلا تحطيم الدفاعات الخارجية لهذه المنطقة أو ما يعرف بالبريكان. للمزيد انظر:

ريمونداجيل: المصدر السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧؛

Fulcher of Chartres, op.cit., XXVII, pp. 119-120; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 350-52; Radulfus, op.cit., pp. 688-89; Albert d'Aix, op.cit., p. 407; Gesta Francorum, p. 88-89.

(٨) لم نترجم ليزبناكينسس لأنه توجد كثير من الأماكن فى جنوب فرنسا مكونة من اسم العلم ليكنيوس ومعدلة ببعض الإضافات فى نهاية الكلمة. وفى هذا السياق انظر: A. Giry, 1894, pp. 385-386, 409.

ويلاحظ جرى تطورات فى أسماء الأماكن المنتهية بـ iacus, iacum. ويلاحظ جراندجنت ٣٩ # تطورات الصفات المشتقة من أسماء والتى تستخدم المقطع الأخير ensis. وعلى هذا فإن مثل هذه الصفات يمكن أن تكون مستخدمة كأسماء. وأسماء الأماكن على وجه الخصوص تستخدم المقطع الأخير ensis وتصرف على نفس هذا المقطع ensis. ولا تذكر أعمال الحجاج ريجنالد، والمخطوطات المختلفة ليتدبوده تذكر أنه كان مستشاراً لهيو. انظر:

Hagenmeyer, Gesta, p. 454, fn. 12. (الترجمة الإنجليزية).

(٩) رواية تيدبوده مختصرة جداً عن أحوال الطعام. أما أعمال الحجاج فتورد رواية مفصلة عن عطش المسيحيين والتى تمثل رواية مختصرة عن رواية ريمواندجيل المفصلة. انظر: Brehier, Gesta, p. 196; Raymond d'Aguilers, pp. 118-119.

(الترجمة الإنجليزية)

(١٠) وصل الأسطول الجنوى إلى يافا (Joppa Yafa) فى ١٧ يوليو ١٠٩٩م H.Chr. 392 ويذكر ريموند وصول ست سفن انظر: Raymond d'Aguilers, p. 119. وتتبع

مخطوطات أعمال الحجاج وكذلك مخطوطات تيدبوده وسائل مختلفة فى هجاء يافا. انظر: Bongars Gesta, p. 27 تكتبها Laphiae. وتكتب مخطوطات أعمال الحجاج ie, ie وكلاهما تشيران إلى حالة المضاف إليه المؤنث ويشير إلى تركيب ينتهى بالمقطع الأخير ia ـ انظر:

Schwan - Behrens # 29, 5, Grandgent # 37.

وترد e (gen), en (acc.) , Ioope (dative) تحدث فى اللغة اللاتينية الشعبية. انظر: Actus Apostolorum 9 : 36; 10; 5; 11; 5 وهى تشير إلى موائمة عامة لهذا الاشتقاق من اليونانية. وحالة المضاف إليه عند تيدبوده تنتهى بحرف الـ i قد ترجح خلطًا لاتينيًا متأخرًا لنهاية حرف الـ i وحرف الـ e فى المقاطع الأخيرة سواء فى النطق أو الهجاء انظر : Grandgent #243, 244 والاختلاف فى التراث النصى بين تيدبوده وأعمال الحجاج هنا ترجح أن تاريخهما قد نشر بشكل منفصل عن الآخر. (الترجمة الإنجليزية).

(١١) لم تذكر أعمال الحجاج جلديمار كارينيل والذى كان على علاقة طيبة بجودفرى ومنحه حيفا لكى يمنع تانكرد من امتلاكها. انظر: Rey, 1869, p. 264أما اكهارد أوف مونتمريال (كانتون دى ترفو آين) فقد رهن أملاكه إلى كلونى لكى يجهز نفسه للصليبية. انظر : Brehier, Gesta, p. 14, fn., 5 أما وليم أوف سابران فقد كان سيدًا لسابران (جارد) وفى الجيش البروفانسى. انظر:

HGL 3, pp. 490-491; 5; cols, 687, 708, 732

(الترجمة الإنجليزية)

(*) حددت أعمال الحجاج العدد بسبعمائة. وفى ترجمة الدكتور حسن حبشى أشار إلى أسر فريق حى ليدلوهم على الطريق، بينما ورد فى ترجمة روسليندرهيل «ابقوا على حياة واحد منهم» وهو ما يتفق مع رواية تيدبوده. وأشار ريموندااجل إلى خروج سبعين فارسًا وخمسين من المشاة، وفى الوقت ذاته اتفق مع تيدبوده فى العدد بأنه ستمائة ولكنه أشار إلى مقتل أربعة فرسان وعدد كبير من المشاة، غير أن وصول النجدة الصليبية بدل الموقف. ثم يفسر كثرة غنائم الصليبيين بأنه راجع إلى تخلص الفاطميين منها لتخفيف حملهم والحصول على فرص أسرع للهرب. أما وليم الصورى فيضيف أن إرسال هذه القوات من جيش ريموند جاء بموافقة الجميع حيث أنه كان الوحيد الذى لديه قوات زائدة عن الباقين.

وأضاف اسماً آخر إلى قائمة القتلى هو جليرت دى تريفس، وقد أشار تيدبوده إلى اتخاذ الفاطميين تشكيلا قتاليًا عبارة عن صفين. راجع عن ذلك: ريموندا جيل: المصدر السابق، ص ٢١٩/٢٣٧.

Gesta Grancorum, pp. 88-89; William of Tyre, op.cit., VIII, p. 355; cf. also: Terence Wise, The Wars of the Crusades (1096-1291), Osprey, 1978, p. 50.

(١٢) وصف ريمونداجيل أيضًا هذه الغارة. وأشار إلى مقتل مائتين من الأعداء. وجرت أحداثها فى ١٨ يونيو ١٠٩٩م Raymond d'Aguilers, p. 120; H Chr, 393 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يلاحظ على رواية تيدبوده والمؤرخ المجهول توقفها عند هذا ولا تستكمل ذهابهم إلى يافا. بينما يود ريمونداجيل تفاصيل الذهاب إلى يافا واستقبال البحارة لهم. ثم مباغتة الأسطول الفاطمى لهذه السفن وانسحاب الصليبيين متجهين إلى القدس. أما وليم الصورى فيضيف أنهم حملوا معهم جميع التجهيزات والأشرعة وغيرها من الأدوات التى يمكنهم من الاستفادة منها ورحلوا بإشراف الحامية الصليبية ثم يصف فرحة الصليبيين أمام القدس لوصولهم نظرًا لخبرتهم فى أعمال البناء والتشييد وقطع الأشجار وبناء آلات الحصار.

ويلاحظ على رواية تيدبوده وغيرها من المؤرخين الصليبيين فى نتيجة المعركة السابقة. وتبدو لنا رواية ريمونداجيل أدق فيما يتعلق بخروج القوات الصليبية ثم إرسال إمدادات لها وهى التى اشتبكت مع العرب وليس كما وصف تيدبوده من الوصول إلى يافا ثم القيام بحركة التفاف. انظر:

Gesta Francorum, pp. 87-88; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 356-57.

ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ وكذلك: مصطفى الكنانى، المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠.

(١٣) تورد الروايات الثلاثة فى أعمال الحجاج وريموند وتيدبوده عن عطش المسيحيين ومعاناتهم عند عين سلوام. وتنطقها الثلاثة بشكل متقارب. ويكتب ريموند أن الصليبيين حملوا المياه لمسافة فرسخين أو ثلاثة. أما أعمال الحجاج وتيدبوده فيشيران إلى ستة أميال. ويورد ريموند أن إمدادات المياه لشخص واحد كانت تكلف خمسة أو ستة بنسات (نوممى).

ويذكر تيد بوده أنها بنس واحد فقط. انظر:

Raymond d'Aguilers, pp. 118-119; Liber, pp. 139, fn. 4, 140; Brehier, Gesta, p. 198.

(الترجمة الإنجليزية).

(*) أشار تيدبوده قبل ذلك إلى متاعب الصليبيين فى الحصول على الخبز، أما أعمال الحجاج فقد حددت هذه المتاعب فى أنهم كانوا يأكلون خبز الشعير وليس القمح. وقد أكد رادلف هذه المتاعب أيضًا بالنسبة للحصول على القمح. أما فوشيه فقد بالغ عندما أشار إلى أن الصليبيين لم يعانوا من نقص الخبز واللحوم، اللهم إلا إذا كان يقصد ذلك مقارنة بمتاعب الحصول على المياه، وقد أجمع المؤرخون الصليبيون بالنسبة لهذه المتاعب ومنهم من رسم لنا صورة حية عن ذلك مثل ريمنوداجيل، فأشار إلى الصراع بين الأقوياء والضعفاء وما يحدث من قتال بينهما فى سبيل الحصول على رشفة ماء تروى غلتهم فى حرارة وقيظ يوليو. بينما فى صورة أخرى يقدم لنا هؤلاء الذين يزحفون على الأرض بأفواه فاغرة وقد أخرسهم جفاف ألسنتهم وامتدت أديهم تطلب المياه ممن هم أسعد منهم حظًا. وأشارت هذه المصادر أيضًا إلى بيع الصليبين للمياه لبعضهم البعض. كما أشار إلى رواية تيدبوده الخاصة بالكمائن التى نصب عند أماكن العيون والينابيع والمزارع ومقتل الكثير منهم عندها. أما وليم الصورى فيشير إلى كيف أخفى المسلمون بشكل ماكر هذه الأماكن من مصادر المياه، ولكنه يشير إلى أن دور نصارى تقوع وبيت لحم فى دلهم للصليبيين على هذه الأماكن، ثم ينقل رواية ريموندداجيل عن الصراع حول المياه، ولكنه يعقد مقارنة بين الحال عند أنطاكية وعند بيت المقدس ويخلص إلى صعوبة الموقف عند القدس. ويشير رالدف أيضًا إلى هذه المتاعب بالنسبة للمياه ثم يعبر عن حالة اليأس التى وصل إليها الصليبييون بقوله «ضاعت حروب رومانيا هباء، ومعاناة الجوع عند أنطاكية راحت أدراج الرياح».

ولاشك أن هذه الحالة السابقة بالنسبة للمياه تصدق فيها هذه المصادر خاصة وإذا علمنا من مصادرنا العربية سواء الرحالة أو الجغرافيين الذين زاروا القدس أو كتبوا عنها أنها تعتمد بشكل أساسى على مياه الأمطار. فقد أشار ناصر خسرو والمقدسى والقزوينى والقلقشندى إلى اعتماد المدينة على هذه الأمطار ووصفوا لنا كيف يجمعه الأهالى فى خزانات فوق منازلهم وكذلك القنوات التى تحمل المياه

إلى المسجد الأقصى حيث تملئ صهاريجه. ومنهم من أشاد بطعم هذه المياه ومنهم من أشار إلى رداءتها مثل «القزوينى». أما عين سلوان فقد تحدثت أيضًا عنها هذه المصادر وأشارت إلى غزارة مائها مثل ناصر خسرو والمقدسى والقزوينى. ولم يشر أيًا منهم إلى رواية بعض المصادر الصليبية من أنها تزداد فى أيام معينة. انظر عن ذلك ناصر خسرو، المصدر السابق، ص ٢٠-٢٥؛ المقدسى، المصدر السابق، ص ١٦٧-١٦٨؛ القزوينى، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٦٠؛ القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤جـ، القاهرة، ١٩١٣-١٩٢٠، جـ٤، ص ١٠١؛ ريموندا جيل، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

Gesta Francorum, pp.88-89, Fulcher of Chartres, op.cit., XXVII, p. 120; William of Tyre, op.cit., VII, pp. 352-53; Radulfus, op.cit., pp.690-91.

(١٤) لفظ خدمته المقدسة (Servicium Faciendum) كانت مصطلحًا اقطاعيًا. وكانت خدمة أو واجبًا يؤديه المزارع الأجير إلى سيده الاقطاعى. انظر: Martin, 1892, p. 243 (الترجمة الإنجليزية).

(*) لم يشر تيدبوده إلى لون العلم الفاطمى وهو فى الغالب كان أخضر اللون. وقد اتخذ الفاطميون أيضًا ألوانًا لأعلامهم والتى كانت تحمل فى المناسبات المختلفة وكذلك مع سفرائهم. أما الشكل المثلث للعلم فيؤيده أيضًا ما ورد فى لوحة فى مكتبة البودليان تمثل معركة بين الفرسان الصليبيين والمسلمين وقد حمل أحد الفرسان المسلمين راية مثلثة الشكل. انظر:

Ahmed Zaky (Pasha), The National of Moslem Egypt, Proceedings, Vol. II, 1952, pp. 171-184; Terence Wise, op.cit., p. 53.

﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريمَ رسولَ الله وما قتلُوه وما صَلَبُوه ولكنْ شُبِّهَ لَهم وإنّ الّذينَ اختلفوا فيه لَفِى شَكٍّ منْه وما لهم به منْ علْمٍ إلاّ اتبَاعَ الظَنِ وما قتلوه يقيناً(١٥٧) بلْ رفَعَه اللّهُ إليه وكانَ اللّهُ عزيزاً حَكيماً(١٥٨)﴾ النساء

(١٥) يورد تيدبوده رواية أكثر تفصيلا عن الموكب عن تلك التى لدى أعمال الحجاج وريموندا جيل. أما تواريخ أعمال الحجاج لهذا الموكب فهى غير صحيحة. انظر:

Raymond d'Aguilers, pp. 122-123; Brehier, Gesta, p. 202, fn., 1.

وعقد المجلس فى ٦ يوليو ١٠٩٩ (H.Chr. 397) وذلك بعد أن ألقى بطرس دسيدريوس وصاياه السماوية. وأقيم الموكب فى ٨ يوليو ١٠٩٩ H.Chr. 393

ورواية تيدبوده هى أفضل الروايات فهو يظهر معرفته بالأماكن المقدسة ويقتضى أثر ذلك الطريق الذى سلكه الموكب بصورة أفضل من أعمال الحجاج وريمونداجيل. ويلاحظ تيدبوده أن المسلمين صاحوا Frango agipo Salip بعد أن حطموا الصليب. أما ناشر الـ RHC, 3, p. 105 فقد ترجمها فى حاشية بأنها (أيها الفرنجة ينبغى أن يكون الصليب مثار دهشتكم» est) crus،Franci miranda على الرغم من أنه فى نصه الأصلى ذكرها Franci est bona crux «أيها الفرنجة إن الصليب شيء طيب». وفى مخطوطة تيدبوده (الواردة بـ) A توجد علامة استفهام وفى سياقه استفهام له معنى. وقد ترجمناه «هل هذا صليب طيب». انظر (عجيب) P. 591 ؛ (صليب) .Wehr, 1966, p. 521, p. 591

وقد تبع وليم الصورى رواية تيدبوده بشكل دقيق. انظر:

William of Tyre, tr. Babcock and Krey, 1943, pp. 359-360.

(*) أشار تيدبوده إلى مشاركته فى هذا الموكب مما يجعله أكثر المصادر أهمية فى هذه المنطقة والتى تثبت من ناحية أخرى أصالته كمصدر. وقد جعل ذلك المؤرخين يعتمدون عليه فنقل رالى سميث فى كتابه ملحقًا خاصًا عن هذا الموكب نقلا عن تيدبوده. أما أعمال الحجاج فقد أوردت تواريخًا غير صحيحة مثل القيام بالموكب يومى الأربعاء والخميس ـ اللذان يوافقان ٦ ، ٧ يوليو، دون أن تورد تفاصيله، كما أشار إلى أن الاجتماع الذى عقد كان بغرض تدارس الوسائل التى يمكن بها مهاجمة المدينة، ثم عاد وأشار إلى ضرورة القيام بهذا الموكب، أما ريمونداجيل فيشير إلى أن سبب الاجتماع يرجع إلى مناقشة الخلافات بين القادة والثانى لانتخاب أحد الأفراد ليكون حكمًا على القدس بعد سقوطها. ولكن تم إجراء هذه المسألة الثانية. ثم ذكر أن المندوب البابوى ادهيمار هو الذى أشار إلى القيام بهذا الموكب، ويتفق مع تيدبوده فى تحديد لتاريخه، ولكنه لم يشر إلى قيام أرنولف بوعظ الصليبيين. أما رادلف فيحدد سبب الاجتماع فى إعداد آلات الحصار والبحث عن الأخشاب. ولاشك أن هذه الاجتماعات قد تمت خلال الأسابيع الأربعة التى تحددت للانتهاء من بناء آلات الحصار.

(*) ولنا وقفة مع رواية المصادر الصليبية بشأن رد فعل سكان القدس تجاه هذا الموكب والعبارة التى سمعها تيدبوده وترجمتها المراجع الأجنبية المختلفة على أنها «أيها الفرنجة إنه صليب عجيب» أو «أيها الفرنجة إن الصليب شيء طيب». وفى

اعتقادى أن المعنى الأصح للعبارة التى أوردها تيدبوده هى «أيها الفرنجة أيجيب الصليب؟» فسياق المعنى الذى أورده تيدبوده يدل على ذلك. فقد صنع المسلمون هذا الصليب وأحضروه أمام الصليبيين عند أسوار المدينة ثم قاموا بتكسيره وهنا نأتى إلى المعنى المقصود «هل يجيب الصليب بعد أن تحطم؟» وقد أوردت مخطوطة A لتيدبوده علامة الاستفهام بعد العبارة السابقة مما يدل على صحة ما توصلنا إليه. ومن ناحية أخرى فإن نطق الكلمتين مقارب جداً «عجيب» و «ايجيب»، وكذلك فإن عبارة تيدبوده «عجيب» لن يوضع بعدها علامة استفهام إذا كانت تعنى أنه صليب عجيب.

أما بشأن ما أورده وليم الصورى من أن الأهالى قد انهالوا بالشتائم على يسوع المسيح والبصق على الصليب فهى لم ترد لدى تيدبوده من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يريد إثارة حماسة الغربيين للاشتراك فى الحملات الصليبية ـ فى الوقت الذى كان يكتب فيه وليم كتابه ـ وفى نفس الصورة من إثارة حماسهم فى الحملة الثالثة من تصوير الصليبيين لفارس عربى يطأ ما يسمى فى معتقدهم بالضريح المقدس وأخرى للمسيح عليه السلام وقد انهالت الدماء من على وجهه نتيجة ضرب شخص عربى له. وهذه المصادر جميعاً لا تعلم أن المسلم يكن نفس القدر من الاحترام لجميع الرسل والأنبياء ولا يفرق بين أحد منهم كما أمره الله تعالى بذلك.

Gesta Francorum, pp. 89-91; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 359-60; Radulfus, op.cit., pp. 690-91; cf. also; Riley-Smith, The Crusades, pp. 164-65.

ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٠-٢٤١.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ٩ ج، بيروت، ١٩٧٨، جـ٩، ص ٢٠١، وكذلك محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٩٠، ص١٤٧.

(١٦) من المحتمل أن يكون رجل الدين هو أرنولف أوف شاكو، قس روبرت أوف نورماندى، ويسمى أيضًا مالكورن. وأصبح بطريركًا فى ١٠٩٩. وكرهه ريموندا جيل وربما لم يذكره كثيراً إلا عند الضرورة. ومن الغريب أن فارسا نورمانديًا يهمل أن يذكره فى رواية أعمال الحجاج. وأغفلت رواية ريموند العنف والهجمات على المشاة. ولا تعطى روايته انطباعًا كما لاحظنا فى كتابه. انظر: Raymond d'Aguilers, p. 123fn. 13 (الترجمة الإنجليزية).

(١٧) هذا اقتباس من Apocalypsis B. Joannis 11:15, 16 (الترجمة الإنجليزية).

(١٨) هذه المعلومات تشير إلى وجود تيدبوده وتنهض دليلا عليه وهناك أشكالا أخرى لا سيما مثل: Tudebodis Subracensis, Sivracensis (الترجمة الإنجليزية)

(*) يزودنا ريموندا جيل برواية أكثر تفصيلا عن البحث عن الأخشاب، وكيف قام الصليبيون بإعداد فريق لذلك عهدوا إلى جاستون بيارن بالإشراف عليه لإنجاز هذا العمل بسرعة، كما أشار إلى وليم ريكو للقيام بنفس المهمة، أما رادلف فقد أمدنا بتفاصيل أخرى أشار فيها إلى ذلك الاجتماع الذى تم اتخاذ قرار فيه يقضى بالبحث عن أحد عشر لوحاً خشبياً مما يعنى عدم إعفاء أيًا من الأمراء. ثم يشير إلى الصعوبات التى واجهتهم حيث لم تتوفر هذه الأخشاب فى منطقة القدس. ولكنه فجأة يمجد تانكرد مشيراً إلى أنه عثر على أربعة ألواح مخبأة منذ الحملة الفاطمية السابقة التى استردت القدس قبيل وصول الصليبيين. ويذكر أن روبرت كونت فلاندرز كان مسئولا عن الصناع وأن الصليبيين وصلوا إلى غابات نابلس وسبسطية لجلب هذه الأخشاب وهو ما يتفق فيه مع تيدبوده الذى أشار إلى الذهاب إلى أماكن بعيدة لجلبها دون أن يحدد هذه الأماكن. أما وليم الصورى فقد أشار إلى أن النصارى دلوا الصليبيين على أماكن وجود هذه الأخشاب التى حددها أنها تبعد حوالى ستة أو سبعة أميال عن القدس ولكنه لا يقصد نابلس أو سبسطية اللتان تبعدان عن القدس بمسافة أبعد من ذلك بكثير. ويكرر أيضًا رواية ريموندا جيل بشأن انضمام الجنوية بقيادة وليم امبرياكو إلى ريموند وما أسهموا به من دور فى بناء آلات الحصار. انظر:

Radulfus, op.cit., pp. 690-91; William of Tyre, op.cit., p. VIII, pp. 360-61.

ريموندا جيل، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(١٩) لاحظ تيدبوده عدد الأسرى المسلمين كما ذكر ريموندا جيل. أما أعمال الحجاج فهى مختصرة للغاية فى هذا الجانب. وأورد ريموند الرواية تفصيلياً. انظر: Raymond d'Aguilers, p. 124; Brehier, Gesta, p. 200 (الترجمة الإنجليزية).

(*) أضاف ريموندا جيل أن وليم دى سابران أسقف البارة كلف بالإشراف على هؤلاء الأسرى. ولقد أجبروا على العمل الشاق حيث ذكر أنهم كانوا يحملون دعامة خشبية لا يقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران. وربما كان هؤلاء الأسرى ممن وقع فى أسر الصليبيين أثناء تقدمهم تجاه القدس أو ممن أسروا أثناء المناوشات

السابقة. وتدل هذه الإشارات فى المصادر الصليبية عن أسلوب معاملة الصليبيين للأسرى المسلمين. انظر:

William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 361-62.

وريموندا جيل، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٢٠) Me te Christo Caco Sarrazin توصف بأنها لغة يونانية ركيكة انظر RHC. Occ. 3: pp. 107. ومن الممكن أن يكون المصدر الأصلى لهذه العبارة مصدراً شفهيًا وعليه فإن التفسير المعتمد على الإملاء الصحيح تفسير غير صحيح. وتيدبوده هو المؤرخ الوحيد الذى يروى قصة الجاسوس الذى قبض عليه. (الترجمة الإنجليزية).

(*) إذا أردنا أن نترجمها «وحق المسيح إنه لمسلم جبان» تكون Ma te christo cacos sarrazin وذلك حتى تكون الصفة فى حالة المبتدأ nom لكى تصف المسلم. أما العبارة الأصلية إذا ما أخذناها كما هى فإن الصفة تعبر عن المسيح ولا يمكن أن يقصد قائلها أن يصفه بأنه شرير، وأتوجه بالشكر للزميل العزيز الدكتور محمد السيد عبد الغنى الأستاذ المساعد بقسم الحضارة اليونانية على هذه الملاحظة القيمة.

كذلك لم يحدد تيدبوده متى وقعت هذه الحادثة على وجه التحديد، والتى غالبًا ستكون فى خلال الأسابيع الأربعة التى قام خلالها الصليبيون بإعداد آلات حصارهم. كما أنها تدل من ناحية أخرى على دور النصارى فى هذه المنطقة وما أسهموا به من دور فى الحملة الصليبية. وتجدر الإشارة إلى أن لدى ألبرت إكس رواية مشابهة، فقد أشار إلى أن الصليبيين ألقوا القبض على أحد الأمراء المسلمين أثناء الحصار وقاموا باستجوابه، ولما فشلوا فى إقناعه بالمسيحية قاموا بقطع رأسه أمام برج داود ولم تشر المصادر الأخرى لهذه الرواية والتى ربما تكون نفسها رواية تيدبوده مع إقحام محاولات التبشير بالنصرانية أثناء الحملة الأولى وهى الروايات التى كان ألبرت يهتم بسماعها من العائدين. انظر:

Albert d'Aix, op.cit., p. 469; cf, also: Martin, J.P., Les premiers princes croises et les Syriens Jacopites de Jerusalem, Journal Asiatique, 1888, 8-12, p. 477 ff.

وكذلك : سلام شافعى محمود: أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٢٨٥ وما بعدها؛ حسن عبد الوهاب،

المحاولات التبشيرية فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، العدد ٣٨، ١٩٩٠، ص ١٣٠.

(٢١) تحرك الصليبيون وأقاموا آلاتهم الحربية فى الوادى الممتد من باب القديس ستيفن إلى وادى جوزافات. وحدث ذلك فى ليلة ٩ يوليو ١٠٩٩ H Chr. 399 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده إلى اجراءات غريبة اتخذها أهالى المدينة دون أن يحددها. ولكن وليم الصورى يعطى لنا رواية تفصيلية فى هذا الشأن حيث أشار إلى أن المسلمين كانوا يصنعون آلات مشابهة لتلك التى يصنعها الصليبيون ويعترف بأنهم كان لديهم عمال مهرة وآلات وأخشاب وغيرها داخل المدينة لصنع هذه الآلات. ولاشك أنه هنا تنقصه الدقة فمن المعروف تفوق المسلمين على الغرب فى هذا الوقت ولن يقلدوا آلاتهم بل كانت لديهم وسائلهم الخاصة التى كتبت عنها مؤلفات كاملة. عن ذلك انظر:

William of Tyre, op.cit., VIII, p. 362; cf. also: Fedden, R. and Thomson, J., Crusader Castles, London, 1957, pp. 60-63.

«تبصرة الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء» نشر كلود كاهن فى مجلة الدراسات الشرقية B.E.O سنة ١٩٤٧-١٩٤٨، ص ١٠٣-١٦٣.

(٢٢) استطردت أعمال الحجاج فى هذه النقطة بذكر العطش وحقيقة أن دينار واحد لم يكن كافيًا لاطفاء غلة عطش الرجل وأورد تيدبوده هذه المعلومة فى موضعها المناسب كما ذكرها ريموند. واستخدم تيدبوده النومى بدلا من الدينار. ولاتينى الروايات الثلاثة متقاربة. وحدث الهجوم العام فى يومى ١٣ و ١٤ يوليو ١٠٩٩. «الترجمة الإنجليزية».

(٢٣) دخل الصليبيون القدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩، H Chr. 403 أما ريموندداجيل فذكر أن ذلك كان حوالى منتصف اليوم، واستخدمت أعمال الحجاج وتيدبوده ساعة موت (شبيه) المسيح، والذى من المفترض أنه كان فى الساعة الثالثة Hagenmeyer, Gesta, Brehier, Gesta, p. 202 fn. 3, p. 465, fn. 15 والذى ناقش هذه المدة ومن الملاحظ أن الطقوس الدينية لصلاة العصر يجب أن تكون سابقة عن الساعة الثالثة بعد الظهر، وهناك احتمال أنها تمت مرادفة للظهر أو منتصف

النهار. ومن المشوق أن نلاحظ أن تيدبوده وأعمال الحجاج يستخدمان الساعة الكنسية بينما يستخدم ريموند منتصف النهار. ومن الغريب أن الفارس النورمانى يؤرخ للحادث بنفس الوسيلة (الترجمة الإنجليزية).

(*) لم يحدد ابن القلانسى وقتًا لدخول الصليبيين إلى القدس، وإنما ذكر أن محاولات الاقتحام استمرت حتى آخر نهار ذلك اليوم ـ يقصد الخميس ـ وانصرفوا عنه، وواعدهم الزحف إليه من الغد ـ الجمعة ـ ، ونزل الناس عن السور وقت المغرب، فعاود الإفرنج الزحف إليه، وطلعوا البرج، وركبوا سور البلد فانهزم الناس عنه، وهجموا البلد فملكوه، ومن هنا لم يحدد زمن الاستيلاء، أما ابن الأثير فكان أكثر تحديدًا عندما ذكر أن ذلك كان وقت الضحى أى قبل الظهر «وملكوها من جهة الشمال منه ضحوة نهار يوم الجمعة» انظر : ابن القلانسى، تاريخ دمشق، تحقيق : د. سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٢٢ ؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ١٨٩.

ومن الملاحظ أن تيدبوده وأعمال الحجاج تتفقان فى روايتهما عن سبب التحرك للهجوم على المدينة ـ أما ريموندا جيل فيشير إلى أن تحريك هذه الآلات يرجع إلى استواء السطح عند هذه المنطقة التى هاجموا منها القدس وهى ما بين كنيسة القديس ستيفن ووادى جوزافات. وكان وليم الصورى أكثر تحديدًا عندما أشار إلى أنها المنطقة المواجهة للبرج الواقع عند الزاوية فى الشمال المطلة على وادى جوزافات.

ويتفق تيدبوده وأعمال الحجاج أن ذلك كان فى الفترة من الأحد إلى الثلاثاء (١٠-١٢ يوليو) بينما لم تشر بقية المصادر الأخرى إلى ذلك واقتصر ريموندا جيل على أن نقل المعسكر تم ليلا لمسافة حوالى ميل. أما رادلف فلم يقدم رواية تفصيلية عن ذلك سى إشارته إلى أن القادة الصليبيين كانوا على علم بهذه النقاط الضعيفة فى التحصينات حتى أنهم أجلوا ذلك حتى اللحظة الأخيرة بعد أن يتمكنوا من إقامة البرج الخشبى للقفز على السور.

ويلاحظ أيضًا على رواية تيدبوده فى هذا المقام أنها تخلو من التفصيلات عن القتال يومى ١٤ و ١٥ يوليو ١٠٩٩، بينما أفاضت المصادر الأخرى فى ذلك وخاصة وليم الصورى وألبرت اكس، وكذلك يسجل رادف جهود تانكرد وبقية قواته ويشير أيضًا إلى المقاومة الباسلة التى أبداها أهالى المدينة حتى أن الصليبيين أوشكوا على اليأس.

أما مصادرنا العربية فلم تمدنا إلا بإشارات بسيطة عن استيلاء الصليبيين على المدينة. فلم يشر ابن القلانسى إلا إلى برج واحد، بينما ذكر ابن الأثير أنهما برجين ولكنه لم يتحدث إلا عن البرج الخاص بريموند، أما سبب تحرك الصليبيين للهجوم على المدينة فيشير ابن القلانسى إلى أن ذلك بسبب وصول أنباء للصليبيين بخروج قوات فاطمية لإنقاذ القدس «فشدوا فى قتاله» ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٢٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ١٨٩.

ريموندا جيل، المصدر السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥.

William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 363-64; Radulfus, op.cit., pp. 690-91; Albert d'Aix, op.cit., pp. 375-76; Gesta Francorum, pp. 90-91.

(٢٤) من المفترض أن ليتولد من تورناى، ويكتب ألبرت عن أخويه ليثولف وانجليرت. انظر:

Albert, p. 472 (الترجمة الإنجليزية).

(*) أشارت المصادر الصليبية إلى أسماء مختلفة كان لها الشرف فى اقتحام القدس. فقد أشار رادلف إلى أن ثلاثة كان لهم السبق هم ليتولد وانجليرت من تورناى من جهة الغرب، أما برنارد دى سانت فالى فقد كان من جهة الشمال. وتنسب إحدى حوليات جنوه ذلك أيضًا إلى وليم امبرياكو. وكان هذا الموضوع مثار جدل كبير بين المؤرخين وانتهى هاجمنير إلى أن الخلاف حول هؤلاء الأشخاص إنما كان يرجع إلى أنهم أوائل جيوشهم فى اقتحام المدينة ولا يوجد خلاف حول ذلك. Radulfus, op.cit., p. 692.

وكذلك : مصطفى الكنانى، المرجع السابق، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢٥) يوجد لدى تيدبوده أفضل تقرير عن نشاط ريموندا جيل. أما أعمال الحجاج ويرموندا جيل فقد أغفلا رواية الفرسان الثلاثة من جيش جودفرى الذين نشروا أخبار دخول جودفرى لبيت المقدس. وتوجد لدى أعمال الحجاج وتيدبوده رواية ريموند بشأن الدفع لملئ الخندق. ويحذف ريموند هذا الجزء من المعلومات، ومعلوماته ضئيلة عن دور الكونت فى سقوط القدس. وتروى أعمال الحجاج أن الكونت سمع أن الفرنجة فى المدينة وقال حينئذ «اسمعوا، جميع الفرنجة فى المدينة» ونلاحظ أن الـ Franci والـ Francigene تستخدمان مكان بعضهما فى

أعمال الحجاج، وفى هذه الرواية يستخدم تيدبوده Francigene مختصرة. ونعتقد أن هذا مثال طيب فى عدم فائدة تأكيد استخدام أعمال الحجاج لـ Francigene فى بعض الأقوال كدليل على النسب النورمانى للمؤلف. انظر:

Brehier, Raymond, d'Aguliers, p. 127; Gesta, p. 204

والـ (Gena) هى مقطع شعبى. ووردت الـ Aliengiena لدى Prophetia Ezechie lis 44: 9 انظر أيضاً:

Verbigena, omnigena, terragena, Tropaire - Prosier ed. Daux, 1901, pp. 74, 103, 108.

(الترجمة الإنجليزية)

(*) تزداد أهمية رواية تيدبوده في هذا الجانب نظراً لاتفاقها مع أعمال الحجاج من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن ريمونداجيل يتوقف عن الإشارة إلى دور ريموند أثناء حصار القدس، وقد واجهت ريموند كونت تولوز مقاومة شديدة عند محاولة اقتحام هذا الجانب من المدينة أكده أيضاً ريمونداجيل فى إشارته العابرة، وكذلك المصادر العربية، أما وليم الصورى والذى يورد لنا رواية مفصلة أشار فيها إلى أن القتال كان عنيفاً حتى أنه وصل إلى حد التلاحم بالسيوف عند السور. وقد اختلفت المصادر حول كيفية وصول نبأ اقتحام القدس من جهة الشمال إلى ريموند، أشار تيدبوده إلى هؤلاء الفرسان الثلاثة من جيش جودفرى الذين قدموا من جهة جبل الزيتون وأخبروا الكونت بالنبأ. وذكرت أعمال الحجاج وصول الخبر دون أن تحدد لنا كيف تم ذلك. أما فوشيه أوف شارتر فيذكر أن الكونت علم بذلك عندما رأى الشرقيين يقفزون من فوق السور، ويشير وليم الصورى أن الدوق علم بذلك عن طريق صيحات المقاتلين وصيحات الرعب من الأهالى ففر المدافعون عن السور ولجأوا إلى قلعة داود فسارع الكونت واقتحم المدينة. فى الوقت نفسه أشار رادلف إلى انسحاب الأهالى إلى مسجد القلعة. وفى الحقيقة فإن الروايات السابقة بحاجة للوقوف عندها. فرواية تيدبوده حول قدوم الفرسان من جهة جبل الزيتون يساورها الشك خاصة وأن الصليبيين لم يحاصروا المدينة من هذه الجهة، كما أن تضاريسها صعبة المسالك ـ انظر : ناصر خسرو ـ ، كما أن فوشيه لم يوضح سبب انسحاب الأهالى، أما رواية وليم الصورى فهى أيضاً صعبة التصديق لأن اقتحام الصليبيين للقدس تم من جهة الشما وانسحب الأهالى إلى

المسجد الأقصى وهى مسافة بعيدة عن المكان الذى يحاصر فيه ريموند المدينة ـ ويواجه مقاومة شديدة. ويفسر لنا سبب الاقتحام وكيف علم الدوق بذلك المؤرخ ابن الأثير الذى أشار إلى أن أحد المسلمين قدم إلى الجهة التى كانت تقاتل ريموند وأخبرهم بنبأ اقتحام الصليبيين للمدينة من جهة الشمال فانسحبوا إلى برج داود ولجأوا إلى القلعة مما أعطى ريموند الفرصة لاقتحامها دون صعوبة.

William of Tyre, op.cit. VIII, pp. 367-78; Radulfus, op.cit., p. 694; Gesta Francorum, pp. 90-91.

ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٨، ص ١٨٩.

(٢٦) يقع برج داود أيضاً إلى الغرب. ويتهم ألبرت أوف آخن ريموند أوف سان جيل بقبول رشوة من الأمير افتخار الدولة. انظر:

Albert, pp. 483-489, Hill, Raymond IV, pp. 131-132.

(الترجمة الإنجليزية)

(*) اتفق تيدبوده وأعمال الحجاج بشأن شروط استسلام افتخار الدولة، وأضاف وليم الصورى أخذه لجميع المؤن والأمتعة الموجودة معه داخل البرج. ولكن هذ أمر مبالغ فيه خاصة وأن القائد الفاطمى لم يكن بإمكانه فرض هذا الشرط بعد سقوط المدينة، وهو ما أكده فوشيه أوف شارتر الذى أشار إلى السماح للحامية بالخروج إذا ما تركوا أموالهم. وذكر أنه كان هناك خمسمائة من الأحباش السود مع هذه الحامية. أما رادلف فقد أشار أيضاً إلى اعطاء طريق آمن إلى عسقلان. أما ابن الأثير فيشير إلى أن هذا الاتفاق تم التوصل إليه بعد ثلاثة أيام ـ أى ١٨ يوليو ١٠٩٩م. ولكنه خلط بين قلعة داود ومحراب داود. فقد أشار إلى لجوء الحامية إلى محراب داود والذى ذكر ناصر خسرو فى وصفه له بأنه «يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجل ويسمى محراب داود» وهو فى المسجد الأقصى. فليس من المعقول أن يلجأ هذا العدد إلى هذا المكان الذى يصفه لنا ناصر خسرو. ويزيل هذا اللبس إشارة وردت لدى رادلف عن أن السكان لجأوا إلى المسجد وهو الأرجح حيث كان يوجد مسجد فى قلعة داود.

Radulfus, op.cit., p. 695; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 367-68; Fulcher of Chartres, pp. 121-122;

ابن الأثير: المصدر السابق، جـ ٨، ص ١٨٩.

يقصد بهما المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ويشير رادلف إلى لجوء الأهالي إليهما بقصد التحصن لبعدهما ووجود بوابات بهما ويؤكد ناصر خسروا وأيضًا المقدسى في وصفه لأحد الأبواب «لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوى الذراع». انظر : المقدسى، المصدر السابق، ص ١٦٨.

Radulfus, op.cit., p. 695.

(٢٧) حصر تيدبوده نفسه في الكتابة عن أن الدم سال في المعبد، في المقابل فضلت أعمال الحجاج وريموند أن يقيساه. وكتب أعمال الحجاج في موضع أن الصليبيين ساروا في الدماء إلى رسغ أقدامهم Cavillas وفي موضع آخر أوردت أن الدم سال في المعبد. ويبدو أن ناسخ أعمال الحجاج يتبع تيدبوده في موضع وريموندااجيل بتحفظ في موضع آخر أو المصدر العام، وكتب ريموندااجيل أنهم ساروا في الدماء إلى ركبهم وألجمة خيولهم. ومصدر هذه القصص هو Apocalypiss B. Joannis: 20:14 انظر أيضًا :

New Testament Apocrypgha 2ed Hennecke, 1964, p. 697.

«والدم من السيوف سوف يعمل حتى بطون الخيل» والرواية أيضًا ترد في خطاب داجوبرت رئيس أساقفة بيزا Epistula Dagoberti Pisani Archiepiscopi Hagenmeyer, 1901, p. 171, Usque ad genua equorum ولا نستطيع أن نفهم لماذا كرر كتاب الكتب الحديثة هذه القصة دون أن يشيروا إلى مصدرها، إلا إذا كانوا يجهلونها، وبالتأكيد فإن هناك دليل قوى على أن الصليبيين لم يقتلوا كل الأهالي. انظر:

Brehier, Gesta, p. 202; Raymon d'Aguilers, pp. 127-128.

(الترجمة الإنجليزية)

(٢٨) لم تذكر أعمال الحجاج أن تانكرد أصدر أوامره بقتل جميع المسلمين داخل المسجد. ويذكر المؤلف أنه كان غاضبًا عندما تلقى نبأ المذبحة. انظر:

Brehier, Gesta, p. 206; Hagenmeyer, Gesta, p. 474 fn. 43.

وإذا ما أعيد نشر أعمال الحجاج أو أنها نسخة من تيدبوده، فإنه يمكن فهم التصور الأفضل لتانكرد. ولم يعالج بريه هذه المشكلة.

(الترجمة الإنجليزية)

(*) لم يوضح تيدبوده الدافع وراء الذين تم اختطافهم، فهل كان ذلك بغرض

الحصول على فدية لإطلاق سراحهم أو استخدامهم فى أعمال تطهير المدينة. وبصفة عامة فإن السياسة الصليبية تجاه سكان المدن التى تسقط ظلت بصفة عامة تميل إلى الانتقام وأعمال المذابح وغيرها. راجع ما حدث فى قيسارية ٤٩٤هـ/١١٠١م وطورطوسـا ٤٩٥هـ/١١٠٢م وعكا ٤٩٧هـ/١١٠٤م وطرابلس ٥٠٣هـ/١١٠٩م. ولكن مع عام ١١١٠م/ ٥٠٤هـ بدا تحول فى هذه المعاملة وخاصة تجاه النصارى الشرقيين الذين استخدمهم الصليبيون فى الزراعة. عن ذلك انظر:

Sivan, E., Refugies Syro-Palestiniens au temps des croisades, Revue des etudes des Islamiques, XXXV, Paris, 1967, pp. 135-146.

وينفرد تيدبوده بالإشارة إلى مقاومة الأهالى بعد اقتحام الصليبيين للمدينة. أما رادلف فيشير إليها أثناء الاقتحام «فعلى الرغم من هجوم الصليبيين إلا أن أهل البلاد يأبون الفرار ويلقون بالقذائف على المنتصرين». ويعطى لنا أيضًا وليم الصورى صورة رائعة عن المقاومة التى أبداها الأهالى.

وتعترف جميع المصادر الصليبية دون استثناء بالأسلوب الوحشى عند اقتحام القدس ـ بل إن البعض «عذب لوقت طويل ثم أحرقوا فى اللهب حتى ماتوا» ويشير فوشيه إلى أنهم «لم يرحموا امرأة ولا طفلا» أما رادلف فيقول عن هذه الأعمال إن «كل شيء تم بسرعة وعنف». وقد استشهد من أئمة المسلمين وعلمائهم عدد ضخم بالغ ابن الأثير فى ذكره بأنه سبعين ألف، ولكنه يدل على عنف ما حدث على أى حال. ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ١٨٩.

Radulfus, op.cit., p. 695; Fulcher of Chartres, op.cit., p. 121; William of Tyre, op.cit. VIII, pp. 371-72.

(*) اختلفت المصادر الصليبية حول موقف تانكرد. فبينما يشير تيدبوده إلى أنه هو الذى أرسل أوامره بقتل المسلمين الذين فى المسجد الأقصى، نجد أن أعمال الحجاج تشير إلى أن تانكرد كان يمتلئ غيظًا عندما رأى منظر القتل ومن يلقى بنفسه من فوق سطحه. أما رادلف فلم يوضح لنا شيئًا عن هذه المسألة واقتصر فى إشارته إلى اندفاع تانكرد إلى المسجد الأقصى وأمامه أهالى القدس ويسقط منهم الكثيرين من ضربات السيوف بينما من وصل سالمًا أغلق وراءه الأبواب. وانفرد بعد ذلك بالحديث عن تمثال مزعوم موجود فى منطقة المسجد وادعاء كاذب أنه

لمحمد ﷺ. ثم يصف سلبه للمسجد وأخذه لكنوزه وذخائره ادعى أنه أنفقها على جنوده لتسليحهم والإغداق عليهم، وردد وليم وفوشيه هذه الرواية وأن تانكرد أعاد هذه الأشياء أو ما يعادلها للصليبيين بعد هدوء الأمور أما عن كيفية وصول تانكرد بهذه السرعة إلى المسجد الأقصى سابقًا بقية القادة الأخرين فيفسر لنا براور ذلك بأنه كان يصحبه مجموعة من النصارى دلوه على كنوز المسجد وعلى الطريق، ويدلل براور على ذلك بأن تانكرد باع أسراه من اليهود وهم الذين كانوا في طريقه حيث أقاموا في هذه المنطقة منذ الفتح الإسلامي للمدينة وحتى استيلاء الصليبيين عليها.

أما نيكاسون فيورد لنا رواية أودريك فيتاليس عن أن تانكرد التقى أثناء اندفاعه إلى داخل المدينة بمجموعة من النصارى كانوا في كنيسة الضريح المقدس وعرفهم من صلواتهم فأمر بفك أسرهم ومعاملتهم بمعاملة حسنة. وعلى الرغم من أن نيكاسون يأخذ بهذه الرواية فإننا لا نوافقه عليها لأسباب عديدة منها أن تانكرد علم بكنوز المسجد من هؤلاء النصارى الذين سبق أن وردت إشارات عديدة عنهم وعن دورهم أثناء تقدم الصليبيين نحو القدس وأثناء الحصار نفسه. كما أن كنيسة الضريح المقدس تبعد عن الطريق الذى اقتحم منه تانكرد القدس. انظر الرسم التوضيحي لذلك.

أما عن مصير سكان القدس فهناك بعض المصادر التى أشارت إلى أن الصليبيين أبقوا على حياة البعض وذلك نظير الحصول على فدية لإطلاق سراحهم. ولكن الغالبية لقت حتفها سواء من المسلمين أو النصارى أو اليهود. ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٢ «الذى أشار إلى جمع اليهود فى الكنيسة وأحرقها».

Gesta Francorum, p. 92; Radulfus, op.cit., pp. 695-96; Fulcher of Chartres, op.cit., p. 121; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 371-72; cf. also: Nicholson, of Jerusalem by the Crusaders, in J.J.S. Vol. 4, 1952, pp. 162-177.

(٢٩) كتب تيدبوده «فى يوم آخر». أما أعمال الحجاج فلم تحدد وقتًا. وعقد الاجتماع فى ١٧ يوليو ١٠٩٩ H Chr408 (الترجمة الإنجليزية)

(٣٠) أهملت أعمال الحجاج الإشارة إلى دفن الجثث. انظر: Brehier, Gesta, p. 206 وأشارت إلى أنهم كوموا فى أكوام مثل المنازل ولكن تم تركهم هناك. وهذا المثال

يظهر أن الناسخ أسقط عبارة «وأضرام النيران فيهم» والتى بالتأكيد ضرورية. (الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده والمؤرخ المجهول إلى جمع الجثث،وكذلك فعل ريموندداجيل دون تفصيل. أما فوشيه فيفسر سبب إحراقها بأنه يرجع إلى بحث الصليبيين عن الحلى أو المجوهرات التى يكون هؤلاء القتلى قد أخفوها فى أجسادهم أو ابتلعوها. أما وليم الصورى فيفسر ذلك بصورة أكثر وضوحاً بأن السبب فى إحراقها يرجع إلى خشية انتشار الأوبئة وأن عملية الحرق أو الدفن كانت حسب مقتضيات الزمن. ويشير وليم أن الأسرى هم الذين أجبروا على ذلك وشاركهم الفقراء من الجيش الصليبى حيث حصلوا على أجر يومى نظير القيام بهذا العمل. أما رادلف فيشير إلى المذابح التى تعرض لها الأهالى وقطع آذان السيدات لسقة ما بهن من حلى مؤكداً رواية فوشيه. ويشير جوتين إلى استخدام النصارى واليهود ممن بقوا على قيد الحياة فى هذا العمل أيضًا. انظر: ريموندداجيل : المصدر السابق، ص ٢٤٧.

Gesta Francorum, p. 92; William of Tyre, op.cit., VIII, pp. 377-79; Radulfus, op.cit., p 397, cf. also: Goitien, op.cit., p. 163-164.

(٣١) تم اختيار جودفرى فى ٢٢ يوليو ١٠٩٩ H. Chr ٤٠٩. ويذكر ريموندداجيل أن كونت تولوز عرضت عليه الملكية ولكنه رفضها. انظر: Brehier, Gesta, p. 206 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده إلى طريقة اختيار جودفرى، وقد أفاض ريموند فى ذكر هذه القصة، حيث تم اختيار جودفرى لنبل طباعه ومهاراته الحربية وجلده ووسامته على حد تعبير فوشيه، وعبارة «طبقًا لعادة الأمراء» ربما يقصد بها ريموند كما كان يتم فى الغرب الأوربى.

أما مهامه فقد حددها تيدبوده «حكم الآخرين وبيت المقدس وسلب الوثنيين» وحددت أعمال الفرنجة نفس المهام. أما ريموندداجيل فكان أكثر تحديداً فى أنها : إدارة المملكة وجمع ضرائب الريف وحمايته من التدمير والعمل كمستشار للناس. وهو ما لم تشر إليه المصادر الأخرى. ونفس القصة يوردها وليم الصورى بصورة أكثر تفصيلا.

أما فوشيه فذكر أن مهامه هى «حمايتهم وحكمهم» ويذكر أنه وضعت شرائع أو

قوانين لذلك حددها البرت بعشرين قانون ولا يورد فوشيه أمر الخلاف حول جودفرى وريموند. أما رادلف فلم يشر إلى ذلك فى روايته.

وقد أثار لقب جودفرى «حامى الضريح المقدس» أو «ملك بيت المقدس» أو «أمير» الخلاف بين المؤرخين. وقد تناول رالى سميث ذلك بالتفصيل فى مقال له حول هذا الموضوع خلص فى النهاية إلى وجود اللقبين معًا فى المصادر الصليبية وأنه كان حاكمًا بالمفهوم الحقيقى وليس موظفًا كنسيًا.

ريموندااجيل، المصدر السابق، ص ٢٥٧–٢٥٨.

Gesta Francorum, pp. 92-93; William of Tyre, op.cit., IX, pp. 380-4; The title of Godfrey of Bouillon, Bull. of Ins. of Hist. Research, LII, 1979, pp. 83-86.

(٣٢) مات سيمون بطريرك بيت المقدس فى قبرص. وتم اختيار أرنولف فى أول أغسطس ١٠٩٩ H Chr. 413 (الترجمة الإنجليزية).

(*) يشير تيدبوده إلى اختيار أرنولف بطريركًا متفقًا مع أعمال الحجاج فى تحديد اليوم. أما ريموندااجيل فيقدم لنا صورة مفصلة عن أسباب ضعف رجال الدين وسلوك أرنولف مما يدل على معارضته لهذا الاختيار وهو ما ظهر سابقًا فى حديثه عنه. وينقل وليم الصورى نفس الرواية. أما فوشيه فيشير إلى أنه لم يتم اختيار أحد إلا بعد الاستفسار من البابوية عن الشخص المراد اختياره.

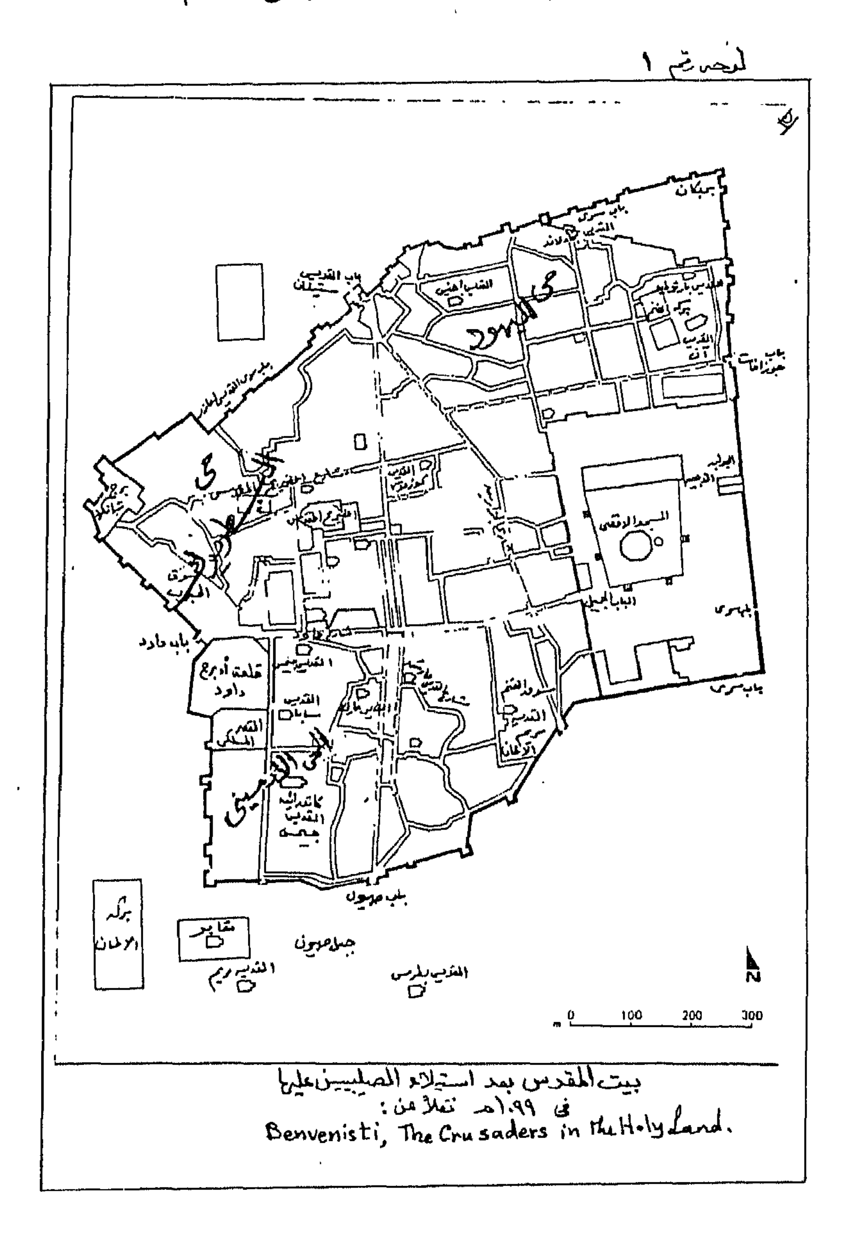
Gesta Francorum, p. 93; William of Tyre, op.cit., IX, p. 380 ff; Fulcher of Chartres, op.cit., p. 122, f.

(٣٣) حذفت أعمال الحجاج الخاتمة «بمساعدة ربنا يسوع المسيح، والذى له المجد والشرف أبد الآبدين. آمين».

(*) انظر الآيات رقم ٧٢، ٧٣ من سورة المائدة، ٥٩ آل عمران، مريم ٨٨–٩٥.

لوحة رقم (١)

بيت المقدس بعد استيلاء الصليبيين عليها فى ١٠٩٩م



نقلا عن: Benvenisti, The Crusaders in the Holyland.

لوحة رقم (٢)

حصار واستيلاء الصليبيين على القدس ١٠٩٩م.

لوحة رقم ٢

حصار واستيلاء الصليبيين على القدس (١٠٩٩م)

ATlAS OF The Crusades, London 1990

ATIAs of the Crusades, London, 1990.

يوشع براور : استيطان اللاتين فى بيت المقدس

J. Prawer, The Settlement of the Latins in Jerusalem

In: Sepeculum, 27, 1952.

أصبح دراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمدن الأوروبية مجالا للدراسة الخصبة فى العصور الوسطى، وتم تناول تاريخ تأسيسها وتطورها بالشرح والتحليل. غير أنه لم توجد دراسات للمدن الصليبية فى فلسطين(*). والمشكلة هنا مختلفة وذلك بسبب الوضع الخاص للظروف السياسية وأيضاً لأن المدن الصليبية الكبرى بدأت بعد Tabula rasa وهدم أوتخريب المدن السابقة (البنية السكانية السابقة).

وهناك اختلاف واضح بين المدن التى سقطت قبل صيدا (١١١٠م) والمدن التى سقطت فيما بعد. وحتى عام ١١١٠م فإن سقوط المدن كان يقترن عادة بإبادة السكان السابقين. ومنذ ذلك الحين فإن سكان المدينة المستولى عليها كان آخذاً فى التناقص. وكان ذلك يعزى إلى عاملين، الأول التغير فى السياسة الصليبية والثانى التغير فى العقلية الصليبية.

ففى الفترة المبكرة كان سقوط المدينة يتم بالقوة. وحتى فى حالات الاستسلام فإن الشروط المعروضة من الصليبيين كان لا يتم قبولها من جانب المسلمين(١)، وحتى فى حالة قبولها فإنه يتم نقضها من جانب المهاجمين. ولكن منذ عام ١١١٠م، نشهد حالات صيدا، وصور، وبانياس والاحتلال الذى تلى الاستسلام(٣) وفى كل حالة فقد كان يستمر عدد من السكان الأصليين لكى يشكلوا الطبقة الأولى من مجتمع المدينة(٤).

وربما ننظر إلى هذا التغير على أنه علامة من علامات نضوج الإدارة لدى هؤلاء الغزاة الفرنج الجدد، وفى نفس الوقت، يجب ألا ننسى أن الاحتلال لا يتم دائماً طبقاً للضرورة الملحة، ففى بعض الحالات فإنه يعكس طموح الجيش. فالاحتلال يعنى الغنائم لكل فرد، والاستسلام يعنى تحول الثروات لصالح الحاكم الجديد للمدينة، وهذا يوضح انتهاك الاستسلام ومعارضة عامة الناس (مثال ذلك أثناء حصار صور) وذلك لاستسلام المدينة(٥) ومثال هذه المعارضة انتهت حوالى عام ١١١٠م، ودليل على قوة التنظيم وحالة المملكة اللاتينية(٦).

أما بيت المقدس، أول مدينة سقطت فى قبضة الصليبيين فى الأراضى المقدسة، فقد سقطت عنوة بعد حصارها، وبدأت الحياة تنمو فيها فوق أنقاض الخراب.

ولكى تبدو لنا الصورة واضحة فإننا يجب أن نبدأ بحثنا منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وعلى التحديد فى عام ١٠٦٣ والذى يبدو أنه حاسمًا فى كثير من النواحى. فقد سمحت معاهدتى ١٠٢٦م و ١٠٣٧م لحاكم القسطنطينية بإصلاح كنيسة الضريح المقدس والتى كان الحاكم بأمر الله الفاطمى قد خربها. غيرأنه حدث زلزال عام ١٠٣٦م هدم جزءً من أسوار المدينة والتى أصدر خليفة مصر الفاطمى أمرًا بإصلاحها[٧] وكان نصيب النصارى فى إعادة البناء هو إعادة بناء أسوار حيهم. وبسبب عدم استطاعتهم المادية للقيام بذلك فقد لجأوا إلى بيزنطة. ووافق الإمبراطور على تخصيص أموال لإصلاح أسوار حى النصارى فى القدس شريطة أنه من الآن فصاعدًا يجب أن يعيش جميع النصارى فى داخل حيهم المحصن، وكانت هذه المنطقة حول الضريح المقدس، والتى كانت حتى قبل منتصف القرن الحادى عشر كانت تعتبر حيًا نصرانيًا. والجديد فى ذلك هو أنه طبقًا لهذه المعاهدة بين الخليفة والإمبراطور فإن جميع النصارى يجب أن يعيشوا بصفة خاصة فى حيهم. وكان هذا التنظيم الجديد يبدو نوعًا من أنواع الحماية للسكان النصارى. ولكن فى نفس الوقت فإن الحى النصرانى أصبح مغلقًا أمام حارة اليهود التى خضعت تحت عدم التمييز والعبودية والاقطاع. وطبقًا لوليم الصورى[٨] فإن نقل السكان النصارى وإصلاح الأسوار تم الانتهاء منه فى عام ١٠٦٣م.

وكما حاولت أن أثبت فى مكان آخر، فإن اليهود قد تركزوا فى شرق الحى النصرانى، أى فى شمال شرقى المدينة، والتى كانت تعرف فى القرن الثانى عشر الميلادى باسم Juiverie[٩] وبالتالى فإن السكان المسلمين شغلوا

الجزء الباقى، أى الأحياء الجنوبية للمدينة، وظلت بعض الأجزاء فى أيدى مالكيها السابقين حتى ولو أن السكان قد هجروها، ومثال ذلك، كنيسة القديسة ماريا المجدلانية لليعاقبة والتى تقع على ضواحى حى النصارى[١٠].

وخلال الخمسين عامًا فيما بين حدوث هذه التغيرات الطبوغرافية والاحتلال الصليبى، فإن المدينة عانت كثيراً من الزلازل وغزو قبائل العرب والسلاجقة على الرغم من أن تعداد سكانها قد بلغ عدداً كبيراً حوالى الثلاثين ألف نسمة. وعلى الرغم من هذه الأحداث، فإنها تركت تأثيرها على جميع السكان، وخاصة من النصارى واليهود[١١].

وخلال الثلاثة أعوام التى سبقت الاحتلال الفعلى لبيت المقدس، فإن حالة النصارى أصبحت يائسة. فقد اتهمتهم السلطات الإسلامية بأنهم على صلة وثيقة وودية تجاه الصليبيين الغزاة، وتم قتل بعضهم، وفر البعض الآخر من المدينة[١٢] وطبقًا لذلك فإنه من المفترض عدم وجود سكان نصارى فى المدينة وذلك بعد احتلال المدينة. ومن جانب آخر فإن غالبية السكان من اليهود والنصارى قد تعرضوا للمذابح عل أيدى الغزاة من الصليبيين. ووردت الروايات الرهيبة عن حمامات الدماء فى المدينة. ونتج عنها إبادة كاملة للسكان غير النصارى فى المدينة. أما هؤلاء الذين نجوا من السيوف فقد تم بيعهم فى أسواق الرقيق[١٣] وفيما يبدو فإن الذين نجوا كانوا أولئك المجموعة من المحاربين المسلمين الذين وقعوا فى أسر ريموند أوف تولوز والذين انسحبوا من المدينة. وهكذا فإننا نتخيل مدينة بيت المقدس فى صبيحة الاحتلال، وهى فى حالة كاملة من الخراب والموت الذى خيم عليها.

وفى ضوء ذلك تظهر عدد من الأسئلة: كيف بدأ الصليبيون حياتهم فى المدينة؟ ومن كان سكانها؟ وكيف حول الصليبيون بيت المقدس، هدف رحلتهم الطويلة وقتالهم، إلى مكان ليس يستوجب الاحترام فقط ولكن أيضًا صالحًا للسكنى؟

ويجب ألا ننظر إلى الجيش الصليبى على أنه نواة السكان الجدد، فإننا نعرف أن عدد هذا الجيش وقت احتلال بيت المقدس لم يكن يزيد على ستة آلاف رجل. وجانب من هؤلاء كان قد استقر فى بعض المدن التى تم الاستيلاء عليها قبل ذلك، ولذلك فإن جانبًا منه فقط هو الذى استقر فى بيت المقدس وفى خلال الشهرين فيما بين الاستيلاء على المدينة وبين معركة عسقلان، فإن جانبًا كبيرًا من الصليبيين قد عاد إلى وطنه، إما إلى الشام أو إلى أوروبا(١٤). وطبقًا لذلك فإن عدد سكان المدينة كان قليلا جدًا، ولا يزيد عدده عن المئات(١٥).

هذه المدينة المزدهرة والآهلة بالسكان أصبحت مدينة صغيرة فى مملكة بيت المقدس اللاتينية. حقيقة أنها كانت العاصمة، وكانت توصف فى كتابات الرحالة والوثائق بأنها Gloriosa و Inclita، ولكن هذه الأوصاف كانت بدون شك من ذكريات أناجيل الماضى، وكانت المدن الساحلية مثل يافا وعكا وصور وبيروت تعج بالنشاط، واجتذبت القادمين الجدد وذلك لإمكانيات العيش فيها وكسب وسائل رزقهم بها، ولكن بيت المقدس كانت مكانًا فقط للزيارة والاحترام وسلك الحاج أو المستوطن الأوروبى رحلته الخطرة وسط جبال الرملة ويهوذا، وذلك لكى يعود سريعًا إلى الساحل.

ويذكر وليم الصورى صراحة أن حيًا واحدًا من المدينة كان آهلا بالكسان، وحتى هذا لم يكن يفى بالغرض، وعندما دعت المملكة اللاتينية سكانها فى معركة الحياة والموت. فإن السكان الذين بها كانوا عرضة للخطر وذلك لأنه لم يكن هناك العدد الكافى من الأشخاص الذين يستطيعون حماية الأبراج والأسوار وأبواب المدينة(١٦).

وشغل السكان الجدد والذين استقروا فى الحى الشمالى الغربى، حول الضريح المقدس، وذلك بدلا من السكان السريان والذين تركوا المدينة قبل استيلاء الصليبيين عليها. وحتى هؤلاء الذين ظلوا بها فقد هاجروا وذلك

لأن اللاتين شكوا فى أنهم كانوا متواطئين مع المسلمين[١٧] وبذلك فقد أصبح هذا الحى النصرانى السابق والذى كان يعيش فيه السريان، أصبح حيًا أوروبيًا. واشتمل هذا على منطقة أوسع مما سبق، واشتمل على المنطقة القريبة من القلعة (برج داود) وإلى الجنوب فى هذه المنطقة المسماة جبل صهيون فى داخل الأسوار، حيث امتلك مجموعة من أتباع ريموند أوف تولوز هذه المنطقة، وكما يبدو من اسم الباب السرى فى هذه المنطقة والذى عرف باسم Porta Beleare [١٨] وهناك حى آخر هو منطقة المعبد مع معبد سليمان (المسجد الأقصى) والذى خصص كمقر للملك (فيما بعد عرف بأنه المركز الرئيسى للفرسان الداوية) أما منطقة Temqlum Domini فكانت فى حوزة قساوسة أوغسطين. وفى خلال أقل من عشرين عامًا كان هؤلاء هم سكان بيت المقدس وكان حى النصارى هو فقط الآهل بالسكان.

ومنع الصليبيون المسلمين واليهود من العودة للإقامة فى المدينة. وصدر مرسوم رسمى لإبعادهم نهائيًا من المكان وذلك لأن وجودهم سوف يدنس قداسة المكان[١٩] أما إذا وجدنا فيما بعد يهودًا أو مسلمين هناك، فإنهم عادة من الحجاج[٢٠] أو أنهم أناس حصلوا على تصريح خاص للإقامة وذلك لأغراض تجارية، حيث كانوا يدفعون رسومًا خاصة لهذا الغرض[٢١].

ولم يظهر السكان النصارى أية نزعة أو ميل للزيادة، بل على النقيض من ذلك فإننا وجدنا دليلا واضحًا على النزوح من بيت المقدس إلى مدن أخرى، أو إلى أوروبا. ولم يكن فى بيت المقدس الأسس الاقتصادية الكافية، كما أنها لم يكن بها أية مشاريع إنتاجية هامة، مما كان له أثره على الهجرة، وعززت شهادة وليم الصورى هذا الرأى، فقد أشار إلى قانون خاص يعطى ملكية المنزل إلى الرجل الذى يعيش فيها لمدة عام ويوم واحد. وكان ذلك موجهًا إلى أولئك الذين يتركون ضياعهم عندما تسوء الأمور، ويعودون عندما تتحسن، كما يقول وليم الصورى، وقد ألغى هذا القانون مطالبهم[٢٢]

ويبدو لى أن هذ القانون ظل لدى قانونى القرن الثالث عشر الميلادى، حيث أن الضيعة تصبح حقًا لمستأجرها إذا فشل المالك فى أن يحصل منها على الـ Census فى خلال عام [٢٣] وهو Remnant كقانون القرن الثانى عشر الميلادى الذى وضعه مؤرخو القرن الثانى عشر الميلادى.

وكانت الأحوال المعيشية فى بيت المقدس صعبة فى هذه الفترة. ودعنا نستمع مرة أخرى نستمع لهذا المؤرخ. والذى على الرغم من أنه يكتب بعد هذه الفترة بسبعين عامًا، فإنه يمكن الوثوق به، وذلك لأنه بدون شك يستخدم لتاريخه مصادر معاصرة لهذه الفترة، ويقول إنه فى خلال الليل كان اللصوص يتسللون إلى المدينة الخاوية المتناثرة السكان. وحتى فى المنازل داخلها فإن كانت تفتقر إلى الأمان وذلك بسبب ندرة السكان[٢٤] وحاول الملك. كما رأينا، أن يمنع الفرار من الريف ـ والذى يعنى فعليًا من المدن، وذلك لأنها كانت مراكز الاستيطان الصليبى ـ وذلك بقانون الحق المكتسب السنوى، غير أن قوانين مثل هذه لم تكن مؤثرة وذلك لافتقارها إلى قوة الإقناع والإجبار. أما هؤلاء الذين كان لديهم شىء فقدوه فى أوروبا فقد غادروا الوطن. وهذه الحالة استمرت فى خلال العقد الثانى من القرن فى كافة أنحاء المملكة (باستثناء المدن الساحلية) وخاصة فى بيت المقدس، ومن خلال قراءة روايات فوشيه أوف شارتر بعناية عن الحملة الصليبية الأولى ومقارنتها مع وصفه للأحوال فى العشرين عامًا التالية، فإن الصورة الحقيقية التى رسمها لنا وليم الصورى يمكن أن تكتمل هذه الحقيقة[٢٥].

وكان هذا الموقف بحاجة إلى تقويم، وقام بلدوين الأول، ثانى ملوك بيت المقدس بهذه المهمة، وكان يجب استقرار الرجال فى العاصمة، كما يجب توفير وسائل رزقهم. وكما قيل فإن السكان الأوربيين لم تكن تجتذبهم العاصمة، لذا يجب البحث عن أناس آخرين. وكان الحل فى أولئك النصارى السوريين من وراء الأردن. وكان الملك قد أحضرهم خلال

حملتيه فى عام ١١١٥ و ١١١٦م وقرر أن يحول هؤلاء الفلاحون والقرويون إلى ساكنى المدينة. وتم تنظيم مشروع هجرة جماعية على نطاق واسع وبدأ الرحيل الجماعى للنصارى من وراء نهر الأردن حيث أحضروا إلى بيت المقدس [٢٦] وكان لديهم أسباباً جيدة للنزوح والتعاون مع الصليبيين. فإعادة الاستقرار يعنى أولا قبل كل شيء، هروباً من الانتقام أو التهديد الإسلامى، وثانيًا، جاذبية الأماكن المقدسة، وأخيراً وليس آخراً، فقد حصلوا على امتيازات من ملك بيت المقدس. ولسوء الحظ فإنه لا يوجد لدينا دليل على أصلهم بالتحديد [٢٧] ورواية وليم الصورى عنهم غير واضحة تمامًا، غير أن الترجمة الفرنسية له توجد بها رواية أخرى، وبدون شك فقد حصلوا على منازل وكذلك حيازات لأراضى فى أنحاء المدينة، والتى تصلح للزراعة لهؤلاء القادمين الجدد، ومن الصعوبة بمكان أن نحدد معنى Franchement، ويمكن أن توصف بأنها حيازة دون خضوع إقطاعى أو أعباء مالية. ولكننا لا يمكن أن نصر على هذا المعنى للكلمة.

ولم يكن وليم الصورى هو الشاهد الوحيد على إقامة هؤلاء السريان فى بيت المقدس. فبعد حوالى خمسين عامًا، ومن خلال طبوغرافية المدينة، نجد شاهداً صامتاً للأحداث وما تلاها. فجميع أوصاف بيت المقدس تحتوى على L'estat de la cité de Jherusalem وتذكر لنا حيًا خاصًا يسمى Julverie وعلى النقيض كما يذكر المؤلف الفرنسى للوصف[٢٨].

La manoient li plus des suriiens de Jherusalem

وهذه الحقيقة يمكن أن توضح من خلال الاستيطان السابق. وكما رأينا فإن الـ Juiverie كانت مأهولة باليهود حتى مذبحة ١٠٩٩م. ثم ظلت بعد ذلك غير مأهولة. وعندما وصلت أذواج الاستيطان إلى بيت المقدس، فإن حيهم السابق، وهو الحى النصرانى حول الضريح المقدس، كان النصارى الأوربيون قد شغلوه بالفعل، وبالتالى فلم يكن أمامهم آختيار آخر، فاستقروا

فى المنطقة المجاورة وهكذا فقد أعادوا سكنى الحى اليهودى السابق والذى كان آنذاك منطقة خالية تمامًا[٢٩] وهنا فقد شيدوا كنائسهم ـ القديس إبراهام بالقرب من باب القديس ستيفن (حاليًا باب دمشق) والقديسة ماريا المجدلانية والقديس إلياس. وربما تم إصلاح بعض الكنائس فى حيهم السابق لهؤلاء القادمين الجدد مثل القديس يعقوب لليعاقبة بالقرب من الضريح المقدس والقديس كاريتنون والقديس جورج فى مكان السوق، والقديس سابا بالقرب من برج داود[٣٠] ومن المفترض أنه فى هذه الفترة تم بناء جزء من السور الشمالى والذى يحيط بحى السريان الجديد. وهذا الحائط الجديد، والذى يقع خلف كنيسة ماريا المجدلانية، ربط بين سورى المدينة الشرقى والشمالى، وأوجد مسافة بين الأسوار فى الجانب الشمالى الشرقى. وأحاط بحى السريان وأعطى له أمانًا وحماية. وأصبح الحى بسبب صغره يسهل حمايته من اللصوص، أما فى وقت الحصار فإن السور المزدوج فى أغلب أجزاء المدينة عرضة للهجوم كان له أهمية خاصة فى الدفاع.[٣١]

وبعد عدة سنوات من المحاولة الأولى لتطوير المدينة نرى رجال الدين فى بيت المقدس يتخذون نفس المبادرة. وكان اهتمامهم واضحًا. فإلى جانب الاعتبارات الدينية فإنه وجد اهتمامات دنيوية. فقد ادعى بطريرك بيت المقدس ملكيته الخاصة لكل المدينة. وفى الحقيقة، فإن جودفرى دى بويون كان قد منحه ملكيتها، ولكن طبقًا للظروف فإن المدينة ظلت فى سيادة الملكية وكانت ثروة رجال الدين فى المدينة جديرة بالاعتبار. ونشير هنا فقط إلى احتكارهم إلى المخابز فى المدينة والتى كانت تابعة لهم. وبناءً على مبادرتهم فقد أصدر الملك بلدوين الثانى قانونًا فى عام ١١٢٠م حيث أعفى الإمدادات الغذائية من الضرائب المفروضة عند مدخل المدينة. كذلك ألغيت «الأوزان والمقاييس» الإضافية[٣٢] ومرة أخرى فإن الترجمة الفرنسية لوليم الصورى تفسر أكثر منها تترجم النص الأصلى، حيث تشرح بوضوح الظروف التى أحاطت بإصدار هذا القانون[٣٣].

وهذا الوصف يعطى مزيداً من الإيضاحات، فعن طريق تشجيع استيراد مؤن غذائية رخيصة وتخفض تكاليف المعيشة فقد حاول الملك أن يحسن من أوضاع المدينة، ومن خلال هذه الوسائل فإن كلا من بلدوين الأول والثانى يستحق لقب موطِّن بيت المقدس. وقد مدح وليم الصورى كلاهما(٣٤).

وإذا قارنا بيت المقدس مع المدن الأخرى فى نفس الفترة فإننا نصدم بالغياب الكامل للقومونات الإيطالية. وكان للتجار الإيطاليين ومن جنوبى فرنسا أهمية فائقة فى استيطان المدن الفلسطينية فى هذه الفترة، وكان غيابهم فى بيت المقدس ملفتًا للنظر. وقد حصلوا على امتيازات فى بيت المقدس مماثلة لتلك التى حصلوا عليها فى المدن الأخرى(٣٥). وحتى إذا أخذنا فى الاعتبار الأهمية غير الاقتصادية لبيت المقدس، فإن غياب أحياء القومونات يشكل لغزاً محيراً. ويمكن أن نقترح حلا واحداً. فقومونات التجار الإيطاليين فى الشرق كانت لتجارة جملة على نطاق واسع، ولذا لم يكن لديهم أعمال تجارية فى بيت المقدس. فلم يستقروا فى أية مدينة داخلية، وفضلوا المدن الساحلية. ولم يتاجروا فى التذكارات أو الرفات وكانت سلعهم يمكن أن تباع وتشترى بسهولة فى موانئ الشحن إلى أوروبا. ومن ناحية أخرى، فإن بائع التجزئة الداخلى يمكنه بسهولة أن يمارس أوجه نشاطه التجارى فى الموانئ، حيث مراكز التبادل للبضائع الشرقية والغربية.

وكان لعدم وجود القومونات الإيطالية فى المدينة جعل لبيت المقدس بعض الملامح الاقتصادية والإدارية والطبوغرافية الخاصة. فبدلا من الأسواق العديدة والمخازن المعقدة فى عكا وصور مع سوق ونزل فى كل حى إيطالى، فإن بيت المقدس لم يكن بها سوى سوق واحد، مكون من ثلاثة شوارع مغطاة، حيث تم بناؤه فى منتصف القرن الثانى عشر بمنحة ملكية(٣٦) وإذا وجدت شوارع خاصة فإن الاختلاف مرجعه إلى نواحى اقتصادية وليست عرقية. وكان لمختلف الحرف اليدوية أو التجارية أماكن خاصة، وكان الفرنجة

والسريان يعملون فى نفس التجارة، ويشغلون جانبى الشارع الواحد. ولكن كان ذلك أكمل امتداد للاختلاف العرقى. ومن خلال هذه النظرة فإن بيت المقدس كانت أكثر منها مدينة أوروبية متجانسة بخلاف المدينة الشرقية غير المتجانسة وكانت فريدة فى ذلك بين المدن الكبرى لمملكة بيت المقدس.

وكان الدور الاقتصادى والاستيطانى للقومونات، والذى لم تتكرم بإقامة فنادقهم Fondachi فى بيت المقدس، وقع على عاتق جماعات أخرى فى المملكة. وكان للدور المزدوج لبيت المقدس كعاصمة للمملكة وكمركز دينى للنصارى عوض الخسارة التى عانت منها بسبب غياب الإيطاليين. وكانت الأولى للملك ولحاشيته وكذلك لإدارته الملكية، والذى كان لوجودهم أثره فى حقن حياة جديدة فى أوردة المدينة القديمة. كذلك كان للمذاهب الدينية المختلفة، والجماعات، والحشود، وكذلك قساوسة الضريح المقدس بصفة خاصة، وهم ملاك الثروة الضخمة، قد طوَّر المدينة من خلال تركز إدارتهم بها. ثم هناك ثروة بطريرك بيت المقدس (والتى أحياناً كانت تعادل ثروات رجال الدين) وأخيراً وليس بآخر، الجماعتين الدينيتين القويتين. وقد اعتمدت المدينة عليهما فى وجودها الاقتصادى، ومقارنة بهما فإن الحجاج يكونون العامل الثانى من الأهمية فيما يتعلق بالمدينة[٣٧] وجميع هذه المنظمات، كانت مؤسسات اقتصادية مستأجرة، حيث أن خدمها وتابعيها كانوا بحاجة إلى الطعام والملابس، وحتى هذه السياسة الفردية لتلك المنظمات فإنها كانت تشتمل على سوق محلى.

وكان لعدم وجود الأحياء الإيطالية له صداه فى التنظيم الإدارى للعاصمة. وعبثًا فإننا نبحث فى بيت المقدس عن أحياء تتمتع بحصانة علمانية. ولم يكن هناك صلاحية علمانية خاصة سوى الملك، كما لم يكن ضرائب سوى للملك، وكان الملك هو الذى يأمر بتنظيف الشوارع، والذى أدى إلى حركة «مقاومة سلبية» عامة بين السكان[٣٨] وذلك لأن المدينة غير

المأهولة بالسكان لم تتطور. وظلت المؤسسات العامة Regalia. ولذا فإن السبع وعشرين مخزناً فى المدينة (منها أربع وعشرون منحت لرجال الضريح المقدس، واثنان لفرسان القديس يوحنا وواحد للقديسة ماريا اللاتينية) وربما المجزرة ظلت فى يده، ولم يذكر ضرائب تدفع عند مدخل المدينة أو ضرائب تدفع فى الأسواق.

وسبق القول أن القومونات الإيطالية لم تستخدم الامتيازات الممنوحة لهم ولذا فإنه لم يكن هناك حصانات Immunitates قسمت المدينة إلى مناطق عرقية خاصة. ونفس الشىء للجنسيات الأخرى. وإلى جانب الانقسام الدينى الفظ بين الفرنجة والسريان (والذى لا يمكن أن يكون على الرغم من ذلك كاختلاف عرقى) فإن اختلاف السكان الفرنج يلاحظ بشكل طفيف جداً. والشاهد الوحيد على ذلك الخلاف موجود أو محتفظ به فقط فى أسماء الشوارع فى المدينة. وكان لجماعة القديسة ماريا فى القرن الثانى عشر الميلادى ما يسمى باشرية القديس توماس الألمانى والذى على الأرجح كان فى شارع الألمان حيث كانت توجد كنيسة والتى تنتمى لنفس الفترة[٣٩] واتفق ذلك مع الروح القومية لهذه الجماعة، مقارنة مع الاستبارية والداوية المتحررة من النزعة الإقليمية. ولكن كيف كانت هذه المستعمرة الألمانية غير ملفتة للنظر، والتى ربما لفت إليها النظر الرحالة الألمانى يوحنا أوف فرتيزبورج، الذى كتب عنها حوالى عام ١١٦٥م[٤٠] أما الشارع الأسبانى، والذى يمتد من باب القديس ستيفان إلى منطقة المعبد، فقد أطلق عليه هذا المسمى بدون شك بعد هجرات من شبه الجزيرة الأيبيرية، ولكن لا يوجد شىء محدد يمكن أن يقال عنهم أكثر من ذلك، ويمكن لنا أن نفترض أن الـ Vicus de Lissbonetta يتطابق مع الشارع الأسبانى. وربما يمكن لنا أن ننظر إلى هذا الشارع على أنه مولد لجماعة أسبانية دينية، ولكن ذلك تخمين بحت[٤١] وفيما عدا الكنيسة الهنغارية، وربما مستشفى،

وذلك فى الجزء الشمالى الغربى للمدينة، وكذلك بالأحرى عدداً من الرجال الفرنسيين الذين يعيشون فى منطقة المعبد، فإنه لا يوجد شىء آخر يمكن أن يقال عن تجمعات عرقية فى بيت المقدس.

وكان لجميع الأقطار الأوروبية ممثلين لها تقريباً فى بيت المقدس. وقد أشار الرحالة الألمانى السالف الذكر إلى ذلك. وهذا يمكن أن يضاف إليه العديد من الأسماء من الوثائق المعاصرة. غير أن الجدوى هنا أن هذه القوميات لم تشكل أبداً تكتلات قومية سياسية خاصة. وكما أن القومونات الإيطالية لم تكن عامل استبطانى، كذلك فإن المجموعات الجنسية المختلفة لم تكن مراكز استيطانية مؤثرة.

ومن العوامل التى تعتبر كمفتاح لفهم وثيقة أملريك الأول بتوثيق أملاك الضريح المقدس هى، عدم أهمية المجموعات القومية فى بيت المقدس (وذلك على العكس مثلا مع عكا وصور)، وكذلك لغياب الأحياء الإيطالية، ونقص أو عدم وجود أى أملاك علمانية Burgi حيث يتمتع ملاكها بنوع من الحماية Immunitas[٤٣]، [٤٤].

ولهذه الوثيقة علاقة خاصة بمظاهر الحق الملكى الخاص، وطبقاً لها فإن بعض الحقوق سوف تحفظ للملك بمفرده فى المستقبل، وهى بدون شك نوع من أنواع الـ Regalia أو امتيازات الخطر. ومن ناحية أخرى فإن الملك تخلى عن بعض الحقوق من أجل رجال الدين. وسمح لقساوسة الضريح المقدس بتأجير منازلهم للمرابين والتجار والحرفيين والذين يمكنهم ممارسة تجارتهم دون حائل أو مانع. غير أن هذا الامتياز الأخير لايمكن أن يعتبر منحة امتلاك عادية. وحدد الملك ذلك بأنه امتياز خاص. وهذه المنازل سوف تكون خالية فى الأحوال الخاصة والاستثنائية.

ماذا تعنى هذه الحرية الخاصة؟ فالتحديد الخاص فى إيجار المنازل فى

بيت المقدس لم يكن معروفًا[٤٥] فلماذا إذن الحاجة إلى امتياز خاص؟ ومفتاح الإجابة يوجد فى أعمال النزلاء المحددة فى الامتياز. وهم جميعًا ينتمون إلى فئة التجار والحرفيين، ومثل هؤلاء، كما يمكن أن نتصور، بحاجة إلى تفويض خاص لممارسة تجارتهم، تفويض يشترى للأموال السائلة، أو بالأحرى يدفع من خلال الضرائب والواجبات المفروضة على إنتاجهم وصفقاتهم.

وفى الحالة الثانية فإن جمع الضرائب سيكون أمرًا سهلا إذا كان هؤلاء الرجال مستقرين فى مكان السوق. وكان ممثلى الملك أو رجاله سوف يكونون فى السوق. ولكن محلاتهم لم تكن مركزة فى مكان واحد، ولذا فإن جمع دخل الملك أصبح أمرًا غاية فى الصعوبة. ويمكن أن ننظر إلى عكا كحالة مشابهة. فقد ارتأى قرار محكمة الملك (حيث كان البرجوازية ممثلين بدرجة كافية) أن السكان غير الكاثوليك، والذين يدفعون الضرائب والواجبات للملك، يجب أن يعيشوا فى حى خاص فى المدينة[٤٦] وربما حدث نفس الشيء فى بيت المقدس. وهذا، كما افترض، لماذا مارس الحرفيون والتجار تجارتهم فى مناطق خاصة محددة، وكان هذا توضيح للاستثناء الممنوح لرجال الضريح المقدس، ومنحهم الملك تأجير منازلهم، فى أى موقع تكون، للحرفيين، للتجار.

وإذا كان هذا التوضيح صائبًا، فإنه يظهر تساؤل آخر، ما هو الأساس النظرى أو العملى للحق الملكى فى هذه الحالة؟ هناك إجابتان على ذلك التساؤل. وفى حالتنا هذه فالملك هو سيد المدينة، وكذلك فإنه يجمع الضرائب والواجبات لهذا المكان. ومن هنا يمكننا الافتراض، أنه كسيد للمدينة فإن له حق التدخل فى الممتلكات، والتأجير وذلك بقدر ما تتصل بدخله. وكذلك فإن هناك تفسير آخر، فكما أوضحنا فإن بيت المقدس بين كبيرات مدن المملكة، ولأنه لا يوجد بها سيادة أخرى علمانية، بخلاف

الملك، ولذا فإن سيطرة الملك على السكان كانت أقوى من أى مكان آخر. وبذلك يمكننا أن نفسر حق الملك فى التدخل نتيجة نشاطه الاستيطانى. وهذا الاستطيان كان عملا مربحًا، فى فتح الأسواق، المعارض، والصرافة وهى مشاريع تدر الدخل. وجهزت المدن الأوروبية فى نفس الفترة بأمثلة عديدة. ومن هنا نفترض أن الملك، والذى عمَّر المدينة وزاد من تطويرها، احتفظ لنفسه حتى عام ١١٦٤م بحق التدخل حيث تتسع المدينة، وحيث تتركز اهتماماته الخاصة. وظل توطين التجار والصرافين والحرفيين، ومساحات مناطق المدينة والأبنية، وكذلك الحق الوحيد فى ترتيب اليد العاملة فى المجتمع فى المدينة، حقاً خاصاً.

ويمكن أن نلخص الوصف السابق كما يلى: فاستقرار اللاتين فى المدينة المقدسة بدأ من العدم Nihilo. وبدأ البحث عن نواة السكان الجدد فى الجيش المحتل، والذى كان لحماسه الدينى أثره عليه فى منع غير النصارى من الإقامة فى المدينة، وكان الملك (السيد الاقطاعى للمكان) ورجال الدين من العوامل المؤثرة فى زيادة تطور المدينة. ولعب الملك دوراً مؤثرًا فى عملية الاستيطان لكى يحقق أهدافه. وكانت الخطوة الأولى هى توطين الفلاحين من النصارى الشرقيين من وراء الأردن، ثم تبع ذلك السماح باستيراد المؤن الرخيصة وتخفيض تكاليف المعيشة وذلك بإلغاء أو تخفيض الضرائب والواجبات المفروضة على البضائع المستوردة. وكانت هناك محاولات أخرى هدفت إلى استقرار التجار العالميين، القومونات الإيطالية ونتيجة لذلك جعلت بيت المقدس كمركز تجارى تفشل تماماً. وكان لموقعها الجغرافى، وبعدها عن طرق التجارة الرئيسية، وكذلك تركيبتها الاقتصادية، وكمدينة للمستهلكين، لم يبرر ذلك التطور.

وظلت بيت المقدس عاصمة للمملكة لأسباب روحية بحتة. واعتمدت فى المقام الأول على الإيجارات من السكان، الملك والبلاط، ورجال الدين

من جميع الطوائف والجماعات الرهبانية، على الرغم من أن السكان بدون شك استمدوا جزءً من دخلهم من تيار الحجاج المتذبذب ومن الصدقات المدفوعة من أوروبا.

وكان لغياب القومونات الإيطالية والجماعات الأخرى الخاصة، سواء أكانت قومية أو اجتماعية، قد أعطت بيت المقدس تجانسًا فريدًا فى الإدارة، ولوحظت أيضًا حتى فى مؤسساتها الاقتصادية، على الرغم من سكانها الأوربيين.

وعلى الرغم من ذلك فإن بيت المقدس لا يمثل مثالا لمدينة صليبية. وهى استثناء لهذه القاعدة. واحتفظت بوجودها لأسباب عاطفية بحتة، واعتمدت بقية المدن على المدن الأخرى تمامًا على مؤسساتها الاقتصادية والإدارية.

الهوامش

(*) تناولت مدرسة الإسكندرية فى العصور الوسطى العديد من المدن فى عصر الحروب الصليبية بالدراسة فى رسائل الماجستير والدكتوراه ومنها على سبيل المثال لا الحصر مدن: أنطاكية وصيدا وقيسارية وحيفا ويافا وبيروت والخليل والجليل بخلاف القلاع الأخرى. ويبدو أن المؤلف لم يطلع على هذه الدراسات (المترجم).

(١) مثال ذلك الشروط المعروضة من أسقف البندقية للمحاصرين فى حيفا: تحول السكان المسلمين إلى العبودية أو إخلاء المدينة، أو التحول إلى النصرانية ويصبحون مواطنين من الدرجة الثانية. وربما كانت هذه الشروط غير صحيحة تاريخياً ولكنى أعتقد أنها تعكس بوضوح الرأى العام فى هذه الفترة. انظر:

Monachus Littornsis in Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidenteauz (RHOcc) V. 276.

(٢) E.G. in Acre (1104), cf. Gesta Francorum, 63, (RHOcc. III, 567), Beirut (1110), cf. Albertus Aquensis, XI, 17.

(٣) سقطت عسقلان فى عام ١١٥٣، وهى استثناء لأن موقعها الجغرافى أجبر الصليبيين على تهجير سكانها من المسلمين.

(٤) على أى حال، فطبقاً للمؤرخ العربى، فقد ظل فقط المرضى والفقراء.

Ibn al - Athir, A.H. 518 in RH Orientauz, I, 359.

(٥) وليم الصورى، 111, 13 وفى هذه الحالة فإنه من الضرورى أن نورد النص الموجود لهذه الأحداث لدى الترجمة الفرنسية لوليم الصورى، والذى لا يوجد فى الأصل اللاتينى.

(٦) Cf. Assises de la cour des Bourgeois in RHC. Lois, II, Preface, p. XVII.

وعالجت نقص القوى البشرية فى مملكة بيت المقدس فى مقال:

Colonization Activities in the Latin Kingdom of Jerusalem , Revue Belge de Philologie et d' Histoire, XXIX (1951), 1063-1118.

(٧) أشار يحيى الأنطاكى إلى الزلزال وإصلاح الأسوار، وفيما يبدو أن هذا الزلزال يتطابق مع الزلزال الكبير فى سوريا وفلسطين فى نهاية عام ١٠٣٣ وطبقاً لخطاب

عبرى من بيت المقدس فإن الزلزال بدأ فى ٥ ديسمبر ١٠٣٣. انظر :

J. Mann, The Jews in Egypt and in Plaestine Under the Fatimids (Oxford, 1922), II, 176-178.

(٨) William of Tyre, IX, 17-18 (RH Occ. 1, 390 f.

(٩) J. Prawer, The Vicissitudes of the Jewish and Karaitic in Jerusalem During the Arab Period (640-1099) Zion Quarterly for Research in Jewish History, NS., XII (1947), 136-148); The Jewish in Latin Kingdom of Jerusalem, Ibidem, N.S., XI (1945)-1946), 38-82.

وكلاهما باللغة العبرية مع ملخص إنجليزى.

(١٠) وعن كنيسة ماريا المجدلانية انظر:

E. Cerulle, Etiopi in Palestine, Rome, 1943, I, 10-12.

(١١) لا توجد أعداد احصائية متاحة لهذه الفترة ولكن من الملاحظ أن الثلاثين طائفة يهودية المعروفة والموجودة فى فلسطين فيما بين القرنين السادس والحادى عشر الميلاديين ورد ذكر اثنى عشر منها فى المصادر بعد ١٠٧١م، وهو عام الغزو السلجوقى.

(١٢) William of Tyre, XI, 7.

(١٣) Baldricus Dolensis, XIV, RH Occ. IV, 113; William of Tyre, XI, 27, RHOcc., I, 500f.

(١٤) الأرقام التالية هى أرقام مفيدة. وفيما بين ستين ألف فى وقت غزو المدينة، فإن عشرة آلاف لعبوا دوراً فى معركة عسقلان فيما بعد ذلك بشهرين (أغسطس ١٠٩٩م) وفى خريف نفس العام كان هناك ثلاثة آلاف فقط فى معركة أرسوف. وفى ربيع عام ١١٠٠م وسبتمبر ١١٠١م كان هناك فقط ألف ومائتان وألف وثلثمائة مقاتل على الترتيب. وقدم هؤلاء من جميع أنحاء المملكة. وهذا يعطينا فكرة عن عدد سكان بيت المقدس. وهذه الأعداد مأخوذة من :

W.B. Stevenson, The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), pp. 33, 35, 39, 44.

(١٥) Fulcherius Carnotensis, Historia Hicrosolymitana, ed. H. Hagenmeyer (Heidelberg, 1913), n. 10.

(١٦) William of Tyre, XI, 27.

(١٧) Matthew of Edessa, Cap. 21, RHC, Documents arminius, I, 54-55, cf. E. Cerulli, Etiopi in Plaestina, P. 13.

(١٨) هذا توضيح مبتكر للمكان أسماه ف. م. أبل. ويجب الإشارة إلى هذا المكان السرى كان يطلق عليه حتى عام ١١٨٧م «الباب الجديد» Porta Nova. انظر :
J. Delville le Roulx, Cartuliar General de l'Ordre des Hospitaliers de S. Jean de Jérusalem (Paris, 1894), no. 537.

(١٩) William of Tyre, xi, 27.

(٢٠) مثال ذلك الرحالة العربى على الهروى فى أرشيف اللاتين الشرقيين، ص ٥٩٣، أما أعداد الرحالة والحجاج اليهود فهى أكثر. وتوجد قائمة كاملة لدى شيفر Sefer.

(٢١) The Itinerary of Benjamin of Tudela (English Translation) ed. Asher (New York, 1900), p. 69.
وذكر أربعة عائلات يهودية فى بيت المقدس. أما النص الذى يشير إلى «مائتى عائلة» والموجود فى بعض المخطوطات فهو خطأ. انظر:
B. Dinaburg in Zion Quarterly for Research in Jewish History, II, 1927, 54.

(٢٢) William of Tyre, IX, 19, RH Occ., I, 393.

(٢٣) تناولت هذه المشكلة بالتفصيل فى مقالى:
The Assise de Teneure and the Assise de Vente: A Study of Landed Property in the Latin Kingdom, The Economic History Review, 2nd series, IV, I (1951), 77-88.

(٢٤) William of Tyre, IX, 19.

(٢٥) لا يوجد أساس للوصف التقليدى عن فترة السعادة التى تلى الاحتلال مباشرة فى الوثائق المعاصرة. وأما تطور المملكة فهو مأخوذ من رواية فوشيه. (نشر هاجنمير، ص ٣٧) وهو يثبت التطور الهائل للأساس الصغير حيث كتب بصفة خاصة للجزء الثالث من تاريخ بيت المقدس حيث لم يتم تأليفه قبل ١١٢٤م. ويوجد وصف آخر ليس أقل شهرة لدى اكهارد. Ekkehard.

(٢٦) William of Tyre, XI, 27.
وأثبت التاريخ رورشت:

R. Röhricht, Geschichte, des Konigreichs Jerusalem, 1100-1291 (Innsbruck, 1898), p. 113.

William of Tyre, XI, 27, RHOcc. I, 500.

(٢٧) Itinéraires à Jerusalem de descriptions de la Terre Saints rédigés en Fran-cais aux xii e et xiiie riécles, ed. H. Michelant and G. Raynaud.

(٢٨) ويوجد الاقتباس فى ص ٤٩ . وكان هذا الحى يسمى فى اللاتينية Judearia وورد ذكره فى وثيقة من وثائق دير نوتردام أوف جوزيفات وكنيسة الضريح المقدس.

(٢٩) أفضل خريطة لبيت المقدس توجد فى :

F.M. Abel, L'estat de la Cité de Jerusalem, Jerusalem, Records of the Pro-Jerusalem Council, I (Jerusalem, 1918-1990), ed. C.R. Ashbee, F.M. Abel, Jerusalem au Temps du Royaume Latin, XII e Siécle, Jerusalem Nouvelle, Planchs LXXXVI., C.N. Johns Palestine of the Crusaders (Jerusalem, 1936).

(٣٠) أخذت الأسماء من خريطة للقرن الثانى عشر الميلادى من مخطوط كامبرى Ms. Cambrai ـ المطبوعة بواسطة رودشت. وهذه الكنائس لم ترد فى مصادر الفترة السابقة. والاستثناء الوحيد هو كنيسة ماريا المجدلانية. وهناك كنيسة بهذا الاسم ذكرت فى بداية القرن التاسع، ولكن موقعها الطبوغرافى فى هذه الفترة غير معروف. وأخذت موقع كنيسة سريانية فى عام ١٠٩٢م والتى تتطابق مع ماريا المجدلانية، على الرغم من نص تاريخ البطاركة اليعاقبة السكندرنيين لم يذكرها.

(٣١) شق الصليبيون طريقهم فى هذا المكان تماماً إلى داخل المدينة. وحدد المكان فى خريطة مخطوط كامبرى بعلامة الصليب ووصف كتب عليه.

(٣٢) Cartulaire... du Saint. Sépulcre, ed. Röziére, pp. 83-85, CF. Wil. Tyr. XII, 15, RH Occ. I, 534, p. والنص ورد ملخصاً فى فوشيه.

(٣٣) P. Paris, Guillaume de Tyr et ses continuateur, p. 456.

أما النص الوارد فى الـ Recueil فهو مشوه فى هذا المكان.

(٣٤) William of Tyre, XII, 15.

(٣٥) مع أن الامتيازات العامة للقومونات الإيطالية قد منحتهم حقوقاً خاصة فى جميع

مدن المملكة فإنه يمكن أن نفهم أن بيت المقدس كانت ضمنها أيضًا. ولكن هناك حقوقًا خاصة ذكرت بيت المقدس بوضوح. فقد حصل البنادقة على امتياز فى عام ١١٢٣م منحهم حيًا فى بيت المقدس.

G.L. P. Tafel and G. M. Thomas, Urkunden zur älteren Handels and Stauts-geschichts der Republik Vene dig, I, (Vienna, 1856), no. 40.

(٣٦) ليست أسواق الشوارع الثلاث فى بيت المقدس بحاجة إلى توضيح. غير أنه يجب التذكير بأن الملكة ميليسند هى التى قامت ببناء السوق المركزى بشق طريق جديد بين الطريقين الموجودين. وقام بالعمل عبيد الملكة. انظر:

Cartulaire... du Saint Sépulcre, ed. Roziere, No. XLVIII وهناك سوق آخر للحبوب بالقرب من برج داود.

(٣٧) من المفارقات الزمنية أن نعتبر الحجاج الصليبيين مثل السائحين الحديثين فى الشرق. وكان هناك حجاج أغنياء ، ولكن الغالبية العظمى كانوا من الفقراء . وكانت صدقات المستشفى توزع، حيث مدحتهم الرحلات فى إشارة إلى أحوال الحجاج، وهناك أيضًا مقابر للفقراء، خارج أسوار المدينة. ومن هنا يمكن أن نعتبر الحجاج مصدرًا ثانيًا من الدخل فى تطوير المدينة.

(٣٨) هذه رواية شيقة عن تنظيف الشوارع، واحتفظت بها الـ Assises de Bourgeois قوانين البرجوازية.

(٣٩) ورد ذكر الكنيسة فى :

Cartulaire... du Sainte Sépulcre, ed. Roziere وورد ذكر الشارع فى أرنول. وهذا الوصف كتب فى عام ١٢٣١ ولكنه اعتمد على No. 185 مصادر القرن الثانى عشر الميلادى.

(٤٠) Johannes Würzburgensis, ch. 13, in Descriptiones Terrae Sanctae ex saeculo vIII, IX, XII, et XV, ed. T. Tobler (Leipzig, 1874), p. 156.

(٤١) ورد ذكر جيراردى أوف لشبونه فى:

Cartulaire... du Saint Sépulcre, ed. Roziere , no. 185.

(٤٢) لاشك أن المصحة الهنغارية من القرن الثانى عشر مؤسسة جديدة، ولكن هناك زعم بأن المصحة الهنغارية فى بيت المقدس قام جياسا الأول الهنغارى ببناءها فيما بين عامى ١٠٧٥-١٠٧٧م. انظر:

P. Riant in Archives de l'Orient Latin, I, (1881), 28, not. 10.

هل هناك علاقة فيما بينهما؟

(٤٣) يستثنى من ذلك بطبيعة الحال حقوق السيادة الخاصة بالبطريرك ورجال الدين وهذه الحقوق التى ظهرت فى العصور الوسطى من نتيجة امتلاك أنواع خاصة من الملكية. انظر : حاشية رقم ٤٥ والاستيطان بواسطة البرجوازية يمكن أن تثبت فى عدة أماكن فى المملكة من بينها عكا.

(٤٤) Cartulaire... du Saint Sépulcre, ed. Roziere, p. 265.

(٤٥) تحديد إيجار المنازل يمكن أن نستقيه من حيازة البرجوازية.

(٤٦) Assises des Bourgeois, ch. ccxliii, ed. Beugnot in Lois, II, 178.

اللاجئون السوريون ـ الفلسطينيون

فى زمن الحملات الصليبية

Sivan, Emmanuel, Refugiés Syro-Palestiniens au temps des croisades in : Revue des études Islamiques, xxxv (Paris, 1967)

اللاجئون السوريون ـ الفلسطينيون
فى زمن الحملات الصليبية

من عواقب الحروب ونتائجها الوخيمة التى لا مفر منها تلك المشكلة الإنسانية الخاصة باللاجئين. والحروب الصليبية لا تشذ عن هذه القاعدة. كل ما فى الأمر أن مشكلة اللاجئين من سكان الشرق الأوسط فى تلك الآونة لم تتناولها الدراسات بالبحث. لذا فقد رأينا الإدلاء بدلونا فى هذا الجانب الخاص بدور اللاجئين فى الحروب الناشبة ضد الفرنجة. ويجدر بنا قبل الشروع فى تبيان هذا الدور البدء فى وضع نشاط هذه المجموعة فى إطار تاريخى موضحين كيفية تكوين هذه المجموعات السكانية وحجمها وتوزيعها جغرافياً إلى جانب مدى استيعاب وتقبل البلاد الإسلامية لها.

والمعلومات التى أمكننا التوصل إليها فى هذا الصدد من خلال المصادر العربية واللاتينية ليست بالغزيرة وهى إلى جانب ذلك موزعة زمنيًا ومكانيًا وقد رأينا أولا تجميعها وفى مرحلة تالية تبيان المشاكل التى اعترضت سبيلنا. أما عن النتائج التى توصلنا إليها فلا يمكن اعتبارها سوى فرضيات مطروحة.

يمكننا إرجاع مشكلة اللاجئين إلى بدء دخول الفرنجة إلى سوريا وفلسطين فالهجرة الجماعية قد بدأت عام ١٠٩٨ مع غزو أنطاكية وتوالت مراحل متتالية من هذه الهجرة مواكبة للغزوات الكبرى وانتهت بالاستيلاء على «صور» عام ١١٢٤م وقد انقسم المهاجرون الذين كانوا فى أغلبيتهم من المسلمين إلى ثلاث مجموعات وذلك بالقياس بظروف هجرتهم نفسها.

وأول هذه المجموعات الثلاث هى تلك المكونة من الفارين من المذابح التى قام بها الفرنجة فى العشر سنوات الأولى لغزوهم واقتحامهم بالقوة لبعض المدن والمذابح الأخرى التى قاموا بها فى المدن التى استسلمت ورغم

استسلامها لم يتمكن القادة الفرنجة فرض الانقياد والانصياع لبنود الاتفاقيات والشروط المعقودة مسبقًا مع قادة ورجال هذه المجموعات بها.

وتشير المراجع إلى وصول لاجئين إلى الأراضى الإسلامية بعد المذابح الدامية والمجازر التى حدثت فى أنطاكية ومعرة النعمان عام ١٠٩٨م وفى بلدة سروج وبلدة قيسارية Césarée عام ١١٠١م. وفى بعض المدن الأخرى قام قادة صليبيون بإنقاذ بعض الجماعات من السكان المحليين (وخاصة الضباط ورجال الصفوة) كما حدث فى القدس عام ١٠٩٩م وعكا عام ١١٠٤ أما ثانى هذه المجموعات فهى أكثرهن أهمية. وهى مكونة من سكان المدن التى كانت قد استسلمت والتزم فيها الفرنجة بمواثيقهم بشأن الحفاظ على حياة السكان وكفالة حرية مغادرة هذه المدن. ويبدو أن معظم السكان المسلمين قد اختاروا حل الهجرة هذا. وقد وجدنا مثل هذه الحالات حتى فى السنوات الأولى لغزو الفرنجة فعلى سبيل المثال نجد هذا الأمر فى أرسوف عام ١١٠١ وأفامية عام ١١٠٦ وجبلة عام ١١٠٨ وعرقة عام ١١٠٨ أيضًا إلى جانب طرابلس عام ١١٠٩.

وكما بين J. Prawer فإن مثل هذه العهود والمواثيق والكيفية التى التزم بها الفرنجة فى تطبيقها أصبحت أمرًا شائعًا منذ غزو صيدا عام ١١١٠ مما يدل على وجود تغيير واتجاه أكثر إنسانية حيال سكان المدن التى يتم غزوها (ص ١٣٧ وإن كان البعض يفسرها على الأقل جزئيًا بالدوافع الاقتصادية) كما يدل ذلك على سيطرة القادة الفرنجة الكاملة على رجالهم.

وتتكون المجموعة الثالثة من هؤلاء السكان الذين أخلوا مدنهم بالكامل خوفًا من غزو الفرنجة وآثروا اللجوء إلى المدن التى رأوا أنها بعيدة عن خطر الغزو. وهؤلاء هم سكان مدن الرملة ١١١٠، أرتاح ١١٠٥، منبج، بالس ١١١٠. ويشير ابن أبى طى إلى أن مجموعة من الحلبيين قد فروا إلى

الجزيرة والعراق بعد غزو طرابلس عام ١١٠٩ (حاشية: يمكننا إضافة مجموعة رابعة إلى هذه المجموعات الثلاث وهى التى أشارت لها مراجع الجنيزا Geniza بالقاهرة والخاصة بمجموعة من يهود القدس. أما اليهود الذين وقعوا فى أيدى الغزاة فقد قام إخوانهم فى الدين فى عسقلان ومصر بتخليصهم من براثن الغزاة)

ونظراً لخلو المصادر من البيانات العددية ولعدم وجود دراسة عميقة للديموجرافية السورية (لعدد ونوعية السكان فى سوريا) خلال القرن الحادى عشر فلا يمكننا قياس حجم هذه الهجرة. نضيف إلى ذلك جهلنا بأمر ومصير المسلمين فى القرى وعدم معرفتنا إذا كان على شاكلة مصير أهل المدن المحيطة بهذه القرى أم مختلفاً عنها. كل ما يمكننا قوله أن هذه الهجرة الجماعية شملت جانباً كبيراً من السكان المسلمين فى سوريا وفلسطين.

ويمكننا إضافة حقيقة لا شك فيها وهى أن هذه الهجرة قد استمرت بعد الربع الأول من فترة وجود الفرنجة وإن كانت بنسب أقل. وهناك حالات كثيرة من حالات الهجرة الجماعية نعرفها غادر فيها السكان قراهم إلى مناطق متاخمة للحدود كما فى Besarré فى منطقة طرابلس (نهاية الثلاثينيات) وكما فى الغرب فى جبل بيروت عام ١١٧٠م تقريباً.

أما الهجرة من منطقة نابلس فهى ذات طابع مختلف. ويجدر بنا التوقف قليلا عندها. فهى من ناحية تزيدنا معرفة بالظروف المعيشية للسكان الأصليين فى مملكة الفرنجة ومن ناحية أخرى فلاجئوا نابلس كان عليهم أن يلعبوا دوراً هامًا فى الجهاد ضد الصليبيين. وكانت قرى هذه المنطقة قد أظهرت عداءً حيال الفرنجة فى زمن غزو المودود عام ١١١٣ والفترة التالية له. أما فى منتصف القرن الثانى عشر فقد أضمرت عداءً متزايداً لسادتهم (حاشية: مصدرنا فيما يخص الهجرة ويتعلق بأمورها فى نابلس هو ابن طولون، القلائد الجوهرية فى تاريخ الصليحية، دمشق المجلد الأول، ١٩٤٩،

ص ٢٦-٣٩) والأمر هنا يتعلق بالقرى الواقعة فى الجنوب الغربى لنابلس والتابعة لبودان ديبلين سيربل Sirabel (حاشية: يطلق ابن طولون على هذا السيد تارة «ابن بليان» و«ابن باريزان» وتارة أخرى يطلق عليه بودان أو بودوين. ومن السهل الاستدلال عليه فقرية «الجطيل» مركز الهجرة وبعض القرى الأخرى التى يشير إليها ابن طولون كانت تابعة لعائلة ايبلين. وبالتالى يمكن البحث عن هذا السيد فى هذه العائلة وبين أفرادها ونظراً لكون ايبلين الأول قد توفى قبل عام ١١٥٥م فالسيد المتواجد وقت الهجرة الجماعية عام ١١٥٦م هو أحد ابنيه. ولما كان «باليان الثانى» فى هذه الفترة قاصراً فالأرجح أنه الابن الأكبر بودوان الذى ولد عام ١١٣٣ وكان يتولى حكم هذه المنطقة باسم والدته هلفيس دى راما).

وقد فرض عليهم هذا السيد نظاماً قاسياً وظالمًا فى المجال الضريبى (فقد بلغت الضرائب فى هذه المنطقة أربعة أضعاف مثيلتها فى المناطق المجاورة) وفى مجال العدالة (تزايدت العقوبات الجسدية) وقد بلغ القهر المجال الدينى عندما اتخذ بودوان إجراءات قاسية ضد فقيه من قرية الجمايل يدعى أحمد بن محمد بن قدامى وكان قد نسب إليه إيذاء العمل الزراعى بخطبة يوم الجمعة وما جاء بها خاصة وأن أعداداً غفيرة تحضر لاستماع هذه الخطب. وما نعرفه عن ابن قدامى هو اعتباره وجود المسلمين فى غير بلادهم شيئًا مهيناً وقد أشار إلى ذلك فى خطبه وبين مدى الظلم المجحف الواقع على المسلمين من ناحية الضرائب ومن ناحية العدالة. ورغم معرفة ابن قدامى بنوايا بودوين فقد قرر الهجرة وقد أقنع ذويه وبعض الأسر الموالية له باتباعه.

وقد استغل الفقيه فى ذلك كراهية هذه الأسر لبودوين وإلى أحكام الدين الإسلامى التى ترى وجوب مغادرة المسلم للبلاد غير الإسلامية فى حالة عدم استطاعته ممارسة شعائره الدينية. وأول جماعات غادرت قراها كانت ذات أعداد محدودة وقد ارتحلت سراً إبان العام ١١٥٦ إلى دمشق.

وقد أفاض ذوى ابن قدامى فى تفسير هجرته وقد أثرت هذه الهجرة فى بعض الأذهان. ففى العشرين عام التالية ترك سكان ثمان قرى فى المنطقة بلادهم واستقروا فى ضاحية الصالحية بدمشق حيث استقر ابن قدامى ومريدوه. وهجرة نابلس هذه لها قيمة خاصة وإن كانت لا تمثل إلا حالة من الهجرة الجماعية الإرادية الفريدة. فرغم لوم الشخصيات الكبيرة ومنها على سبيل المثال ابن جبير إلا أن الغالبية العظمى من المسلمين فى الشرق اللاتينى أبت أن تغادر إرادياً ديارها. ولم يكن سكان نابلس هم أول النازحين إلى دمشق. فقد كانت دمشق وكذلك حلب من أكبر مراكز تجمع المهاجرين منذ بداية القرن الثانى عشر. وقد امتصت المدن السورية فى مجملها (بعد استثناء دمشق وحلب وشيزر وحماه) أغلب موجات الهجرة السورية الفلسطينية.

وقد كانت الأعداد المهاجرة إلى الجزيرة والعراق أقل بكثير ومعظم هذه المجموعات من منطقة الرها. كذلك كانت الأعداد النازحة إلى عسقلان ومصر أعداداً بسيطة.

وتنقصنا المعلومات عن مدى استيعاب البلدان المهاجر إليها لهذه المجموعات ويمكننا استقاء بعض المعلومات من مصادر مختلفة تبين لنا حالات لمهاجرين من رجال الدين والتجار وجدوا أعمالا وسبلا للمعيشة فى البلاد التى هاجروا إليها. إلى جانب هؤلاء هناك أعداداً غفيرة وجدت صعوبات مادية جمة (هذا إذا أغفلنا الجانب النفسى) نظراً لكونها قد اضطرت لترك بلادها بدون اصطحاب أمتعتها كما حدث فى أرسوف.

وفى الأشعار التى ألفها المهاجرون وفى بعض الرسائل التى وجدت فى الجيزة بالقاهرة صدى لهذه الآلام والمشقات التى عانى منها المهاجرون.

وتعد الصالحية الحالة الوحيدة المعروفة لدينا عن استقرار المهاجرين بصورة جماعية وإذا كانت هذه المنطقة قد ازدهرت وانتعشت فلا يجب أن

ننسى أن مهاجرى نابلس قد عانوا فى بداية الأمر وظهر ذلك فى ارتفاع نسبة الوفيات.

ورغم قسوة أحوالهم المعيشية فقد استقر المهاجرون فى البلاد الإسلامية بصفة نهائية وأداروا ظهورهم للإمكانيات المقدمة لهم من قبل الفرنجة للعودة إلى مساقط رؤوسهم. نستثنى من ذلك بعضاً من سكان مدينة صور القدامى الذين عادوا إلى بلادهم ودافعهم إلى ذلك كما يقول ابن جبير هو حبهم لمدينتهم الأم.

ما هو دور هؤلاء الضحايا المباشرين للغزو الغربى فى الحرب القائمة ضد الفرنجة؟ لا يمكننا الجزم بأن المهاجرين قد كونوا بعض قوات حركة الجهاد المناوئة للفرنجة فقد كانت هذه القوات من الدمشقيين والحلبيين منذ فترة طويلة وأغلبهم من رجال الدين الذين ليست لهم علاقة بالمناطق المستولى عليها.

ويمكننا القول بأننا نملك العديد من قصائد المهاجرين التى تم تأليفها بعد غزو الفرنجة وكلها تدور حول القدر والمصير والأعداء. وهى فى مجملها بكاء على هذا المصير الذى آل إليه الشعراء أنفسهم. وتطغى أحاسيس الخوف والقلق فيها على المشاعر الأخرى مثال ذلك ما قاله القاضى السابق لمعرة النعمان الذى لجأ إلى حماه: «ما هذا الهم الذى يعترينى؟ أتراه بسبب فقدانى لذوى أم لأموالى؟ أم تراه ابتعادى عن مسقط رأسى وافتقادى لمن يساندنى هنا؟ لا أعرف ماذا أبكى فى كل ذلك؟» ويقول آخر متأملا منزله وقد تصدع بعد المذبحة التى قام بها الفرنجة فى معرة النعمان: «أتراه بيتى ومحل إقامتى أم مأوى ومرعى لحيوانات شرسة مفترسة؟ التفت إلى جدرانه متساءلا أى حكم ومصير ظالم ذلك الذى ألمَّ بنا؟ ويروى تاجر كان يقيم فى معرة مسرين فى قصيدة له: «أنا من مدينة حكم الله عليها أن تدمر. لقد أفنوا كل السكان ومر حد السيف على رقاب الشيوخ والأطفال على السواء.

ويلاحظ أن الكراهية والعداء اللذان يرد ذكرهما في هذه القصائد لا يأخذان صبغة دينية. ولا يعتبر أى من الشعراء اللاجئين وحتى قاضى معرة النعمان الشافعى العدو كافراً كما لا يدعو أى منهم إلى شن حرباً مقدسة ضده. والقصيدة الوحيدة التى يمكن من خلال أبياتها استشعار أصداء دينية هى قصيدة «المهذب» وهو لاجئ آخر من لاجئى معرة النعمان «يا له من مصير ذلك الذى أصاب آل منطقة الشام. فقد ألمَّ بهم الطاعون وأحاط بهم الأعداء فى آن واحد. لقد أصبحوا شهداء تخترقهم الرماح وتحيق بهم الأوبئة».

وتجدر ملاحظة أن لفظ «شهداء» قد استخدم هنا بمعناه الواسع أى يقتصر هنا على الإشارة إلى الموت المفاجئ وغير الطبيعى كالغرق والطاعون والقتال مع استبعاد الدلالة الدينية.

وحركة الجهاد التى نشأت فى دمشق وحلب فى بداية القرن الثانى عشر لم يدخل اللاجئون إلى صفوفها إلا فى مرحلة متأخرة عندما اتسعت هذه الحركة وتبناها بعضاً من الحكام وأولى الأمر.

ويُعد زنكى موصول ـ حلب (١١٢٧ - ١١٤٦م) أحد هؤلاء الحكام وقد التحق بخدمته شاعران هما أبو عبد الله القيصرانى (من قيسارية) وأحمد بن منيد (من طرابلس) وكانا قد هاجرا من مدن ساحلية سورية ـ فلسطينية عند غزو الفرنجة. وكانا عند الهجرة فى أعمار متفاوتة فعلى حين كان الأول فى السادسة عشرة كان الثانى يناهز الثلاثين. وقد سمح لهما سنهما بإدراك مرارة الاغتراب. وتشير قصائد المديح للزانكى التى كتباها ليس فقط إلى فضائل سيدهما ومساوئ الفرنجة وإنما إلى عقيدتهما أيضاً وأهم ما قدماه فى الحرب المقدسة ضد الفرنجة هو إطلاقهما لفكرة وجوب استعادة أراضى الشرق اللاتينى كهدف أسمى للجهاد. وقد دعا إلى ذلك عقب غزو الرها عام ١١٤٤م.

فالقيصرانى يقول مثل: «قل للحكام الخونة أن يسلموا بعد الرها كل أراضيهم فهى بلد زنكى».

وأهمية الفكرة ترجع إلى كونها منحى هام وتغيير فى طابع الحرب ضد الصليبيين فحتى هذه الدعوة كانت الحرب بصفة رأساسية حرباً دفاعية. ومنذ أعلنت حركة الجهاد عام ١١٤٤م أصبحت حرباً هجومية. وقد ظهرت هذه الفكرة الجديدة وتلخصت فى شعار جديد يدعو إلى تحرير المدينة المقدسة أورشليم وهنا يظهر الطابع الدينى لهذه الحرب.

ويتغنى ابن منير بقوله إن زنكى سيلتفت غداً إلى بيت المقدس. كما يقول القيصرانى إذا كان غزو الرها هو اليم فبيت المقدس والساحل هما الشاطئ».

ومن المحتمل أن يكون زنكى بعد غزو الرها هو مطلق فكرة استعادة الأراضى غير أن هذا لا يجعلنا نستبعد تأثير الشاعرين عليه خاصة فيما يتعلق بالأراضى المقدسة بيت المقدس. وقد ظلا حتى مماتهما يناديان بهذه الفكرة خاصة عام ١١٤٦م بعد تولى نور الدين محل والده زنكى.

وقد استمر الشاعران فى خدمة الابن وأطلقا الصيحات والنداءات للحرب المقدسة. وقد مدحا أعمال نور الدين وهاجما البلدان التى رفضت مثل دمشق التنازل عن استقلالها من أجل الوحدة السورية التى كان نور الدين يحاول الدعوة إليها مشيراً إلى كونها الشرط والركيزة الهامة لنجاح الحرب ضد الفرنجة.

إذا كان لم يوجد بين مادحى نور الدين ومن بعده صلاح الدين لاجئين فى الفترة التالية فإننا نجدهم بين دعاة الجهاد الذين لا تحميهم سلطة. وهؤلاء كانوا فى غالبيتهم فروع مختلفة من عائلة بنو قدامى المقيمين فى الصالحية التى أضحت أكبر مركز للدعوة بدءً من الستيينيات. وكان يقوم بالدعوة هناك اثنان من الفقهاء هما موفق الدين بن قدامى وهو

نجل مؤسس هذا المكان أو المركز، وقريب له يدعى عبد الغنى. وقد تمكن الاثنان أثناء حملات نور الدين على مصر حشد الفاطميين وحلفائهم الفرنجة من عقد ندوات قرءا فيها عن العقيدة الدينية لابن بطة وهو كتاب يتميز بالتنديد بالمجددين (خاصة الاسماعيليين) وبالتركيز على الأهمية الكبرى للجهاد ووضعه فى مقام أركان الإسلام الخمسة.

وقد أعادا قراءة هذا الكتاب فى حضرة موفق الدين عشية حملة صلاح الدين على الصليبيين. أما قريبه عبد الغنى فقد كتب إبان حكم صلاح الدين دراسة من نوع فضائل الجهاد الذى قصد أن يقرأ فى الأوساط التقوية فى دمشق وبدلا من الاكتفاء بالدعوة بالقول والكتابة أعطى الفقيهين المثل لمواطنيهم بالتطوع الإرادى فى صفوف جيش صلاح الدين فى حملاته فى الثمانينيات، وتلاهما فى التطوع أربعة علماء من اللاجئين منهم اثنان من بنى قدامى مما أدى إلى الإقبال على عملية التطوع فى سوريا خلال هذه الفترة.

ولم تتراخى الأنشطة الدينية فى الصالحية حتى فى الفترة التى هدأت فيها الحروب المقدسة وهى فترة حكم الأيوبيين. ومن هنا فقد كرس موفق الدين جزءً هاماً من دراسته فى القانون «المغنى» لتبيان مزايا الحرب المقدسة. بينما كتب ضياء الدين المقدسى وهو أحد أفراد عائلة مواليه دراسة عن الجهاد ودراسة أخرى تمجد أورشليم والأرض المقدسة.

إذا كان نشاط رجال الدين قد ساد وصدم السلطة إبان عهد صلاح الدين فإنه أثناء الحكم الأيوبى قد ناوئ السلاطين الذين كانوا يبغون إقامة تسوية ودية مرضية لهم وللفرنجة. ومن هنا فالخلاف بين هاتين القوتين يبدو منطقياً ومن غير الممكن تفاديه. وأول صدام بين المعارضة التقوية والسلاطين نشأ عندما اتهم عبد الغنى بن قدامى صراحة حاكم مصر ودمشق «العادل» بالانشغال بالحروب ضد المسلمين وتجاهل القتال ضد الكفار والخائنين.

وقد استمر التقليد الذى أوجده لاجئو نابلس حتى العصر المملوكى الذى شهد ازدهاراً فى روح الجهاد. وقد دفع فخر الدين السعدى وهو من سلالة المشاركين فى الهجرة الجماعية، أهل دمشق للمشاركة فى الحرب التى شنها بيبرس ضد الساحل. وقد شارك شمس الدين بن قدامى وهو ابن شقيق موفق الدين وكبير قضاة دمشق فى الحملات التى قادها بيبرس ضد الصليبيين. وقد أشاد بالجهاد فى التعليق الذى قدمه عن الدراسة الثانية فى القانون التى كتبها عمه. وقد قاد ابنه نجم الدين وهو أيضاً من كبار القضاة، مجموعة من المتطوعين مكونة من أبناء العائلات المهاجرة المقيمة فى دمشق وقد اشتركت هذه المجموعة فى غزو طرابلس عام ١٢٨٩م أحد آخر معاقل الفرنجة.

باستثناء مجموعة البحارة لاجئى المدن الساحلية التى انضمت إلى صفوف البحرية المصرية أثناء غزو صيدا عام ١١٠٩ يمكننا القول بأن معرفتنا بالمشاركة الفعلية للمهاجرين فى الحرب المقدسة تقتصر على رجال الصالحية ومن المؤكد أن اللاجئين قد لعبوا دوراً ما فى عمارة الحدود والدفاع عنها والمبادرة فى هذا المجال ترجع لا إلى اللاجئين وإنما للحكام.

وكان أولهم زنكى الذى عند استيلائه على معرة النعمان عام ١١٣٦ رد للسكان القدامى ممتلكاتهم. وقد قام ابنه نور الدين باتباع الأسلوب نفسه مع أبناء قدامى السكان فى مدينة عزاز عام ١١٥٠. وقد تم إرجاع الأراضى وفقًا لصكوك الملكية التى كان الملاك القدامى قد حملوها معهم أو طبقًا لسجلات المساحة الرسمية فى حلب أو طبقًا لأقوال الشهود. وهدف هذان الحاكمان واضح للغاية. وهو إبراز طابع استعادة الأراضى الذى اتسمت به حملاتهما إلى جانب إقرار مجموعة من السكان الموثوق بهم على الحدود تدافع عن الأراضى المستردة باستماتة.

وجدير بالذكر أن إعادة الممتلكات هذه قد سببت لزنكى خلافًا كبيراً مع بعض رجال الدين كما أحيت خلافًا قديماً كان قد سبب انقسامًا حاداً بين فقهاء المسلمين. فالواقع أنه طبقًا للمذاهب الثلاثة (الشافعى والحنبلى والمالكى) فإن أموال المسلمين التى استولى عليها الكفار ترد حين تستعيدها الجيوش المسلمة آليًا إلى ملاكها السابقين من المسلمين باعتبارهم الملاك الشرعيين.

أما بالنسبة للمذهب الحنفى فعلى النقيض من ذلك تعود ممتلكات المسلمين التى سبق للكفار الاستيلاء عليها إلى الحاكم المسلم الذى يمكنه إما الاحتفاظ بها أو تقسيمها بين المقاتلين كغنيمة.

ندرك من ذلك لماذا اضطر زنكى الذى كان يتبع المذهب الحنفى ويحيط نفسه بفقهاء من المذهب الحنفى إلى تخطى آراءهم ونصائحهم بالاحتفاظ بأملاك اللاجئين. جدير بالذكر أنه لا يوجد خلاف واضح جاء ذكره فى المصادر بشأن إعادة نور الدين وهو أيضًا حنفى. غير أنه بما أن موقف فقهاء المذهب الحنفى فى هذه الآونة معروف من خلال كتاباتهم بثباته فإن فرضية وجود خلافات بين المحيطين به لا يمكن استبعادها.

وقد اتبع صلاح الدين سياسة الزنكيين فى هذا المجال وأعاد الأراضى إلى أمراء البحتريين فى الغرب عام ١١٨٧م.

ويبدو أن مشكلة ممتلكات اللاجئين قد شغلت فيما بعد السلطان الشافعى فقد طلب عام ١١٨٩ رأى العالم الدمشقى الناصح الحنبلى. وقد أثار رد هذا الأخير خلافًا حاداً بينه وبين فقيه آخر من الراجح أنه يتبع المذهب الحنفى. وقد استمر الاهتمام بأمر الممتلكات حتى فى عصر الأيوبيين رغم أن عمليات استعادة الراضى قد توقفت تمامًا خلال هذه الفترة. وفى عام ١٢٢٥م أعلن السلطان المعظم وهو من أتباع المذهب

الحنفى القلانسى أنه يوافق على ما قام به زنكى. أما السلطان المملوكى بيبرس فبعد استعادة الأراضى فإنه قد انتهج سياسة القرن الثانى عشر. فعند استعادة صفد عام ١٢٦٦م أعاد للسكان القدامى أراضيهم فى مرج الشعرا مخالفاً بذلك العلماء الذين يتبعون المذهب الحنفى. ويبدو أن شاغله الشاغل كان ملء هذه المناطق بالسكان فى أسرع وقت ممكن.

من هنا يبدو أن اللاجئين لم يكونوا قوة أولى فى عصر الصليبيين وقد ترجع هذه الحقيقة إلى نقص فى مراجعنا، إلا أنه يجدر القول أن فهم نشاط بعض الشخصيات الرئيسية فى القتال ضد الفرنجة لا يتأتى إلا من خلال إدراك صفتهم كلاجئين. ويعدو وجود اللاجئين كمجموعة اجتماعية شيئاً لا يمكن إغفاله خاصة فى سوريا إذا ما أردنا إيضاح الجوانب الدعائية فى الحرب (واستناداً إلى العقيدة الموجودة فى القدس أو بيت المقدس والخلافات القضائية) وكذلك الحياة الثقافية فى هذا العصر.

الرشوة في المجتمع الصليبي في بلاد الشام
منذ الحملة الصليبية الأولي وحتى سقوط بيت المقدس
(١٠٩٥-١١٨٧م/٤٨٨-٥٨٣هـ)

يتناول هذا البحث ظاهرة «الرشوة فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام ـ منذ الحملة الصليبية الأولى وحتى سقوط بيت المقدس» أى منذ عام ١٠٩٥م/٤٨٨هـ حين قام البابا إربان الثانى بالدعوة للحروب الصليبية وحتى نجاح صلاح الدين الأيوبى فى استرداد بيت المقدس فى عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ وأعقب ذلك انتقال حاضرة هذه المملكة الصليبية الاسمية إلى عكا فيما بعد وقام مجتمع صليبى له نمطه الجديد. ولاشك أن هذا المجتمع الصليبى فى بيت المقدس خاصة وفى بلاد الشام عامة أصبح له عاداته وتقاليده الاجتماعية التى ميزته عن المجتمع الأوربى السابق، بل أصبح المؤرخون يفرقون بين الصليبيين القدامى والوافدين الجدد «الغرباء». ويقول فوشيه دى شارتر «نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين بمعنى الكلمة»[1].

وعلى الرغم من ادعاء المصادر اللاتينية بأن الحروب الصليبية هى تكفير لذنوب المشاركين فيها وفرصة لضمان الخلاص يوم القيامة، إلا أن واقع الحال يخالف ذلك تمامًا، فقد راود الجميع أحلام الثراء سواء أكانوا من الفرسان الذين يحملون قيم الفروسية أو من الفقراء الذين وقعوا فى شباك الطمع الدنيوى. وسيطرت هذه الأطماع المادية على الجميع وسعوا إلى تحقيقها بشتى السبل والوسائل. لذا شاع استخدام الرشوة فيما بينهم ومع من تعاملوا معه. ويطلق أحد المعاصرين على ذلك بقوله: «وقد خالف هؤلاء الصليبيون تعاليم المسيح باعتراف الجميع وفاق حبهم للمال حبهم للعدل الإلهى»[2].

وعندما وصلت هذه الجموع إلى القسطنطينية ازداد هذا الجشع وذلك عندما رأوا أمام أعينهم بريق الذهب والأموال وكنوز بيزنطة الأخرى، وعرف الأباطرة البيزنطيون كيف يتعاملون مع هؤلاء الرعاع فاستعانو بالمال والهدايا للتأثير عليهم ونجحوا فى ذلك نجاحًا بعيدًا. وأدرك السلاجقة أيضًا الأطماع

المادية التى حركت هذه الجموع وتمكنوا من استغلال هذا الفهم فى كثير من المعارك لصالحهم. وتعلق أنا كومنين على ذلك بقولها «لقد كان لرنين المال صدى عجيباً عليهم... وكانت تثيرهم كلمات «الغنائم، والتقسيم»[٣].

وكلما اقتربوا من الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً كما وعدهم البابا إربان الثانى شاعت بينهم الفكرة «اليوم سنصبح كلنا أغنياء بمشيئة الله»[٤] وأصبح المثل الأعلى بين قادتهم «من يستطع الحصول على أكثر فليحصل، ومن يستطع أن يأخذ أكثر فليأخذ»[٥] وعقب نجاحهم فى تكوين أول إمارة صليبية لهم فى الرها عام ١٠٩٧م/٤٩٠هـ، استطاعوا الاستيلاء على إمارة ثانية هى إمارة انطاكية فى عام ١٠٩٨م/٤٩١هـ وقد لعبت الرشوة دوراً أساسياً فى قيامها.

أما هذا المجتمع الجديد الذى تكون عقب سقوط بيت المقدس فى قبضتهم عام ١٠٩٩م/٤٩٢هـ فيذكر فوشيه دى شارتر وصفًا له بقوله «والذين كانوا لا يملكون درهمًا واحداً هناك ـ أى فى الغرب ـ أصبحوا يمتلكون قطع الذهب التى لا تقع تحت حصر... فلماذا إذن نعود إلى الغرب مادام الشرق يفى تمامًا برغباتنا ومطالبنا؟»[٦] وفى ضوء هذه الأطماع المادية انتشرت الرشوة فى تعاملات هذا المجتمع بأقسامه المختلفة، ولعبت دوراً خطيراً فى تقرير كثير من معاركه وأحداثه. وعلى الرغم من ذلك فلم يحظ هذا الموضوع باهتمام المؤرخين الحديثين فى الشرق أو فى الغرب على حد سواء، مع أنه يمس جانبًا هامًا من حياة الصليبيين وقيمهم ومثلهم فى المجتمع.

وفى حقيقة الأمر فإنه لا يوجد بحث قائم بذاته تناول هذا الموضوع فى هذه الفترة الزمنية مدار البحث. وكتاب الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرازق عن البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك يقع فى فترة لاحقة تبعد عن الفترة التى أتناولها كثيراً ومع ذلك فقد أفادنا البحث فى بعض الجوانب.

وقد اعتمدت على مصادر الحروب الصليبية سواء العربية أو اللاتينية أو اليونانية أو العبرية لاستخلاص هذه الدراسة مع عقد مقارنةفيما بينها بغية الوصول إلى دراسة وافية لهذه الظاهرة وبهدف الوصول أيضًا إلى الحقيقة التاريخية فى هذا الموضوع.

وأخيرًا أرجو من الله أن أكون قد وفقت فى تقديم دراسة جديدة تتناول الأبعاد الاجتماعية لهذا المجتمع من خلال دراسة هذه الظاهرة والتى لاشك أنها كانت أحد العوامل التى أدت إلى انهياره.

والله الموفق.

دكتور حسن عبد الوهاب حسين

أطلق المؤرخون اللاتين مصطلحات متعددة على الرشوة. فقد ذكر ريمونداجيل «الرشوة» مباشرة عندما اتهم المبعوثين اللاتين بأنهم تلقوا «رشوة» من الامبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين[٧]. أما المؤرخ وليم الصورى فقد استخدم نفس الكلمة فى مناسبات كثيرة، وأوردها أيضاً بمعنى «الهدايا والهبات»[٨] وأورد ألبرت داكس «الهدايا والوعود الجزيلة» للدلالة على الرشوة أيضاً[٩]. وكذلك فى الوثائق اللاتينية الأخرى[١٠]. وفى وثيقة رقم ٨٣ التى نشرها رورشت ورد مصطلح لاتينى آخر للرشوة هو Pollutus Sit بمعنى «أفسدت ذمته»[١١] واستخدم وولتر ماب رئيس شمامسة أوكسفورد والكاتب الساخر تعبيراً آخر كناية عن دفع الأموال والرشوة فيقول «إن الليدى بيرس Lady Purse ـ أي محفظة النقود ـ هى التى غزت روما»[١٢] وذلك عندما هاجم قرارات المجمع الكنسى الثالث فى عام ١١٧٩م[١٣] . أما شراء المناصب الدينية عن طريق الرشاوى فقد أطلق عليه «السيمونية» وهى نسبة إلى سيمون الساحر اليهودى الذى أراد شراء هبة الخوارق والإتيان بالمعجزات من القديس بطرس فقال له «لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم»[١٤].

أما الوصول إلى المناصب الدينية فى الكنيسة الشرقية فقد استخدم فيه مصطلح آخر للدلالة عليه وهو «الشرطونية» فيذكر ابن لقلق «كيرلس الثالث» «وكان من الأساقفة من يزن المايتى دينار وأقل إلى الماية دينار والفقير والصاحب خمسين دينار... »وكانت قضية مستنكرة إلا أنها قد شاعت وذاعت وعرفت وألفت»[١٥].

وأوردت مصادرنا العربية المصطلح بمعان عديدة، فذكره سبط ابن الجوزى بقوله «أخذ الرشا» [١٦] ، وكذلك العماد الكاتب «فكل من رشا مشا»[١٧]، واستخدم ابن النديم لفظ المصانعة «فصانعوه على مال». «وصانعه واليها على سبعة آلاف دينار» وهو كناية عن الرشوة[١٨]. وارتبط أيضاً

مصطلح آخر بالرشوة وهو العطايا والهدايا، فيقول أبو شامة «السلطان يكرمها ويهدى إليها أنفس الهدايا»[١٩]، وابن واصل «وواصله بالهدايا والتحف»[٢٠]. ويعتبر صلاح الدين تقديم الرشوة نوعًا من الخضوع فيقول«بلغنى حديث الهدية المؤذن بذل الإسلام[٢١]، وارتبط بنفس المعنى الوعود «وعدهم بالعطاء الجزيل»، «فوعدهم الوعود الجميلة»[٢٢] . وهذه المعانى وغيرها دلت من سياق الأحداث التاريخية على الارتباط المباشر بمعنى الرشوة والتى سنلاحظها عبر صفحات هذا البحث بإذن الله تعالى.

أما موقف الإسلام من الرشوة فهو واضح تمامًا، بل إن رسول الله ﷺ لعن الثلاثة: الراشى والمرتشى والرائش أى الوسيط بينهما[٢٣]. وفى سفر أعمال الرسل رفض بطرس الرشوة، ولكن الكنيسة عانت معاناة خطيرة من هذا الداء الخطير الذى أدى إلى وصول كثير من الفاسدين إلى المناصب الدينية المختلفة، وقبيل قيام الحروب الصليبية بذل البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥م) كل ما فى وسعه لتخليص الكنيسة ممن وصل إلى منصبه عن طريق السيمونية أو الرشوة. أما بعد قيام الحروب الصليبية فظلت المشكلة قائمة لاستغلال الإمبراطور لهؤلاء المفصولين للبقاء إلى جانبه فى صراعه ضد البابوية إلى أن تم عقد اتفاقية ورمز فى عام ١١٢٢م وبموجبها تم حل هذه المشكلة[٢٤]، أما فى قوانين الجماعات الرهبانية العسكرية فهناك تفاوت فى عقوبة المرتشى بينها. فلدى جماعة الداوية يعاقب «بالطرد من الجماعة» وفى الاسبتارية «فقدان الرداء» أما الجماعة الألمانية فتراوحت بين العقوبتين وذلك «إذا اقترف الأخ نفسه الرشوة أو تسبب فى إدخال شخص آخر يدخل إلى الجماعة من خلالها»[٢٥] وبالرغم من ذلك يعترف أحد مؤرخيهم بأنهم خالفوا تعاليم المسيح (عليه السلام) وفاق حبهم للمال حبهم للعدل الإلهى[٢٦].

عقب دعوة البابا إربان الثانى للحملة الصليبية لم تنتظر جموع الرعاع والفلاحين وغيرهم الموعد الذى حدده فى خطبته، واندفعت تلك الجموع فيما عرف بالحملة الشعبية وذلك فى أبريل ١٠٩٦م متجهة صوب الأرض التى تفيض لبناً وعسلا. وكانت بقيادة والتر المفلس وبطرس الناسك حيث وصلت إلى القسطنطينية. وعلى الرغم من نصائح الإمبراطور البيزنطى الكسيس كومنين لهم إلا أنهم لم يلتزموا بها وأعماهم الطمع والجشع، وأدرك السلاجقة هذه الطبيعة فى هؤلاء القوم فأشاعوا بينهم أن زملاءهم قد استولوا على نيقية وأنهم مشغولون بتقسيم الذهب والأموال وغيرها من الكنوز. وتعلق أنا كومنين على ذلك بقولها إن السلاجقة كانوا يعرفون «مدى حبهم للمال» وكيف أن كلمات الغنائم والمال والأنصبة تربكهم لمجرد سماعهم بها(٢٧). فاندفع هؤلاء للحصول على نصيبهم من الثروة وكانت نهايتهم المفجعة عند نهر دراكون فى أكتوبر ١٠٩٦م/ شوال ٤٨٩هـ وذلك لجشعهم وطمعهم (٢٨).

تحركت الحملة النظامية فى حوالى ١٥ أغسطس ١٠٩٦م/ ٢٢ شعبان ٤٨٩هـ وذلك على عدة أقسام حسب التقسيم اللغوى والجنسى والاقطاعى. وسرت شائعة فى أوروبا بأن هذه الجموع سوف تنتقم من اليهود وتهدر دمهم، فسارعت الجاليات اليهودية فى المدن المختفة بتقديم رشاو إلى قادة هذه الحملات، وقدرها ألبرت داكس بخمسمائة قطعة من الفضة وهدايا عينية أخرى (٢٩). أما رالى سميث فيعتقد بأن موظفى الأبرشيات من سكان المدن هم الذين حصلوا على هذه الرشاوى لتقديم الحماية لليهود ولكنهم لم يقدروا على ذلك أمام الجشع الصليبى لابتزاز هؤلاء اليهود(٣٠).

كان ذلك أول اتهام بالرشوة، ويوجه ريموندآجيل اتهاماً آخر للمبعوثين الصليبيين الذين أرسلهم ريموند الصنجيلى لمقابلة الإمبراطور البيزنطى، فيذكر أنهم عادوا بوعود وردية وكان السبب فى ذلك هو «رشوة الإمبراطور

لهم» وذلك فى ١٨ أبريل ١٠٩٧م[٣١] . وربما يكون هذا الاتهام صحيحًا فقد وجد الكسيس نفسه أمام حشود هائلة يدفعها الجشع والطمع فقرر استخدام سلاح المال والرشوة معًا، وعندما وصل هيوكونت فرماندوا ـ أخو ملك فرنسا ـ أغدق عليه «الهدايا» ليقسم يمين الولاء له[٣٢]. أما جودفرى فقد أهداه «ثياب حريرة ومؤن وخيول» وشارك الإمبراطور فى مأدبة فاخرة أعدت له وأمر بأن يتم توفير الإمدادات اللازمة له[٣٣]. كذلك أدرك نفسية بوهمند النورماندى فأمر بأن يدخل إلى غرفة مليئة بكل أنواع الثروات من ملابس وذهب وفضة وغيرها حتى أنها لم يبق فيها موضعًا لقدم ووهب له جميع ما فيها، وعلى الرغم من تردد بوهمند الذى كان يخشى البيزنطيين وهم يقدمون الهدايا ـ إلا أن الرشوة أثمرت وأقسم يمين الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطى[٣٤].

وتؤكد المصادر الأخرى رواية المؤرخة البيزنطية، فيذكر ألبرت داكس أنه تم إحضار هدايا من كافة الأنواع من خزينة الإمبراطور: ذهب وفضة وكل ما له قيمة، إضافة إلى الخيول وغيرها[٣٥] ويؤكد الكونت آتيين فى خطابه إلى زوجته أن الإمبراطور غمر الجميع بالهدايا والمنح، وكذلك فعل مع فرساننا، وأطعم جميع الفقراء[٣٦] . وقد أدركت آن كومنين أن والدها عرف طباع هؤلاء القوم ـ فكانت الرشوة هى السبيل إلى قلوبهم وعقولهم «وبهذه الطريقة ومن خلال المال والنصيحة الطيبة، بذل الكسيس الكثير لكى يهذب من طبيعتهم الشرسة»[٣٧] .

وبعد أن نجح الإمبراطور البيزنطى فى الحصول على قسم الولاء من هؤلاء القادة، عمل على أن ينفذ الجزء التالى من خطته وهى استرداد المدن البيزنطية التى كانت تابعة له فى آسيا الصغرى وبلاد الشام، فاستمر فى استخدام الرشوة، فقد وعد بإعطاء الصليبيين جميع ما فى نيقية من ذهب وفضة وخيول وغيرها، وسيعطى كل فرد بسخاء مما يجعلهم يتمنون خدمته

مدى حياتهم...(٣٨) كانت هذه رشوة الإمبراطور أمام نيقية قبل حصارها فى ٦ مايو ١٠٩٧م. ويعلق ريموندا جيل على ذلك بأن الإمبراطور تصرف بعدها بجحود واتهمه بالخيانة(٣٩). ويخالف كثير من المؤرخين اللاتين ريموندا جيل معترفين بأن الكسيس غمرهم بالهدايا والأموال والذهب والفضة والثياب ووزع قطعًا من النحاس على المشاة(٤٠). وسقطت نيقية فى أواخر يونيو ١٠٩٧م بعد أن نجح الإمبراطور أيضًا فى رشوة عدد من الأتراك بها ووعدهم «بمبالغ كبيرة من المال والمكافآت والعطايا السنوية»(٤١).

ومرة أخرى ينجح الإمبراطور البيزنطى فى الحصول على قسم الولاء من بوهمند ومن القادة بعد أن رشاهم بالأموال، خاصة بوهمند الذى كان لديه شهوة جامحة نحو المال (٤٢) وكانوا جميعًا على استعداد لبيع زوجاتهم وأطفالهم مقابل أي مبلغ زهيد من المال(٤٣).

وعقب معركة ضورليوم فى أول يوليو ١٠٩٧م بدأت أطماع القادة الصليبيين فى الازدياد وأخذ كل منهم يخطط من أجل تحقيق مصالحه الشخصية وانفصل بلدوين عن الجيش الرئيسى حيث توجه إلى الرها التى كان يحكمها ثورس الأرمينى، وعلى الرغم من تبنيه لبلدوين إلا أن ذلك لم يشفع له حيث وجهت إليه تهمة رشوة الأتراك للتخلص من معارضيه ــ وعبثًا حاول الاستغاثة ببلدوين وقدم إليه رشوة من «مرمر وآوان ذهبية وفضية ونقود لا تحصى» إلا أنه تم اغتياله. ويوجه البعض اتهامًا إلى بلدوين بالاشتراك مع زوجة ثورس للتخلص منه لكى ينفرد بحكم الرها(٤٤).

أخذت الغيرة تشتد بين الأمراء الصليبيين بعد نجاح بلدوين فى إقامة أول إمارة صليبية فى الرها، وازدادت الصراعات فيما بينهم أمام أنطاكية التى وصلوا إليها فى أكتوبر ١٠٩٧م. وعقب نجاحهم فى الاستيلاء على أحد الحصون المؤدية إليها عرض ريموند الصنجيلى رشوة على الفرسان ليقبلوا حمايته لها وتشييد قلعة المحمرية أو المنبر وذلك فى ٢٠ مارس ١٠٩٨م.

وأثناء ذلك لم يسلم حتى شهداء المسلمين من جشع الصليبيين الذين اندفعوا إلى هذه القبور يبحثون عن الذهب والأموال وغيرها من الكنوز المدفونة فيها كما يدعى تيدبوده(٤٥).

وكما نجح بوهمند فى تدبير مؤامراته للتخلص من القائد البيزنطى تاتيكوس لكى ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية، فقد سعى لكى تكون أنطاكية له دون بقية الأمراء الطامعين(٤٦). ووجد ضالته المنشودة فى ذلك الخائن فيروز الأرمينى الذى كان يتولى حراسة برج الأختين(٤٧) وأجمعت المصادر على أن بوهمند رشا فيروز ولكنها اختلفت فى هذه الرشوة، فيذكر تيدبوده «أملاك كثيرة»(٤٨) ويضيف وليم الصورى «وامتيازات واسعة» له ولورثته (٤٩) أما كفارو الجنوى فيشير إلى «هدايا نفيسة من الثياب الفاخرة والأوانى الذهبية والفضية»(٥٠) وتتفق المصادر السريانية مثل المؤرخ السريانى المجهول وميخائيل فى خيانة فيروز ورشوته(٥١). أما مصادرنا العربية فنجد ابن الأثير يحدد أنهم «بذلوا له مالا وإقطاعًا»(٥٢). ويذكر ابن العديم أن فيروز هو الذى طلب ذلك دون أن يحدد ما طلبه «أنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتنى وأعطيتنى كذا وكذا»(٥٣).

واختلفت المصادر حول الدافع الذى جعل فيروز يقبل الرشوة، فيذكر ابن القلانسى أن ذلك يرجع إلى مصادرة ياغى سيان حاكم أنطاكية السلجوقى لأموال وغلة فيروز(٥٤)، وينقل ابن العديم نفس الرواية(٥٥). أما وليم الصورى فيذكر رواية مختلفة مفادها أن ذلك يرجع إلى خيانة زوجة فيروز ورآها ابنها الذى نقل ذلك إلى والده فعمل على الانتقام من الأتراك(٥٦). وإلى جانب انفراده بهذه الرواية التى لم ينقلها أحد من المعاصرين، فإن وليم يذكر القصة بعد أن بدأت الاتصالات بين بوهمند وفيروز، وفى النهاية نجحت خطة بوهمند واستطاع تحقيق هدفه المنشود باقتحام أنطاكية فى ٣ يونيو ١٠٩٨م / ١ رجب ٤٩١هـ وذلك عن طريق

الرشوة ودون خسائر كبيرة مما كان له أكبر الأثر على مواصلة تقدمهم ومواجهة رد الفعل الإسلامى.

لم يتبق سوى قلعة أنطاكية التى أصبحت فى حوزة أحمد بن مروان أحد أتباع كربوغا، وقد اختلفت المصادر حول موقفه، فبينما تدعى المصادر اللاتينية أنه تمت رشوته هو الآخر وتنصر هو وجماعة معه وسمحوا للباقى بالخروج [٥٧]. أما ابن العديم فيذكر أنهم أنزلوه فى دار بأنطاكية وخرج بقية أصحابه إلى حلب فخرج عليهم الأرمن ولم يسلم منهم إلا القليل[٥٨]. وتشير المصادر العربية المتأخرة زمنيًا أنه كان ضمن الذين خرجوا من أنطاكية ولم يتنصر ويشير إلى ذلك كل من ابن شداد وابن عبد الظاهر «وسلم أحمد ودخل حلب»[٥٩].

ظل الصليبيون فى أنطاكية حيث بدأوا فى مغادرتها فى ٢٣ نوفمبر ١٠٩٨م لتحقيق أطماعهم وفى ٤ يناير ١٠٩٩م عقدوا اجتماعًا فى قلعة الروج قدم فيه ريموند رشاوى للقادة الأخرين تراوحت ما بين عشرة إلى خمسة آلاف صولدى حسب مكانة كل منهم. وكان من بين الرشاوى أيضاً جوادين عربيبن من سلالة ممتازة قدمها إلى تانكرد. ويشير رانسيمان أن ذلك كان رشوة لهؤلاء القادة، بينما يبررها جروسيه بأن ريموند كان يطمع فى نيل المساعدة من زملائه[٦٠].

انهالت الرشاوى على الصليبيين فى أثناء توجههم نحو بيت المقدس، فقدمت مدن شيزر وحماه وحمص أنواعًا مختلفة من الهدايا مثل الذهب والفضة والحيوانات إضافة إلى إقامة أسواق لبيع ما يحتاجون إليه من مؤن وإمدادات وكذلك أدلاء لعبور نهر العاصى[٦١] ونصح البعض ريموند الصنجيلى أن يتظاهر بحصار أحد الحصون حتى يحصل على رشاوى أيضاً ـ فقرر محاصرة عرقة الواقعة على بعد ١٥ ميلا من طرابلس ـ ووصلت الأخبار إلى جودفرى وروبرت كونت فلاندرز اللذين سارعا بحصار جبلة ـ

فحاول حاكمها رشوتهما بحوالى ستة آلاف قطعة ذهبية وخيول وبغال وكميات وفيرة من النبيذ، ولكن جودفرى رفض ذلك فرض الرشوة على ريموند بأن أرسل إليه رسلا إذا نجح فى إقناع زملائه بفلك الحصار. ويترك وليم الصورى الأمر معلقًا لأنه يذكر «ويقال» أن الكونت قبل الرشوة سراً فأرسلإليهما بأن هناك جيشاً إسلامياً على وشك الوصول إلى جبلة فتم رفع الحصار وذهبا إلى ريموند عند عرقة وعندئذ أخبرهما تانكرد بأمر خيانة ريموند وبالقصة كاملة. وكان ذلك فى ٢-١١ مارس ١٠٩٨م[٦٢].

وبعد أربعة أشهر تقريبًا من حصارهم لعرقة قرر ريموند بعد الضغط عليه الاستجابة لآراء القادة الآخرين بضرورة ترك الحصار والانسحاب فى ١٣ مايو ١٠٩٩م[٦٣]. وأثناء ذلك كان مبعوث الإمبراطور البيزنطى قد وصل فى ١٠ أبريل ١٠٩٩م محالوا تقديم رشوة جديدة للصليبين، فقد عرض عليهم تحمل الإمبراطور جميع أعباء الحرب ونفقاتها، ومنحهم هدايا كثيرة وأجور سخية ومبالغ كبيرة من الذهب والفضة وذلك إذا تم انتظاره لكى يعبر معهم إلى بيت المقدس فى أواخر يونيو ١٠٩٩م[٦٤]، وأبدى ريموند موافقته، ولكن القادة الآخرين عارضوا ذلك ومن بينهم جودفرى وقرروا مواصلة المسير إلى القدس دون انتظار الإمبراطور.

وأمام طرابلس جرت محاولات جديدة لرشوة الصليبيين من فخر الملك ابن عمار حاكمها ـ فقد ذكر تيدبوده أنه أرسل عشرة من الخيول وأربع بغال ومبلغًا من المال دون أن يحدده[٦٥]، ويؤكد وليم الصورى ذلك مناقضاً ما سبق أن اتهم به ريموند الصنجيلى من أنه أشاع وصول القوات الإسلامية لكى يجعل جودفرى وروبرت يقدمان إليه عند عرقة. فقد ذكر أن اتفاقًا نهائيًا تم مع حاكم طرابلس بعد أن فشل وصول القوات إليه من خليفة بغداد مما يؤكد وجود هذه الأخبار. وتم عقد هذا الاتفاق مقابل رشوة ضخمة تضمنت تقديم ١٥ ألف بيزنط وخيول وبغال وملابس وإطلاق

سراح الأسرى فى مقابل عدم تعرض مدن طرابلس وعرقة وجبلة لأية أخطار[٦٦].

استمرت المدن الفاطمية فى تقديم الرشاوى للصليبيين أثناء تقدمهم إلى بيت المقدس، فقدمت لهم بيروت وصيدا وعكا وقيسارية وأرسوف هدايا عديدة، ومنها ما قدمه حاكم عكا «سوق حسب شروط جيدة»[٦٧] وحاولت هذه المدن إبعاد خطر الهجوم عليها، ولكنها أيضًا كانت تحذر بعضها من هذا «الجنس الفظ» كما وصفهم حاكم عكا فى رسالته[٦٨].

انتهت هذه الحملة الصليبية الأولى بالاستيلاء على بيت المقدس فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م/٢٤ شعبان ٤٩٢هـ لتسطر واحدة من أبشع الجرائم التى تمت فى هذه المدينة المقدسة. ويعترف المؤرخون اللاتين أنفسهم بهذه المذابح التى لم ينج منها حتى النصارى الشرقيين الذين كانوا بها. فقد أعمى الجشع والطمع تلك الجموع، ولم يسلم حتى الموتى من ذلك، ويعترف فوشيه دى شارتر ورادلف أوف كين بأنهم قاموا بإحراق الجثث بحثًا عن الحلى أو المجوهرات وقطع آذان السيدات لأخذ ما بهن من ذهب[٦٩].

وهكذا لعبت الرشوة دوراً خطيراً فى إحداث هذه الحملة منذ خروجها من أوروبا متجهة إلى بيت المقدس، وساهمت فى كثير من وقائعها وأظهرت طبيعة هؤلاء القوم فيما بينهم وفى تعامل الآخرين معهم سواء من البيزنطيين أو السلاجقة أو حكام المدن الفاطمية مدركين جميعًا أنهم يمكنهم عن طريق الرشوة بأنواعها المختلفة شراء هؤلاء القوم، وذلك على الرغم من ادعاءات المصادر اللاتينية وتصوير هذه الحملة بأنها تمثل التضامن والتلاحم فى الصراع من أجل المثل الدينية العليا، بل وإسباغ المثل العليا على قادتها ــ إلا أن ما قدمته لنا المصادر المختلفة يوضح كيف تغلب عليهم الطمع

المادى والجشع، وتصدعت تلك الصور الزائفة أمام بريق الذهب والفضة والهدايا الأخرى. ولاشك أن ذلك سوف ينعكس على هذا المجتمع الذى تكون فى الأراضى المقدسة سواء فى مملكة بيت المقدس أو فى إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس.

كان أول اتهام بالسيمونية ـ أى الوصول للمنصب الدينى بالرشوة ـ يوجه فى الأراضى المقدسة إلى دايمبرت البيزوى الذى تم اختياره بطريركًا لبيت المقدس فى عام ١١٠٠م، ويوجه ألبرت داكس هذا الاتهام له وذلك عندما استخدم الأموال التى كان قد استولى عليها أثناء وجوده مندوبًا بابويًا عند ألفونسو السادس القشتالى فى عام ١٠٩٨م(٧٠). ولم تنته مشاكله عندذلك، بل تأزم الموقف مرة أخرى مع الملك بلدوين الأول الذى اصطدم مع البطريرك ووجه إليه اتهامات عديدة بحضور المندوب البابوى الكاردينال موريس أسقف بورتو الذى قدم إلى الشرق لهذا الغرض. وصحب بلدوين فى رحلته إلى القدس وضمن تأييده لسياسته. وعندما أصر بلدوين على موقفه شرع دايمبرت «يغريه ويرجوه ألا يعفيه من منصبه وهمس فى أذنه بتقديم رشوة مالية له»(٧١) كما وافق على دفع رواتب أربعين جنديًا، ولكن عندما ماطل فى تنفيذ وعوده قرر بلدوين عزله وتم إجبار مساعديه على الكلام فأقروا بوجود أموال تتراوح ما بين ٢٠ - ٣٠ ألف بيزنط بخلاف الفضة التى يصعب وزنها. وأخذ الملك هذه الأموال ووزعها على جنوده، ولم ينجح دايمبرت فى العودة على الرغم من صدور قرار بابوى له بذلك، فقد مات فى مسينا بإيطاليا فى يونيو ١١٠٧م(٧٢).

حرصت المدن الفاطمية على تقديم رشاو مختلفة لبلدوين ملك بيت المقدس حتى تبعد خطره عنها، وتنوعت ما بين القمح والفواكه والزيوت والجياد العربية الأصيلة وذلك إضافة إلى الأموال(٧٣).وربما كانت رشوة حاكم قيسارية لجودفرى قد أودت بحياته، فقد اتهمه المؤرخ متى الرهاوى

بأنه دس السم فى طعام قدمه هدية له، فمات ومعه أربعين شخصًا. وعلى الرغم من أن بقية المصادر لا تؤكد هذه الرواية فقد أشار ألبرت داكس أنه قدم لهم طعامًا بالفعل ولم يأكل جودفرى سوى تفاحة ومرض بعد ذلك[٧٤]. وقبل بلدوين أثناء رحلته من الرها إلى بيت المقدس هدايا قدمتها له المدن التى مر بها من الخبز والخمر والعسل وأكباش الضأن المطهية وذلك لضمان عدم عدوانه عليها. كما وافق بعد اعتلائه العرش على رشاوى أخرى قدمت له وذلك لحاجته إلى الأموال فى بداية حكمه[٧٥]. واستمر بلدوين فى سياسته الابتزازية للحصول على رشاوى من هذه المدن إذا لم ينجح فى الاستيلاء عليها فعند حصاره لصور فى عام ٥٠١هـ/١١٠٨م «صانعه واليها على سبعة آلاف دينار» فقبضها ورحل عنها[٧٦]. وكذلك قدم له حاكم صيدا رشوة تراوحت ما بين ألفى إلى ستة الاف دينار ومحاصيل من الكروم وذهبًا وذلك لكى يفك حصاره عنها[٧٧] أما موقف حاكم عسقلان ـ شمس الخلافة ـ من دفع رشوة لبلدوين «وأهدى إليه مالا وعروضًا» «واتفقا على مال» فقد أثارت المصادر العربية ذلك واتهمه المؤرخون بأنه كان «أميل إلى الموادعة والمسالمة» «وأرغب فى التجارة من المحاربة». وعلى الرغم من أخذ بعض المراجع الحديثة برأى هذه المصادر العربية، إلا أن هناك إشارة هامة أوردها فوشيه وألبرت عندما ذكرا أن الأسطول النرويجى رسا عند يافا وكانت هناك نية الزحف ضد عسقلان فلجأ حاكمها إلى استخدام الرشوة مع الملك الصليبى مما أنقذ المدينة من السقوط فى قبضة الصليبيين لأكثر من نصف قرن من الزمان تقريبًا[٧٨].

ونهجت صور نفس النهج السابق فقدمت لبلدوين سبعة الاف قطعة ذهبية. وفى الحصار الذى امتد من ٢٩ نوفمبر ١١١١م إلى ١٠ أبريل ١١١٢م /٢٥ جماد أول ـ ١٠ شوال ٥٠٥هـ يذكر ألبرت داكس أن أهالى صور لجأوا إلى فارس صليبى اسمه رنفريد Reinfried لتأمين عبور

قافلة لهم تحمل ودائعهم وأموالهم وذلك مقابل رشوته بمبلغ كبيرة من المال. ولكن الفارس قام بإخبار بلدوين الذى انقض على القافلة واستولى على ما بها من غنائم[٧٩]. وفى الواقع فإن رواية ألبرت هذه فيها مبالغة واضحة ففوشيه دى شارتر ـ وقد ذكر صراحة أنه كان مع الملك الصليبى فى هذه الحملة ـ لم يشر إلى هذه القصة[٨٠]، كما أنها تختلف مع روايتين لابن الأثير وابن القلانسى، فذكر الأول أن عز الملك صاحب صور أرسل أموالا إلى طغتكين أتابك دمشق الذى أرسل إليه طائراً يعلمه بوصوله مما ينفى رواية ألبرت عن اللجوء إلى الفارس الصليبى، أما ابن القلانسى فذكر أنه فى عام ٥٠٦هـ/١١١٢م وصلت أنباء قافلة دمشقية متجهة إلى مصر وذلك عن طريق أحد العرب من بنى زريق الذى وقع بعض أفراد أسرته أسرى لدى الملك الصليبى فدله عليها مقابل إطلاق سراحهم[٨١].

ويشير وليم الصورى إلى أنه أثناء حصار صيدا فى عام ١١١٠م/٥٠٤هـ حاول أهلها رشوة أحد أفراد حاشية الملك بلدوين «ووعدوه بمبلغ كبير من المال وممتلكات واسعة فى المدينة» إذا خلصهم من الملك، ولكن النصارى بها أخبروه بهذه المؤامرة وأعلموه سراً بالأمر فقام بالقبض عليه وتمت محاكمته وحكم عليه بالشنق[٨٢].

ومن أهم المؤثرات التى تركتها الرشوة فى هذه الفترة المبكرة على حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين، مقتل شرف الدين مودود بن ألتونتكين[٨٣] ويذكر متى الزهاوى وابن العبرى أن ظهير الدين طغتكين، أفرج عن قاتل محكوم عليه بالإعدام ووعده «بالحرية والهدايا وخمسمائة قطعة من المال» إذا نجح فى مهمته[٨٤]، ويذكر ألبرت داكس نفس الاتهام ولكنه جعلهم أربعة وعدهم «بالهدايا والوعود الجزيلة»[٨٥] ولكن المصادر اتفقت على أن شخصاً واحداً هو الذى قام بهذه الجريمة الشنعاء وذلك بتحريض من طغتكين الذى خاف أن ينتزع منه مملكته[٨٦] وكان مقتله فى ربيع ثان ٥٠٧هـ/ أكتوبر ١١١٣م.

أما فى شمال الشام فقد حاول الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين الانتقام من بوهمند أمير أنطاكية وذلك عندما وقع الأخير فى قبضة الملك غازى كمشتكين فى أغسطس ١١٠٠م/ رمضان ٤٩٣هـ، وعرض الإمبراطور رشوة قدرها مائتين وستين ألف دينار لتسليمه بوهمند، ولكن الأمراء الصليبيين سارعوا بالتدخل، كما نجح بوهمند فى إقناع غازى بالتحالف معه وأطلق سراحه[٨٧]، وجاء إطلاق سراحه وبالا على المسلمين قد قويت به نفوس أهل أنطاكية، كما وقع الخلف بين الملك غازى وقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم وتفككت بذلك جبهة الأتراك فى آسيا الصغرى[٨٨].

كذلك مارست المدن الشامية فى الشمال دفع الرشوة للصليبيين لإبعاد خطرهم عنها، فقد دفعت حمص رشوة مالية لريموند الصنجيلى فى رجب ٤٩٦هـ/ أبريل ١١٠٣م لكى يفك حصاره عنها، فقبل ذلك بعد أن وصلته أنباء قرب وصول قوات دقاق أتابك دمشق لإنقاذها[٨٩]. وعقب إطلاق سراح بوهمند قام بسلسلة من الإغارات على المدن الشامية مما اضطر كثيراً منها إلى دفع رشوة له لتبعد خطره عنها ولكى يعوض ما دفعه ثمناً لحريته. وحصل من المسلمية ـ الواقعة على طريق حلب وتبعد عنها أحد عشر كيلومتراً ـ على سبعة آلاف دينار وعشرة من الخيول وإطلاق سراح عدد من الأسرى[٩٠]. أما وليم جوردان الذى خلف ريموند الصنجيلى بعد موته فى ٢٨ فبراير ١١٠٥م/١١ جماد آخر ٤٩٨هـ فقد استمر على سياسة سلفه الرامية إلى محاولة الاستيلاء على طرابلس. وفى أثناء حصاره لها قام اثنان من تجارها بخيانة فخر الملك ابن عمار وكانت المدينة تعانى من المجاعة بسبب الحصار الصليبى لها. وكذلك فقد رفضا تقديم العون لابن عمار فى إزالة ذلك الحصار، فحاول رشوة ريموند لإعادتهما ولكنه رفض فأرسل ابن عمار وراءهما من قام باغتيالهما[٩١].

وبالإضافة إلى العوامل التى أدت إلى فشل بوهمند فى حملته ضد بيزنطة فى عام ١١٠٧م/٥٠١هـ يضيف ألبرت داكس عاملا آخر، هو نجاح الكسيوس فى إغراء عدد من قادة جيش بوهمند حيث أفسدت نفوسهم «أموال وهدايا الإمبراطور» فتحولوا عنه وخانوه «وأعمتهم إغراءات الإمبراطور وخطفت أبصارهم كميات الذهب والفضة» وانتهت هذه الحملة بعقد معاهدة ديفول فى عام ١١٠٨م/٥٠٢هـ(٩٢).

لعبت الرشاوى دورًا آخر فى شمال بلاد الشام، فقد أدت إلى قيام تحالف جمع بين نقيضى الصراع. فقد تحالف تانكرد (١١٠٤-١١١٢م) ورضوان حاكم حلب معاً ضد بلدوين سيد الرها وجوسلين صاحب تل باشر وجاولى حاكم الموصل، وعرض جاولى على بلدوين إطلاق «ما بقى عليه من مال المفاداة»(٩٣) كما أطلق الأخير من جانبه «سراح مائة وستين أسيراً مسلمًا كلهم من سواد حلب وكساهم وسيرهم»(٩٤). أما الحلف الأول فنجد أن تانكرد نكث بوعده لرضوان وحاصر الأثارب وعبثًا حاول حليفة رشوته بعشرين ألف دينار لكنه رفض وطالب بثلاثين ألف بخلاف الثياب والخيول وإطلاق سراح جميع من فى حلب من أسرى الصليبيين(٩٥)، وكان ذلك فى عام ١١١٠م/٥٠٤هـ.

انهالت الرشاوى على تانكرد عقب استيلائه على الأثارب، فأخذت العديد من المدن تدفع له الأموال، فقد دفع له ابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار، وعلى الكردى صاحب حماه ألفى دينار(٩٦). ولم يكن أمام العرب من خيار فى تلك الفترة سوى اللجوء إلى الذهب لكبح جماح الفرنج كما يذكر ابن العبرى(٩٧). وفى ٩ محرم ٥٠٥هـ/ ١٨ يوليو ١١١١م توجه شرف الدين مودود صاحب الموصل، والأمير أحمديل الكردى صاحب مراغة فى أذربيجان وغيرهما إلى جهاد الصليبيين، وحاولوا استرداد تل باشر، وعندما أشرفت المدينة على السقوط، لجأ جوسلين إلى استخدام الرشوة

لإنقاذها فذكر ابن القلانسى أنه استمال أحمديل «بمال وهدية»[٩٨]، وأكد ابن العديم ذلك بقوله «فتطارح جوسلين صاحبها على أحمديل الكردى وحمل إليه مالا، وطلب منه الرحيل، فأجابه إلى ذلك» وحسّن أحمديل إلى الأمراء الرحيل عنها فأجابوه لأن أكثر العسكر كان معه ورحلوا إلى حلب[٩٩] كذلك سلم ياروقتاش الخادم متولى أصفهسلارية حلب حصن القبة إلى روجر صاحب أنطاكية (١١١٢-١١١٩م) ورتب مسير القوافل من حلب إلى هناك وأن يؤخذ المكس منهم[١٠٠].

فشلت محاولة جوسلين الثانى أمير الرها وبوهمند الثانى أمير أنطاكية فى استغلال الأوضاع السيئة فى حلب عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود ابن البرسقى. ولكن إنقاذها من ذلك فى عام ١١٢٨م/٥٢١هـ تم بعد رشوة جوسلين «فصانعوه على مال حتى رحل»[١٠١] ويحدد ميخائيل السريانى المبلغ باثنى عشر ألف دينار سنوياً[١٠٢]. ويذكر أيضاً رواية ينفرد بها وذلك عندما تم رشوة بعض الطباخين الذين يعملون لديه وذلك لوضع السم لجوسلين وستة من فرسانه، وبالفعل قاموا بذلك ومات هؤلاء الستة ولكن جوسلين نجا بعد أن أنقذه الأطباء، وتم القبض على هؤلاء الجناة وإعدامهم مع أطفالهم[١٠٣]. ولم تشر المصادر الأخرى إلا إلى إصابة جوسلين بمرض خطير دون تحديد سببه كما ذكر وليم الصورى[١٠٤].

استمر الاهتمام بشمال الشام حيث كان مركز الثقل لظهور حركات الإفاقة الإسلامية بها من ناحية، ولاستمرار ضعف الدولة الفاطمية ومشاكلها فى الجنوب. فقد لقى الأفضل بن شاهنشاه وزير الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى مصرعه على يد جماعة. وتشير الروايات إلى استخدام الرشوة فى قتله، فقد دس عليه الآمر «رجالا وأمرهم بقتله ووعدهم العطاء الجزيل»[١٠٥] «ومالا وإقطاعًا»[١٠٦] وتمت المؤامرة فى رمضان ٥١٥هـ/ ديسمبر ١١٢١م.

وفى إمارة أنطاكية حاولت أليس أرملة بوهمند الثانى الانفراد بحكم الإمارة الصليبية مستخدمة فى ذلك الرشوة لتحقيق هدفها، فقد أرسلت بعد وفاته فى فبراير ١١٣٠م/ ربيع الأول ٥٢٤ هدية إلى زنكى عبارة عن «جواد أبيض مزين بالفضة حتى ساد التناسق فى كل مكان وتم تزيينه بكل دقة» وحمل مبعوثها رسالة معه ولكن تم اكتشاف المؤامرة واعترف بذلك. وسارع والدها الملك بلدوين الثانى إلى هناك لحل هذا الخلاف وتم نفيها إلى منفاها فى اللاذقية وجبلة[١٠٧].

عاودت أليس تمردها مرة أخرى بعد وفاة والدها ورفضت الخضوع لفولك الأنجوى ملك بيت المقدس الجديد(١١٣١-١١٤٤م) وذلك فى صيف عام ١١٣٢م واعتمدت أيضًا فى ذلك على رشوة بعض النبلاء الأقوياء مثل بونز كونت طرابلس (١١١٣-١١٣٧م) فقدمت لهم «هدايا ووعوداً سخية» . ويشير وليم الصورى إلى تلك الشائعات التى راجت حول موقف بونز وقبوله الرشوة لأنه حاول منع الملك الصليبى من التقدم إلى أنطاكية عبر إمارة طرابلس. وعلى الرغم من أن فولك نجح فى دخول أنطاكية إلا أن أليس استمرت فى رشوة بعض النبلاء الذين «أيدوا قضية الأميرة بسبب الهبات السخية التى وزعتها عليهم[١٠٨]. وفى غضون ذلك كان فولك قد أرسل مبعوثًا سريًا لاختيار زوج للأميرة كونستانس ابنة أليس لحل ذلك الصراع، واستقر الرأى على اختيار ريموند بواتييه، وعندما علم روجر ملك صقلية بذلك حاول منع وصوله إلى أنطاكية، وقدم رشاوى لزعماء مدن أبوليا الساحلية لمنع مروره ولكنه استطاع الاحتيال ووصل إلى أنطاكية فى أبريل ١١٣٦م[١٠٩].

ومن أهم العوامل التى أدت إلى فشل حملة الإمبراطور البيزنطى حنا كومنين (١١١٨-١١٤٣م) على بلاد الشام فى عام ١١٣٨م هو قبوله الرشوة من صاحب شيزر أبو العساكر سلطان بن منقذ. ويجمع المؤرخون

الغربيون على قبول الإمبراطور لما عرضه عليه صاحبها من أموال وهدايا ولكنهم اختلفوا حول الدافع لقبولها، فبينما يذكر وليم الصورى أن سلوك الصليبيين أثناء الحملة جعل الإمبراطور يقرر انتهاز أول فرصة للعودة والانسحاب بحملته. وبعد حصوله على الأموال التى دفعها له حاكم شيزر صدرت الأوامر بالرحيل(١١٠). أما المؤرخ البيزنطى كيناموس فيشير إلى أنه عرضت على الإمبراطور البيزنطى رشوة مالية تدفع له فى الحال بالإضافة إلى جزية سنوية ولكنه رفضها فى البداية. ولكن عندما صمدت قلعة شيزر أمامه استقبل السفارة وقبل منهم الأموال وهدايا أخرى قيمة وحصل على وعد بجزية سنوية تدفع له(١١١). أما نقتاس فيقول إن ذلك يرجع إلى أمرين ـ الأول أنه إذا سقطت المدينة فسوف ينسب ذلك إلى الصليبيين، والثانى وصول أنباء عن حصار الرها وتعرضها للخطر فقرر فك الحصار وحصل على هدايا هائلة منها خيول عربية أصيلة ذات أعناق مزينة، وأثوابًا من الحرير المطعم بالذهب ومائدة قيمة مطعمة بالجواهر وصليبًا مزينًا بالرخام الفارسى(١١٢). ويعلل المؤرخ السريانى المجهول السبب فى ذلك حدوث مجاعة فى المعسكر البيزنطى وازدياد المعاناة وكذلك خيانة الفرنج فى إضاعة الوقت بحصار القلعة إلى جانب أن السفارة المرسلة إليه زرعت الشك لديه بأن الفرنج قد ضللوه حينما أحضروه إلى هذا المكان ـ فقرر قبول هداياهم (١١٣).

أما المصادر العربية فلم تشر إلى مسألة الرشوة، وإنما ذكرت أسبابًا أخرى لفشل الحملة وفك الحصار عن شيزر، فأشار ابن الأثير إلى الوقيعة التى أحدثها زنكى بين الجانبين البيزنطى والصليبى «فاستشعر كل من صاحبه»(١١٤) وتجمع بقية المصادر أيضًا على أن السبب يعود إلى وصول إمدادات إلى شيزر فقرر الإمبراطور الرحيل(١١٥)، ويضيف ابن العبرى سببًا آخر هو مهاجمة السلطان مسعود صاحب قونيه لقيليقية وسقوط أذنة فى قبضته فقرر الإمبراطور الرحيل(١١٦).

وفى الثلاثينيات من القرن الثانى عشر الميلادى حدثت تغييرات جذرية فى بلاد الشام، فقد ازدادت قوة عماد الدين زنكى صاحب الموصل وذلك عندما نجح فى ضم حماه وحمص ووضع نصب عينيه الاستيلاء على دمشق نفسها، ومثّل ذلك تهديداً للصليبيين من ناحية ولمعين الدين آنر حاكم دمشق من ناحية أخرى. ودخل الأخير فى تحالف مع فولك ملك بيت المقدس وأصبحت بانياس هى كبش الفداء لهذا التحالف، وعلى الرغم من ادعاء وليم الصورى أن الفرنج قرروا تقديم مساعدة مجانية لأنر خوفاً من زنكى ولإضافة بانياس إلى المملكة الصليبية فإن المصادر العربية تؤكد إرسال هذه الأموال(١١٧). فيذكر ابن القلانسى «والتمسوا على ذلك مالا معيناً، يحمل إليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولونه وقوة ورهاناً تسكن بها نفوسهم، وأجيبوا إلى ذلك، وحصل إليهم المال...»(١١٨). وأكد ابن الأثير وابن واصل أنه «بذل لهم بذولا»(١١٩) وكان تقدير وليم الصورى لذلك هو عشرين ألف قطعة ذهبية شهرياً(١٢٠).

وعندما توجه أنر وفولك لحصار بانياس فى ٢٧ شوال ٥٣٤هـ/١٥ مايو ١١٤٠م تم إرسال مفاوضين سراً لدعوة أهلها للاستسلام. ويذكر وليم الصورى أن حاكم المدينة طلب رشوة ثمناً لذلك وهى تخصيص دخل مناسب له يعتمد عليه، وأن أنر أقنع حلفائه بذلك فتقرر ضمان هذا الدخل من عائدات الحمامات والبساتين والسماح للسكان بحمل أمتعتهم والخروج سالمين منها(١٢١) ويؤكد ابن القلانسى تعويض الوالى الذى كان بها «بما أرضاه من الاقطاع والإحسان»(١٢٢)، وفى المحرم ٥٤٣هـ/ يونيو ١١٤٧م جرت محاولة أخرى لرشوة التونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين وذلك لكى يسلم للملك بلدوين الثالث بصرى وحصن صرخد. ووافق على منحه «تعويضاً جديداً ومناسباً»، غير أن نور الدين محمود نجح فى إفشال هذه الرشوة حيث سارع بحمايتهما وعندما عاد إلى دمشق قبض عليه وأفتى الفقهاء بسمل عينيه(١٢٣).

وفى أنطاكيـة دار صـراع بين ريموند بواتيـيه والبطريرك رالف أوف دمفرنت (١١٣٥-١١٤٠م) حيث تم توجيه الاتهام للأخير بـ «السيمونية» واضطر للذهاب إلى روما للدفاع عن نفسه على الرغم من الصلح المؤقت بينهما. وبينما كان رالف عائداً إلى الأراضى المقدسة تم رشوة أحد المرتزقة فقام بدس السم له فى شراب فمات قبل عودته إلى منصبه [١٢٤] كذلك استمرت الاتهامات إلى البطريرك الجديد إيمرى أوف ليموج (١١٤٠-١١٩٣م) الذى اتهم أيضًا باستخدام السيمونية للوصول إلى منصبه عن طريق قريبه بطرس أرميون الذى لجأ إلى «الحيل والبذل السخى للهدايا» و«أثر عليهم بهبات سخية» ويبدو أن ريموند هو الذى كان وراء هذه الاتهامات عن طريق رشوة المجتمعين فى المجمع الكنسى[١٢٥].

حرص الإمبراطور مانويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م) على استخدام نفس الأسلوب البيزنطى مع قادة الحملة الصليبية الثانية. فانهالت هداياه على كونراد الثالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا[١٢٦]، بل إنه حاول رشوة عدد من قادة الملك الألمانى بالأموال لكى يمتنعوا عن الولاء له[١٢٧] وكذلك فقد أثير موضوع الرشوة بالنسبة للأدلاء البيزنطيين الذين صحبوا القسم الألمانى. ويذكر أودو أوف ديل ووليم الصورى أن مانويل هدف من ذلك القضاء على الإيمان المسيحى والتثبيط من عزيمة الصليبيين [١٢٨]، ويضيف وليم الصورى والمؤرخ السريانى المجهول إتهامًا آخر لمانويل هو رشوته للتركمان[١٢٩]. أما المؤرخ نيقتاس فيترك الأمر معلقًا بعد أن عدد اتهامات كثيرة بقوله «إنه لا يعرف الحقيقة»[١٣٠]. أما عن رشوة التركمان فيذكر أن الأتراك قاموا بمحاربة الألمان بمجرد أن أثارهم الإمبراطور بخطاباته إليهم[١٣١]. وتعلق فريجنيا جينجريك مترجمة كتاب أودو أوف ديل على المادة التاريخية السابقة بأنها من الدرجة الثانية، كما أن وليم الصورى بعيداً عن الأحداث وتستند فى رأيها على خطاب لكونراد أرسله إلى ڤيلبد

أوف كورفى مشيراً إلى أنه هو الذى اختار الطريق الذى وقعت فيه الكارثة للألمان، كما أنه لم يشر إلى رحيل الأدلاء عن الحملة مما يجعلها شيئًا ثانويًا[١٣٢]، غير أنه لم يذكر فى خطابه موقف التركمان وهل تمت رشوتهم أم لا مما يجعل المسألة بحاجة للبحث والدراسة.

أما أحداث الحملة نفسها بعد أن وصلت الجموع الصليبية إلى عكا فى ٢٤ يونيو ١١٤٨م/٤ صفر ٥٤٣هـ فكانت اتخاذ أغرب قرار وهو مهاجمة دمشق حليفة الصليبيين آنذاك. وأجمعت المصادر الغربية على توجيه الاتهام بالرشوة لعدد من قادتها مما أدى إلى فشلها. وتراوحت الاتهامات ما بين بلدوين الثالث الملك الصليبى نفسه، وإيلى ناندوس سيد طبرية وفيبرى كونت فلاندرز وريموند بواتييه أمير أنطاكية وعدد آخر من القادة، ويذكر وليم الصورى أن الدمشقيين كانوا يعرفون شره وجشع الصليبيين فعملوا على إقناع عدد منهم بتحويل القوات الصليبية إلى الجهة المقابلة التى حسنوا لهم أنها يمكن الاستيلاء على دمشق عن طريقها، ولكن تم اكتشاف الخدعة التى وقعوا فيها وأن المكان غير صالح لذلك. وكان ممن وجه وليم اتهامه إليهم بتلقى الرشوة هو ثييرى كونت فلاندرز الذى اجتمع بالملكين كل على حده فوعداه بتسليم دمشق له وعندما علم عدد من القادة بذلك لجأوا إلى الخيانة بدلا من تسليم دمشق إليه. ويستمر وليم فى روايته مشيراً إلى أن فريقًا آخر وجه الاتهام بالرشوة إلى ريموند بواتييه الذى استمال عدداً من قادة الحملة لكى تفشل ويعود لويس السابع خالى الوفاض[١٣٣]. وأخيراً يوجه وليم اتهامه إلى عدد من القادة ـ دون ذكر أسمائهم ـ بأنهم قبلوا المال لإنزال الكارثة بالحملة وإفشالها[١٣٤].

وفى الواقع فإن ما سجله وليم الصورى عن هذه الاتهامات لم يكن فى زمن الحملة إنما جاء بعد وقت طويل من فشلها كما يذكر ذلك، ويصعب قبول اتهامه لريموند سيد أنطاكية وذلك لأنه لم يكن موجوداً مع الحملة،

كما أن الحملة أثناء وجودها فى أنطاكية لم تكن قد اتخذت قراراً بعد بمهاجمة دمشق ـ كما أن توجيه الاتهام لعدد من القادة ـ الذين لم يحددهم وليم ـ بعيداً عن الواقع لأن الذى اتخذ القرار بتعديل الهجوم هو الملك الصليبى وليس هؤلاء القادة، كذلك لم يتهم وليم ثييرى كونت الفلاندرز بقبول الرشوة مباشرة، وإذا كان الأمراء الصليبيون قد تقاعسوا بسببه، فإن جاى سيد بيروت رشح لتولى إمارة دمشق أيضاً(١٣٥).

على أية حال فإن الاتهام الثانى بقبول الرشوة يوجهه ميخائيل السريانى إلى كل من الملك بلدوين الثالث وإيلى ناندوس سيد طبرية. ويذكر أن الدماشقة خوفوه من الملك الألمانى بأنه لن يتركه على عرشه وعرضوا عليه رشوة مقدارها مائتى ألف دينار، ونصف المبلغ لسيد طبرية، وفيما بعد اكتشفوا أن هذا الذهب كان مزيفًا وتخبط الخونة فيما بينهم(١٣٦). ويذكر المؤرخ السريانى المجهول نفس الرواية مع تعديل عليها فيشير إلى أن الملك الصليبى هو الذى أرسل للدماشقة يستفسر منهم ماذا سيدفعون له لو جعل الحملة تعدل من وجهتها بعيداً لأنه كان جار لدمشق ويعرفها جيداً، فوعدوه بمائة ألف دينار ذهب، وحينئذ نصح الملوك بتعديل مواقعهم وأدركوا بعد ذلك خيانته فغضبوا وتركوا حصارهم لدمشق عائدين إلى عكا(١٣٧). أما ابن العبرى فيذكر أن معين الدين أنر أرسل سراً خطاباً إلى ملك بيت المقدس يعرض عليه مائتى ألف دينار مغطاة بالذهب المصرى، وخمسين ألف إلى سيد طبرية مصنوعة من الذهب المغشوش. ويقارن ذلك مع خمس من المخطوطات العربية فلم يجد هذه الرواية التى أوردها فقط ميخائيل السريانى كما يذكر(١٣٨).

وثمة اتهام آخر يوجهه برنارد متولى الخزانة وحولية أرنول إلى جماعتى الفرسان الاسبتارية والداوية بأنهم تعرضوا للخديعة وتلقوا هذه الرشوة وأخذوا البيزنطات المزيفة(١٣٩). ويشير وليم الصورى مرة أخرى إلى رواية الرشوة دون أن يحدد من قبلهم ويذكر أنها وجدت «مزيفة ولا تساوى شيئاً»(١٤٠).

وفى الحقيقة أجمعت هذه المصادر على وقوع حادثة الرشوة من ناحية وعلى أنها وجدت مزيفة من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن مصادرنا العربية لم تشر إليها، إلا أنها ذكرت حدوث اتصالات بين أنر حاكم دمشق وبين الصليبيين خاصة «إفرنج الشام» أو «الساحلية» الذين أجابوه إلى التخلى عن ملك الألمان بعد خوفهم من وصول نور الدين محمود وعرض عليهم اعطاءهم بانياس بدلا من دمشق، ولا نستبعد أن يكون قد تم أثناء ذلك تقديم الرشوة المشار إليها[١٤١]. أما تحديد الشخص الذى قبل هذه الرشوة فلا شك أن الاتهام يوجه إلى الملك الصليبى الذى تقع عليه مسئولية تحويل القوات الألمانية والفرنسية إلى الجهة الأخرى التى لم يتوفر بها الماء والمؤن، مما أدى إلى فشل الحملة. وكذلك إلى إيلى ناندوس سيد طبرية أو الجليل الذى كان من القواد الرئيسيين فى الجيش الصليبى وكان يهمه ألا يفقد صداقة دمشق كما أن ضم بانياس للمملكة سوف يوفر حماية لإمارته من جهة الشمال[١٤٢].

لعبت الرشوة دوراً هامًا فى القضاء على بقايا إمارة الرها وحاكمها جوسلين، فقد صمم نور الدين محمود على الانتقام من حاكمها بعد أن سخر منه عند السلطان مسعود بن قلج أرسلان والد زوجته. فأغرى نور الدين جماعة من التركان «ووعدهم الوعود الجميلة»[١٤٣] «وبذل لهم الرغائب»[١٤٤] لأسره. ووضعوا فى طريقه امرأة وتمكنوا من أسره، وحاول جوسلين رشوتهم لإطلاق سراحه ولكن تم إبلاغ نور الدين الذى أرسل من قبض عليه وأرسله إلى حلب [١٤٥] وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه «كان شيطانًا عاتيًا شديدًا على المسلمين قاسى القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره»[١٤٦].

أما بقايا إمارة الرها فقد تقاسمها السلطان مسعود السلجوقى ونور الدين محمود والأراتقة. كما باعت بياتريس أرملة جوسلين بعضًا منها للإمبراطور

البيزنطى مانويل بعد أن وافق الملك بلدوين الثالث على هذه الصفقة. ولم تحافظ بياتريس إلا على قلعة هروم جلا أو قلعة الروم لحين قدوم ابنها. وعرضت على البطريرك الأرمينى جرايجوار الثالث رشوة مالية للحفاظ عليها فقبل ذلك وأصبحت مركزاً للبطريركية الأرمينية بعد أن قام قرياقاريوس جاثليق القلعة بدفع رشوة للخليفة العباسى مكنته من استرداد أرض أرمينية. كما أنها ظلت فى قبضة الأرمن وأصبت بمثابة «الشجى فى الحلق، والغلة فى الصدر»(١٤٧).

وعلى الرغم من أن قوانين الداوية حرمت الحصول على الرشوة، فقد فضلوا الحصول على ستين ألف دينار من أخت الخليفة الظافر الذى قتل على يد الوزير عباس وابنه نصر وفرا إلى بلاد الشام. وأرسلت وراءهما «تبذل لهم الأموال»(١٤٨) وإباحة جميع ما معهم إذا قبضوا عليهما وأعادوهما إلى القاهرة. وكانا قد أخذا معهما ما قدرا عليه من المال والجواهر(١٤٩). وقتل عباس وتم أسر نصر حيث أعيد إلى القاهرة وتم قتله على أيدى الجوارى وهو محبوس فى قفص(١٥٠).

استخدم نور الدين محمود الرشوة لتحقيق التوازن فى صراعه مع الصليبيين خاصة بعد نجاحهم فى الاستيلاء على عسقلان آخر المعاقل الفاطمية على ساحل الشام وذلك فى عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ فعمل على ضم دمشق للوصول إلى بلاد الفرنج ولسياسة مجير الدين آبق المتحالفة مع الفرنج ضده. فعمل على استمالته أولا «وواصله بالهدايا والتحف حتى وثق به» ثم راسل أحداث دمشق «ووعدهم الإحسان إليهم واستمالهم إليه»(١٥١)، ونجح بذلك فى ضمه لدمشق فى المحرم ٥٤٩هـ/مارس ١١٥٤م، مما كان له أكبر الأثر على الصراع الصليبى الإسلامى فى العقود التالية.

ومرة أخرى يثار الاتهام بقبول رشوة فى المجتمع الصليبى ولكن هذه

المرة على مستوى أعلى، فقد اتهم وليم الصورى الكرادلة فى روما بأنهم «ضللتهم الهبات» فى أثناء وجود البطريرك فولشر ومعه حشد كبير من رجال الدين الذين سافروا فى عام ١١٥٥م/٥٥٠هـ لعرض صراعهم مع جماعة الفرسان الاسبتارية(١٥٢). ويوجه جيرهوه أوف ريجنزبرج اتهامه إلى البابا أدريان الرابع بأنه تلقى ثلثمائة مارك من الفضة الخالصة لإصدار الامتيازات البابوية للاسبتارية(١٥٣).

يعاود وليم توجيه اتهامه للبابا أدريان الرابع بقبول الرشوة وذلك من أملريك (عمورى) بطريرك بيت المقدس الجديد فى نوفمبر ١١٥٧م، فعلى الرغم من معارضة رئيس أساقفة قيسارية وأسقف بيت لحم لذلك، فقد أرسل البابا مع فردريك أسقف عكا طيلسان الحبرية Pallium الذى كان قد سافر إلى روما ويتهمه وليم بأنه الذى استخدم «الهبات السخية» للحصول على موافقة البابوية على هذا القرار(١٥٤).

وفى عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ نجح نجم الدين أيوب فى الدفاع عن دمشق عندما تعرضت لهجوم من الملك بلدوين الثالث وذلك بتقديم رشوة مالية من أربعة آلاف قطعة من الذهب، وكذلك إطلاق سراح ستة من الفرسان الصليبيين أسرى مقابل هدنة مدتها ثلاثة أشهر. كما تمكن من رشوة عدد آخر من المحيطين بالملك لإقناعه بالموافقة على هذا العرض، وبالفعل وافق الملك على ذلك وانسحب(١٥٥). وعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تشر إلى ذلك إلا أن رواية وليم الصورى تبدو صحيحة، فقد كان نور الدين محمود مشغولا آنذاك فى مهاجمة أملاك سلطان قونيه، أما أسد الدين شيركوه الذى كان قد عهد إليه نور الدين بدمشق منذ ضمها ـ كان يؤدى فريضة الحج، كما أن نجم الدين كان بدمشق عندما قدم إليها العام السابق صحبة نور الدين (١٥٦) ومن هنا يبدو لنا كيف أسهمت الرشوة فى الحفاظ على واحدة من أهم المعاقل وإدراك نجم الدين لجشع هؤلاء القادة.

وثمة حادثة أخرى وقعت ما بين عامى ١١٦٥م، ١١٦٦م وذلك عندما سقطت قلعة تسمى بكهف صور واقعة بالقرب من صيدا وذلك فى قبضة أسد الدين شيركوه عندما نجح فى رشوة حراس هذه القلعة ـ ويؤكد وليم الصورى ذلك بقوله «وإن ذلك كان واضحًا»، ولكن تم القبض فيما بعد على قائد هذه المجموعة وشنقه فى صيدا(١٥٧). وبالإضافة إلى ثبوت الرشوة كما ذكر وليم فإن إشارته الثانية أهم فى موضوعنا ولكن للأسف لم يعط لنا أية تفاصيل عن ذلك. والتساؤل هو هل كانت «عقوبة الشنق» بسبب تلقى الرشوة أم بسبب سقوط القلعة؟!

ودون الدخول فى تفاصيل المرحلة التاريخية التالية. ونقصد الصراع حول امتلاك مصر بين نور الدين محمود وبين ملوك بيت المقدس فإننا نلاحظ أن العوامل المادية واستخدام الرشاوى قد حسم كثيراً من أحداث هذه المرحلة، ففى عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ قام شاور برشوة الصليبيين بتقديم أربعمائة ألف قطعة ذهبية يدفع نصفها فوراً ويسدد الباقى بعد إتمام الاتفاقية(١٥٨). كذلك حاول شاور أن يغرى التركمان الذين كانوا فى جيش أسد الدين شيركوه الذى قدم لنجدة ضرغام ـ «وأفسدهم بالذهب»(١٥٩) لكى يتخلو عن أسد الدين ـ وربما كان لذلك أثره عليه «فلما راسلوه فى المهادنة أجاب وطلب منهم عوض ما غرمه»(١٦٠). ويشير صاحب البستان الجامع إلى أنه عندما تم الصلح بين صلاح الدين وعمورى بغير علم من شاور ورحل إلى عند الملك الصليبى ونظر إلى صلاح الدين جالسًا بجانبه فقال له سلمه إلىَّ وأعطيك كل سنة خمسين ألف دينار ـ ولكنه رفض وقال حلفت له(١٦١).

وفى أثناء وجود الصليبيين فى مصر ضغط نور الدين عليهم بمهاجمة بانياس مستغلا وجود صاحبها همفرى الثانى كافل المملكة فى مصر وليجبر الملك الصليبى على الانسحاب منها. ويوجه وليم الصورى اتهامًا إلى ولتر

دى فوسنوى وشماس يدعى روجر بأنهما تلقيا رشوة من نور الدين مقابل الاستسلام. وخشيا على نفسيهما أن يتعرضا للقتل بعد عودة همفرى[١٦٢]. ولا ندرى مرة أخرى هل كان ذلك عقوبة تلقى الرشوة كما سبقت الإشارة إلى شنق قائد كهف صور. وعلى الرغم من إشارة المصادر إلى أن بانياس سقطت فى عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ فى قبضة نور الدين، إلا أن الغارة الثانية فى عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ كانت ضد بقايا بانياس وخاصة قلعة هونين أو Chatu Neuf وهو ما ذكره ابن الأثير وأبو شامة فى شوال ٥٦٢هـ/ يوليو ١١٦٧م[١٦٣].

وفى حملة عمورى الثالثة إلى مصر فى صفر ٥٦٤هـ/ نوفمبر ١١٦٨م عمل شاور على استخدام الرشوة لإفسادها. فقد ارتاع لما فعله الملك الصليبى فى بلبيس وقرر استخدام الأموال لمصانعة عمورى فى الوقت الذى أرسلت استغاثات إلى نور الدين لإرسال قواته مرة أخرى. وبالفعل وعده شاور بدفع مبلغ ضخم قدره البعض بمليونى قطعة ذهبية إذا التزم بعدم الهجوم على القاهرة وإطلاق سراح الأسرى. ويتهم وليم الصورى الملك الصليبى بالجشع لأنه «كان يفضل يأخذ رشوة كبيرة وينسحب» كما أشار إلى أن ميلون دى بلانسى كان وراء قرار الملك بقبول هذه الأموال لأنه «كان على بينة تامة بجشع الملك ونهمه إلى تحقيق الثراء». وعلى الرغم من مطالبة الغالبية باللجوء إلى السيف لكن الملك وفريقه طالبوا بعكس ذلك أى قبول الرشوة المقدمة من شاور. وانتصرت رغباته فى نهاية الأمر ونفذت إرادتهم، ودفع شاور على الفور مائة ألف قطعة ذهبية، وأخذ يماطل فى دفع الباقى متعللا بصعوبة جمع مبلغ ضخم مثل هذا لأن موارد المملكة المتاحة لا تمكنه من ذلك[١٦٤].

وتتفق المصادر العربية مع رواية وليم الصورى بشأن مماطلة شاور للفرنج، وأشار أبو شامة إلى أن الملك عمورى برر موقفه بأن أخذ «المال للتقوى به

ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ولا غيره»(١٦٥). ويؤكد أيضًا نقلا عن العماد الكاتب أن شاور استخدم الرشوة «حيلة وخداعًا له وإطماعًا» وأقام منتظرًا ودام متحيرًا وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم فى كل حين مالا ويطلب منهم إمهالا ومازال يعطيهم ويستميلهم حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله»(١٦٦). وهكذا استطاع شاور أن ينقذ البلاد باستخدام الرشوة ونجح فى التلاعب بهم لعلمه مدى جشعهم وحبهم للمال ويعترف وليم الصورى بأن «جشع هؤلاء الرجال قد جلب علينا جميع هذه الكوارث، كما أن نهمه ـ وهو أصل الشر ـ قد شوه الصفاء التى كانت السماء قد منحتنا إياه»(١٦٧).

على الرغم من فشل عمورى فى حملاته السابقة إلا أنه كان لا يزال يأمل فى الاستيلاء على مصر واستعان هذه المرة بحملة بيزنطية صليبية مشتركة لتنفيذ ذلك، ولسنا هنا بمعرض الحديث عن هذه الحملة التى وقعت فى عام ١١٦٩م/٥٦٦هـ، وإنما سوف نتناول أحد العوامل الهامة التى أدت إلى فشلها ألا وهو استخدام الرشوة. ويعترف وليم الصورى عند تحليله لهذه العوامل بأن هناك «خيانة» أو «مجرد إهمال واستخفاف» قد حدث أثناء محاولة اقتحام دمياط. أو أن الذين كانوا يتولون القيادة يتصرفون «بنية خائنة»(١٦٨). ثم أشار بعد ذلك أنه أجرى تحقيقًا جادًا ودقيقًا حول الملك وبعض الرجال المهمين فى المملكة عن السبب فى فشل حملة ضخمة مثل هذه وأنه استمع بعد عودته من روما لروايات شديدة الاختلاف ولكنه فى النهاية يلقى بالتبعة على البيزنطيين لأنهم لم يرسلوا الأموال الكافية لدعم الجيش، ثم يعلق السبب فى النهاية على نقص الإمكانيات(١٦٩)

أما المؤرخ البيزنطى نيقتاس فيشير إلى الملك الصليبى عمورى بأصابع الاتهام ويتهكم عند الحديث عن السبب فى التخاذل الذى حدث أمام دمياط مشيرًا أنه هل كان بسبب أن وضع المصريون له شرابًا سحريًا جعله

يعلق درعه ويضع سيفه فى غمده ويغرز سن رمحه المدبب فى الأرض؟ أم أنه غير رأيه وسحرته الفضة وسد الذهب أذنيه فأصمه؟[١٧٠]، ويوجه كيناموس اتهاماً غير مباشراً إلى الملك الصليبى بقوله «وهناك زعم بأن هؤلاء الذين داخل «دمياط» رشوا الملك بالأموال»[١٧١] ولا تخلو عبارات ميخائيل السريانى من اتهام غير مباشر للملك الصليبى بتلقى الرشوة، فذكر أن المصريين قاموا بدفع الأموال التى كانت للملك وتعهدوا بأنهم سوف يستمرون فى ذلك وأعطوه بعض الرهائن لأن يوسف (صلاح الدين) لم يكن لديه القدرة الكافية لطرد الفرنج[١٧٢].

ومن خلال الروايات السابقة نجد أن الاتهام وجه للملك عمورى بشأن محاولاته لإفساد الحملة وذلك بتلقيه الرشوة. وعلى الرغم من إشارة وليم الصورى إلى ذلك إلا أنه لم يذكر نتيجة بحثه الدقيق، ولكن المصادر اليونانية والسريانية أجمعت على ذلك، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يفضل فيها عمورى الحصول على المال والعودة بقواته كما سبق فى حملته الثالثة. أما مصادرنا العربية فلم تشر إلى رشوة الملك الصليبى اللهم إلا عبارة أوردها أبو شامة حيث ذكر أن الخليفة الفاطمى العاضد أرسل لصلاح الدين مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب والتى ربما استخدم جزءً منها فى رشوة الملك الصليبى[١٧٣].

لجأ الصليبيون إلى محاولة جديدة للتخلص من صلاح الدين الأيوبى وذلك عندما وافقوا على الاشتراك فى مؤامرة الشيعة ضده. كما انضم إليهم وليم الثانى ملك صقلية والحشيشية. وجرت هذه المؤامرة فى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ، ووصل رسول من قبل الصليبيين فى الوقت الذى أغرى به صلاح الدين من كان يأتيه بخبره واتصالاته مع المتآمرين. وقبل ذلك كان صلاح الدين قد نجح عن طريق رشوة أحد أطرافها «بالدور والعقار وكل ما له من الموجود والمذخور وبذل له صلاح الدين كل ما طلبه»[١٧٤] وانتهت هذه المؤامرة بالفشل.

حاول الملك عمورى استغلال وفاة نور الدين محمود فى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ وذلك بالاستيلاء على بانياس ولكن حاميتها لجأت إلى رشوة الملك الصليبى ولكنه رفض فى البداية وظل محاصراً لها خمسة عشر يومًا وأخيراً وافق على قبول المعروض عليه وإطلاق سراح عشرين أسيراً صليبياً[١٧٥] أما المصادر العربية فقد أكدت هذه الرواية ـ فذكر ابن الأثير أن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صالح عمورى «على شىء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين»[١٧٦]، ويؤكد سبط ابن الجوزى أخذ عمورى للمال قبل رحيله[١٧٧] ولكن صلاح الدين اعتبر ذلك نوعًا من أنواع الاستسلام. «فبلغنى حديث الهدية المؤذن بذل الإسلام وشين شريعة المصطفى ﷺ»[١٧٨]، وكان صلاح الدين يرغب فى ضم بانياس ليصير له طريق إلى بلاد الشام ويمتلك البلاد ولكن استخدام ابن المقدم الرشوة لإنقاذ بانياس أضاع عليه تلك الفرصة.

أدرك صلاح الدين الخطر المحدق بأملاك سيده نور الدين عقب وفاته من ناحية انقسام الأمراء، وخطر الفرنج من ناحية أخرى. وحرص على عدم إظهار نواياه فعمل على استغلال اسم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين مؤقتاً[١٧٩] وعندما قام بحصار حمص ـ التابعة آنذاك للأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ـ ذكر وليم الصورى أن المحاصرين أرسلوا إلى ريموند الثالث كونت طرابلس والوصى على المملكة الصليبية آنذاك ووعده بـ «مكافأة لائقة»[١٨٠] ونجح صلاح الدين فى ضمها فى جماد أول ٥٧٠هـ/نوفمبر ١١٧٤م غير أن قلعتها استعصت عليه فتركها مؤقتًا وتوجه إلى حماه ثم حلب. أما المصادر العربية فقد اختلفت فيمن استدعى الفرنج وقدم لهم الرشوة، فذكر ابن أبى طىء أن ذلك تم بعد فشلهم فى الاستعانة بالحشيشية للتخلص من صلاح الدين فكاتبوا القمص صاحب طرابلس[١٨١]، أما ابن الأثير فيشير إلى أن ذلك تم بعد حصار صلاح الدين

لحلب فسار إلى حمص[١٨٢]. وتبدو رواية وليم الصورى أقرب إلى الصحة لأن الصليبيين أدركوا أن خروج صلاح الدين إلى الشام سوف يلحق بهم الضرر ويؤثر على موازين الصراع بين الجانبين. وعندما تقدم إلى حمص واستنجد أهلها بهم تحركوا على الفور فى الوقت الذى كان فيه صلاح الدين فى حلب فحاول الحلبيون أيضًا استخدام الرشوة للتخلص منه، وعندما وصلت قوات ريموند إلى حمص لإنقاذها عاد صلاح الدين وتمكن من الاستيلاء على قلعتها فى ٢١ شعبان ٥٧٠هـ/١٨ مارس ١١٧٥م[١٨٣].

وفى أثناء الأحداث السابقة أرسل الحلبيون إلى مقدم الإسماعيلية وعرضوا على رشوة «أعطوهم ضياعًا ومالا» إذا قام بالتخلص من صلاح الدين، ولكن المؤامرة تكشفت عندما عرفهم ناصر الدين خمارتكين وأسرع بإبلاغ صلاح الدين حيث تم القبض عليهم عند خيمته[١٨٤]، وكادت الرشوة أن تحقق هدفها فى هذه المرحلة الحاسمة من جهاد صلاح الدين لولا لطف الله عزّ وجل.

وفى خريف عام ١١٧٧م/٥٧٢هـ تعرضت حارم ذات الأهمية الاستراتيجية لكل من المسلمين والصليبيين لهجوم صليبى وذلك قبل حملة فيليب كونت فلاندرز، ويذكر ابن العديم أن سبب هذا يرجع إلى أن سعد الدين كمشتكين صاحب حصن حارم قرر أن يبيعه «بمال وفير» إلى الفرنج، ولكن الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين نجح فى ردهم بعد أن «بذل لهم مالا» وهددهم بتسليمها إلى صلاح الدين[١٨٥]. ولكن حارم لم تسلم من هجوم صليبى آخر ففى ١٤ نوفمبر ١١٧٧م/ ٢٠ جماد أول ٥٧٣هـ استمر حصارهم لمدة أربعة أيام لمدينة حماة ولكن صاحبها شهاب الدين محمود نجح فى الزود عنها وردهم، فتوجهت القوات الصليبية بعدها إلى حارم لحصارها. وعندما وصلت هذه الأنباء قرر صلاح الدين الخروج على الرغم مما كان قد لحق به فى نوبة الرملة. وعلى الرغم من أن

الصليبيين كادوا يستولون على حارم إلا أن عوامل مختلفة أسهمت فى فشلهم ومن بين ذلك استخدام الرشوة معهم، فقد اتفقت المصادر العربية واللاتينية على قبولهم لأموال بالإضافة إلى اطلاق سراح عدد من الفرسان. يقول العماد الكاتب «فتنازلوا عن النزال، بما قرروه من قطيعة المال، وعدة من الأسارى فرسان القتال»[١٨٦] وحدد ابن العديم ذلك «بمقدار ما أنفقوا مدة حصارهم لهم»[١٨٧]، أما وليم الصورى فيذكر أن أمير انطاكية «قبل من المحاصرين مبلغًا من المال لا نعرف مقداره، ورفع الحصار»[١٨٨]. أما أرنول فيلقى المسئولية على كونت فلاندرز، وآخرون على أمير انطاكية وطرابلس[١٨٩]، ومهما كان الشخص الذى قبل تلك الرشوة إلا أنها لاشك قد نجحت فى إنهاء واحدة من أهم الحملات الصليبية آنذاك لأن صلاح الدين كان يعانى من آثار هزيمة الرملة السابقة [١٩٠]، وعلى الرغم من ذلك فإن صلاح الدين وجه اللوم إلى أخيه تورانشاه عندما صانع الفرنج بالمال وقال له «أنت مشغول باللعب وتضييع أموال المسلمين»[١٩١] غير أن العماد الكاتب برر استخدام هذه الأموال وأنها كانت سببًا فى «ما أمنت به البلاد من مضراتهم وسلمت به الغلات من غاراتهم» [١٩٢]. أما وليم الصورى فلم يشر إلى قبولهم للرشوة وذلك لأن الصليبيين حصلوا على غنائم كثيرة فى هذه الوقعة وبالتالى لم يحاول أن يبرر الحادثة[١٩٣].

عندما علم الفرنج بخروج صلاح الدين إلى بلاد الشام فى عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م قرروا الخروج لاعتراضه، واستغل الملك المنصور عز الدين فرخشاه ذلك فقام بالإغارة على بلادهم الخالية، ونجح فى ضم حصن حبيبس جلدك من أعمال طبرية على الطرف الجنوبى لنهر اليرموك. وكان منه على المسلمين أذى شديد[١٩٤]. ويوجه وليم الصورى اتهامًا إلى حامية الحصن والتى كانت من السريان بأنها سلمته «مقابل مبلغ من المال»[١٩٥]. وتم توجيه اللوم إلى فولك صاحب طبرية الذى عين مثل هؤلاء فى موقع

هام مثل هذا[١٩٦]. وبعد نجاح صاحب طبرية فرخشاه فى ذلك تمكن من اللقاء بصلاح الدين وتوجها معًا إلى دمشق حيث وصلاها فى صفر ٥٧٨هـ/ يونيو ١١٨٢م[١٩٧].

عمل صلاح الدين على توحيد الجبهة الإسلامية وأراد أن يستغل الانقسام الموجود بين عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وأخيه عماد الدين زنكى صاحب حلب. ويعترف وليم الصورى ببراعة صلاح الدين فى التفكير عندما اعتقد الجميع أنه سوف يذهب إلى حلب لكنه عبر الفرات لإخضاع عدد من المدن يتيح له بعدها السيطرة على الموصل. ويوجه وليم اتهامه إلى أن هؤلاء الأمراء تلقوا رشاوى بعد أن أغراهم صلاح الدين «بسخائه الوافر» واستلم قلاعهم ونجح فى كسب ولائهم لنفسه[١٩٨]. وفى الواقع أن صلاح الدين لجأ إلى ضمان ولاء هذه البلدان بوسائل شتى، فبذل البذول لهم لنصرته[١٩٩]، وأعفى بعضًا منها من المكوس والضرائب، وبذل العدل الواسع والإحسان إلى أهلها، «وسيرت هدايا وتحف وعطايا»[٢٠٠]، وكان صلاح الدين مدركًا لأهمية الأموال فى حملته هذه فأمر «بحمل ما هنالك من الأموال فكلما فتحت البلاد أبوابها قد فتحت المطامع أفواهها». ويذكر وليم أيضًا أن الكرم والسخاء كان أكثر الوسائل لجذب العقول «وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء خاصة عندما يأتى من الأمراء»[٢٠١].

وفى رسالة لصلاح الدين أرسلها إلى الخليفة العباسى اتهم المواصلة بأنهم عقدوا مع الصليبيين «عقد أشهده من هو حاضره ونقله إلى من سمعه من هو ناظره وكان عقدهم إحدى عشرة والمستقر لهم فى كل سنة عشرة آلاف دينار على أن تسلم ثغور المسلمين إلى الكفار منها بانياس وشقيف تيرون وحبيس جلدك وأسارى الفرنج فى كل بلدة بأيديهم وفى كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة الفرنج»[٢٠٢]. وفى الواقع يجب التريث عند

نص هذا الخطاب، فوليم الصورى لم يشر إليها على الرغم من اطلاعه على هذه الحملات، كما أنه إذا كان الهدف كما ذكر صلاح الدين فى رسالته شغله من جانب والصليبيين من جانب آخر، فقد أكد وليم أن تحركاتهم ضد دمشق والمناطق الأخرى أثناء وجود صلاح الدين كانت «دون سبب واضح»، بل إنها ربما كانت رداً على احتقار صلاح الدين لهم، لأنه رحل «دون الدخول فى هدنة أو معاهدة مع الملك»(٢٠٣). وتؤكد المصادر العربية نية صلاح الدين المسبقة لضم حلب والموصل وغيرهما، فقد وصلته استغاثة من بعض الأمراء «فقد أنهى إليه من أغراه بها وحث عزمه فحث على طلبها»(٢٠٤).

وكان ذلك بعد عودته من طبرية فى ١٤ من ربيع أول ٥٧٨هـ/١٨ يوليو ١١٨٢م. وأورد أبو شامة ووليم الصورى استعداده لذلك، ولكن يبدو أن الأمر اختلف بعد وصول الأسطول المصرى إلى بيروت فى ربيع ثان/ أغسطس من نفس العام، فقد وصل إليه خطاب مظفر الدين كوكبورى ابن زين الدين مقطع حران يخبره بعبور الفرات لضم المدن السابقة بدلا من إضاعة الوقت أمام حلب أو الموصل(٢٠٥) ويذكر ابن شداد أنه حاصر حلب لمدة ثلاثة أيام فى ١٨ جماد أول/ ١٩ سبتمبر ثم عدل عن ذلك طالبًا الفرات، وأثناء ذلك أرسل صلاح الدين الخطاب المشار إليه أثناء وجوده عند البيرة (٢٠٦). وربما أراد صلاح الدين أن يوجد عذر عند حصاره للموصل بعد أن قام المواصلة بإرسال مبعوث إلى الخليفة العباسى لنجدتهم(٢٠٧).

استمر صلاح الدين فى محاولاته لحصار الصليبيين مستخدمًا فى ذلك كافة الوسائل لتحقيق هدفه، فقد استخدم الرشوة أو الهدايا مع بعض منهم للحصول على معلومات من ناحية، وإحداث الوقيعة فيما بينهم من ناحية أخرى(٢٠٨)، ومن بين هؤلاء كانت سيبلا زوجة بوهمند الثالث أمير أنطاكية فقد كان السلطان «يكرمها لذلك ويهدى إليها أنفس الهدايا»، بل

إنه أطلق لها أقارب وقعوا فى الأسر بعد سقوط حصن برزيه فى قبضته فى عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م[٢٠٩] . ويشير رانسيمان أن ما ثار من مشاكل حولها فى أنطاكية لكونها الزوجة الثانية لبوهمند، يرجع أساسًا إلى كراهية النبلاء لصلتها بصلاح الدين حيث «كانت تراسله وتعلمه بالأمور التى تؤثر»[٢١٠]، وكان ذلك مثال من ضمن أمثلة عديدة استخدمها صلاح الدين لإحداث الفرقة بينهم ولاشك أن ذلك ترك أثره عليهم.

وفى السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ/ الثانى من أكتوبر ١١٨٧ جاءت نهاية هذه المملكة الصليبية التى اتخذت من القدس حاضرة لها. وانفرد تاريخ بطاركة الإسكندرية بأن الأرثوذكس الموجودين فى داخلها تآمروا مع صلاح الدين للسماح له بدخولها. ويذكر أن زعيمهم يوسف بابيط وثق فيه صلاح الدين واتخذه مستشاراً له فى معاملاته مع الفرنج[٢١١]. وفى الواقع فإن المصادر العربية أو غير العربية لم تشر إلى هذه الرواية، وإنما أشارت فقط إلى أن صلاح الدين سمح للنصارى ـ الذين ليسوا من الفرنج ـ بالبقاء فى مساكنهم مقابل دفعهم للجزية المقررة عليهم[٢١٢] «وأقر بأيديهم القمامة (كنيسة القيامة) وعينوا أماكن يزورونها»[٢١٣]. أما السيوطى فيذكر أنهم دفعوا أموالا للسماح لهم بالبقاء[٢١٤]. ومن خلال هذه الروايات يتبين أن هؤلاء النصارى لو قدموا المساعدة لصلاح الدين لدفع لهم ثمن ذلك ولكن لم نجد ذلك فى المصادر المتاحة بين أيدينا.

وعقب الاتفاق الذى تم بين صلاح الدين والصليبيين للسماح لهم بالخروج من القدس والذى بموجبه تم الاتفاق على أن يدفع الرجل عشرة دنانير والمرأة خمسة ودينار للطفل. ورتب صلاح الدين على الأبواب من يقومون بجمع هذه الأموال، ولكن لم يحدث التزام بذلك. ويعطى لنا العماد الكاتب وصفاً رائعًا لذلك بقوله:

«ولو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حظه لكن تم التفريط وعم التخليط فكل من رشا مشى وتنكب مناهج الرشد بالرشا. فمنهم من أدلى من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفيًا فى الرحال ومنهم من غيرت لبسته فخرج مخفيًا بزى الجند ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد»(٢١٥).

الخاتمـــــة

تساقطت المدن والقلاع الصليبية عقب سقوط بيت المقدس فى قبضة صلاح الدين الأيوبى، ولم يتبق منها سوى صور وطرابلس وأنطاكية من المدن الكبرى بالإضافة إلى بعض القلاع المتناثرة. ولم تنجح الحملة الصليبية الثالثة سوى فى استعادة أجزاء ضئيلة قامت فيها مملكة بيت المقدس الاسمية والتى اتخذت من عكا حاضرة لها. وخلال الفترة التالية وحتى نهاية الوجود الصليبى فى الأراضى المقدسة فقد اختلفت أنماط المجتمع الصليبى الجديد وفئاته نتيجة لعوامل عديدة ليس هنا مجال التعرض لها.

وفى الواقع ومن خلال الدراسة السابقة ظهر بوضوح كيف أثرت هذه الظاهرة ـ الرشوة ـ فى هذا المجتمع الصليبى منذ بداية خروج الحملات وحتى سقوط بيت المقدس. وأثرت بشكل مباشر على كثير من أحداث الصراع بين الجانبين، بل إنها غيرت كثيراً من نتائجها بشكل غير متوقع. فعلى سبيل المثال لا الحصر رأينا كيف أثرت الرشوة على أحداث الحملة الصليبية الثانية، وعلى حملات عمورى فى مصر وعلى الحملة البيزنطية فى عام ١١٣٨م على شيزر، وكذلك الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط فى عام ١١٦٩م، وغيرها من الحملات الأقل. ولم يكن تأثير الرشوة على نتائج هذه الحملات فقط، بل أيضًا على موازين الصراع الصليبى الإسلامى، فنجد أن نور الدين محمود ينجح فى ضم دمشق عن طريق الهدايا والوعود فى عام١١٥٤م/ ٥٤٩هـ، ونجح نجم الدين أيوب فى الحفاظ عليها برشوة الصليبيين فى عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ بينما كان نور الدين محمود مشغولا فى الشمال. أما ضم مصر وقيام الدولة الأيوبية بها فقد سبقه تقديم رشاوى للصليبيين بلغت فى أثناء حملات عمورى تقديم أكبر مبلغ للرشوة وهو مليونا قطعة ذهبية أسالت لعاب عمورى ووقع فى الفخ لحين وصول قوات نور الدين إلى مصر ولكنه فى النهاية لم يحصل سوى على مائة ألف وهى لا

تقارن بأى حال من الأحوال مع نجاح نور الدين فى ضم مصر ثم قيام الدولة الأيوبية.

ولم تقتصر الرشوة على التأثير فى المعارك والحملات العسكرية. بل استخدمت أيضًا فى محاولات الاغتيال والتخلص من القادة المؤثرين فى أحداث هذا الصراع الصليبى الإسلامى مثل شرف الدين مودود وبلدوين الأول وجوسلين الثانى وصلاح الدين الأيوبى. كما استخدمت السيمونية أو شراء المناصب الدينية فى نفس الفترة ووجهت اتهامات إلى عدد من البطاركة بهذه التهمة مثل دايمبرت البيزوى ورالف أوف دمفرنت وإيمرى أوف ليموج، بل وجه البعض اتهامات بالرشوة إلى الكرادلة فى روما والبابا أدريان الرابع نفسه.

وعلى الرغم من كثير من المزاعم التى يقدمها كثير من مؤرخى الحروب الصليبية الغربيين من أن هؤلاء الصليبيين هم «رواد عظمة الغرب» وأن هذه الممالك قد ازدهرت فيها العدالة والحرية فإن ذلك كان انكشف أمام ما أوردناه فى الصفحات السابقة. فقد سيطر الجشع والطمع على عقول هؤلاء وقلوبهم منذ خروجهم فى الحملة الأولى وبات ذلك واضحًا عبر أحداثها، وأعمى ـ بريق الذهب والفضة والأموال والخيول وغيرها من الرشاوى المختلفة التى قدمت لهم ـ أبصارهم، فقام هذا المجتمع على غير أساس. بل إن الذين استطابوا الحياة فى الشرق وتأثروا به لم يتحملوا الوافدين الجدد، وعملوا على إعادتهم إلى الغرب بعد الاستفادة منهم فى تحقيق مصالحهم الشخصية فحسب. ويسجل اكهارد دى أورا بأن هؤلاء جميعًا «تخلوا عن أموالهم بالذات وسعوا بطمع وراء أموال الغير»[٢١٦]، وتصح عبارته وتكون دقيقة إذا كان لديهم هذه الأموال بالفعل.

لقد تهاوى هذا المجتمع بجميع فئاته وطبقاته وسقط فى شباك الرشوة

التى نصبها لهم المسلمون الذين نجحوا فى كشف ذلك القناع الزائف عن هذا المجتمع. ولم يسلم المؤرخون من ذلك أيضًا، فمؤلف أنشودة أنطاكية جريورى بشاده طلب «زوج من الأحذية القرمزية» حتى يضيف اسم أحد النبلاء فى أنشودته كى يمجده ضمن المشاركين فى الحملات الصليبية!![٢١٧] ولابد أن تكون نهاية هذا المجتمع كما رأينا على الرغم من الادعاءات الصليبية عنه.

﴿تحسبهُم جميعًا وقلوبُهم شتّى ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾

«آية ١٤ : سورة الحشر»

الهوامش

(١) Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem Tras. by Frances Rita Ryan, Koville, 1969, p. 271.

وتوجد له ترجمة عربية للدكتور زياد العسلى: تاريخ الحملة إلى القدس، عمان، الأردن ١٩٩٠، وفضلنا استخدام النسخة الإنجليزية للهوامش والتعليقات الموجودة بها

(٢) جوناثان ريلى ـ سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: د. محمد فتحى الشاعر، القاهرة ١٩٩٣، ص ٥٩.

(٣) The Alexiad of Anna Commena, Trans. from the Greek by E.R.A. Sewter- Penguin Books, 1982, p. 312

(٤) رالى سميث، المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

(٥) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو، ١٩٨٦، ص ٧٩.

(٦) Fulcher of Chartres, op.cit., p. 271-272.

(٧) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: د. حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٧٠.

(٨) وليم الصورى، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله إلى العربية وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠، ص ٣١٥-٣١٦، ٣٨٢، ٣٨٥ وغيرها.

(٩) Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in RHC, H. Occ. t. IV, Paris, 1879, p. 700.

(١٠) de.Roziere, E. ed., Cartulaire de l'Eglise du Saint Sepulcre de Jerusalem, Paris.

(١١) Rohricht, R., Regesta Regni Hierosolymitani, 2 vols Innsbruck, 1893-1894, I. no. 83.

(١٢) رالى سميث، الاسبتارية وفرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس وقبرص، ترجمة: صبحى الجابى، دمشق ١٩٨٩، ص ٣٧٥-٣٧٩.

(١٣) حضر وليم الصورى هذا المجمع مشيرًا إلى حضور ثلثمائة أسقف فى بابوية الإسكندر الثالث، وذلك فى اللاتيران ويعد من أكبر المجامع الكنسية لعدة قرون. وألف وليم الصورى كتابًا خاصًا عنه ولكنه لم يصلنا. انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص ١٠٠٩.

(١٤) سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن، ١٨-٢٠، وكذلك : نور الدين حاطوم: تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا، جـ١، بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٠٢، سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ٢جـ، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٤٢.

(١٥) ابن العميد (المكين جرجس) : تاريخه ـ نشره كلود كاهن تحت عنوان: تاريخ الأيوبيين فى :

B.E.O., Vol. 15, 1955, p. 142.

كيرلس الثالث (ابن لقلق) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المجلد الرابع، الجزء الأول، نشر: د. انطون خاطر، ود. ازولد بورمستر، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٦٩.

(١٦) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ٨، ق١، حيدرآباد، ١٩٥١، ص ١٨٧.

(١٧) فى أبى شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢ جـ فى مجلد، بيروت، بدون تاريخ، جـ٢، ص ٩٥؛ وانظر : مادة رشا وأصله من الرشاء الذى يتوصل به إلى الماء ـ ابن منظور، لسان العرب، ١٥ جـ، دار صادر بيروت، بدون تاريخ، جـ١٤، ص ٣٢٢.

(١٨) زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ جزء، تحقيق سامى الدهان، دمشق، ١٩٥١، ص ٦٠٢. والمصانعة أن تصنع لغيرك شيئًا ليصنع لك آخر مقابله، كناية عن الرشوة. انظر المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وآخرون، اسطنبول، ١٩٨٦، ص ٥٢٦.

(١٩) الروضتين، جـ٢، ص ١٣١.

(٢٠) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ٥ أجزاء: الأول ـ الثالث : تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠، الجزءان، ٤، ٥، تحقيق: د. حسنين ربيع القاهرة، ١٩٧٢ - ١٩٧٧، جـ٢، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢١) أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣١.

(٢٢) ابن واصل، المصدر السابق، جـ١، ص ١٢٣-١٢٤؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢٣) ابن منظور، المصدر السابق، جـ١٤، ص ٣٢٢، وكذلك أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٢١. وما حرمه الإسلام هى تلك الرشوة التى تعطى لقضاء مصلحة، أو لإحقاق باطل أو إبطال حق.

(٢٤) Stephenson, C., Mediaeval History, New York, 1951, p. 227.

سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣٤٦-٣٦٧؛ جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى وحضارتها، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢٥) Sterns. L., Crime and Punishment Among the Teutonic Knights, Speclum, Vol. 57, 1982, p. 41.

(٢٦) رالى سميث، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢٧) Anna, p. 312.

(٢٨) عن تفصيلات الحملة الشعبية انظر: جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين فى الحملة الصليبية الأولى، الإسكنرية، ١٩٨٩، ص ١٥١-١٧٠. والملاحق المترجمة من المصادر فى نهاية الكتاب نفسه.

(٢٩) Albert d'Aix, op.cit., pp. 291-292.

ويشير رانسيمان إلى رشاوى أخرى إلى أمنج كونت لزينجن عبارة عن سبع قطع من الذهب، ومائتى قطعة من الفضة إلى رئيس الأساقفة وحاكمماينز ـ ولكنها

ذهبت هباءً. انظر رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: د. السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٨١، ص ٢١٣.

(٣٠) الحملة الصليبية الأولى، ص ٥٩؛ قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١١٩-١٢١؛

Anna Sapir Albulafia, Invectives against Christianity in the Hebrew Chronicles of the First Crusade, in Crusade and Settlement, Cardiff, 1985, pp. 66-67.

(٣١) ريموندأجيل، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣٢) Anna, p. 315.

(٣٣) Ibid., p. 323.

(٣٤) Ibid., p. 328.

وكذلك انظر: جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ٣١٢-٣٢٨.

(٣٥) انظر نص روايته في : قاسم عبده، الحروب الصليبية، ص ١٦٣.

(٣٦) نص ترجمة الخطاب في : جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ٣٢٩.

(٣٧) Anna, p. 329.

(٣٨) ريموندأجيل، المصدر السابق، ص٧٨.

(٣٩) نفسه.

(٤٠) انظر: Fulcher of Chartres, pp. 79-80.

وكذلك خطاب أتين إلى زوجته أديل، جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٤١) Anna, pp. 340-341.

(٤٢) Ibid., p. 340.

(٤٣) Ibid., p. 336.

(٤٤) اختصر فوشيه هذه الأحداث على الرغم من أنه كان شاهد عيان لها. وتم قتل

ثورس فى ٩ مارس ١٠٩٨م. للمزيد انظر:

Fulcher of Charters, p. 90.

وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٢٦٦-٢٦٩؛

Albert d'Aix, pp. 354-355.

وكذلك : محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٨٠.

(٤٥) ريموندا جيل، المصدر السابق، ص ١٠٨؛

Tudebodus, Petrus, Historia de Hierosolymitano itinere, Trans. J.H. Hill and L.L. Hill., Philadelphia, 1974, p. 57.

ويبرر ريموندا جيل هذا العمل بأنه كان لاستخراج الجثث حتى لا تعوق الروائح العمل فى بناء القلعة على الرغم من اعترافه قبل ذلك أن غنائم الأتراك هى التى أثارت رجالنا لذلك العمل. وعن بناء القلعة انظر: ح(١٨)، ص ١١٦.

(٤٦) حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص١١٦.

(٤٧) نفسه، ص ١١٨-١١٩.

(٤٨) Tudbode, op.cit., pp. 61-63.

(٤٩) المصدر السابق، ص ٣١٥-٣١٦.

(٥٠) Caffaro de Cashifeloe De Liberatione Civiatum Orientis Libers, in RHC, H. Occ. Vol. V., p. 52.

Anonymous Syriac CHronicle (ed. A.S. Tritton) in J.R.A.S., London, 1933, 2 Vols., p. 66; Michel Les Syrien, Chronique, ed. , en Francais, par JB. Chabot, 4 tomes, Paris, 1899-1924, p. 184.

(٥٢) الكامل فى التاريخ، ١٠ أجزاء، بيروت، بدون تاريخ، جـ٨، ص ١٤.

(٥٣) زبدة الحلب، ص ٤٩٧-٤٩٨.

(٥٤) ذيل تايخ دمشق، نشر وتحقيق : د. سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ص٢٢٠-٢٢١.

(٥٥) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٤٩٧-٤٩٨.

(٥٦) المصدر السابق، ص ٣٢٢.

(٥٧) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٩٦؛ Tudbode, op.cit., p. 89.

(٥٨) زبد الحلب، ص ٥٠١، ٥٠٢.

(٥٩) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق أن مارى أده، منشور، في:
B.E.O. VOl. 32-33, 1980-1981, Damas 1982, 1982, p. 310.

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق : د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٣٢٠.

(٦٠) حددت المصادر الثلاثة التالية الاجتماع في قلعة الروج ـ أما هذه الشروط فذكرها ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ١٧٠-١٧١، ح (١١) المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص ١٠٦-١٠٧؛ وكذلك رالى سميث، الحملة الأولى، ص٨٢؛ Tudbode, op.cit., p. 102.

(٦١) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٣٨٥؛ Tudbode, op.cit., p. 104.

(٦٢) المصدر السابق، ص ٣٩٠-٣٩١؛ أما ريموندا جيل فذكر العرض المقدم من صاحب جبلة فقط دون أن يشير إلى قصة وليم، المصدر السابق، ص ١٨٩..
Albert d'Aix, p. 453.

(٦٣) رانسيمان، المرجع السابق، ص ٤٠٩.

(٦٤) ريموندا جيل، المصدر السابق، ص ٢١٦؛ وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٣٩٤-٣٩٥. أما آن كومنينا فلم تذكر المسير إلى بيت المقدس إلا مختصراً ولم تشر إلى السفارة البيزنطية، انظر: Anna, p. 352.

(٦٥) Tudbode, op.cit., p. 106.

(٦٦) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٣٩٧.

(٦٧) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٦٨) انفرد ريموندجيل بذكر هذه الرسالة ـ ويذكر أنها سقطت فى قبضة الفرنج حيث كانت معلقة فى رجل حمامة زاجلة. انظر: المصدر السابق، ص ٢٢٥؛ حسن عبد الوهاب، قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٦٦.

(٦٩) Radulph of Caen, Gesta Tancridi Siciliae regis in Expeditione Hierosolymitana, in RHC. , H. Occ. Vol. III, p. 397, Fulcher of Charters, op.cit. p. 122.

(٧٠) تم عزل أرنولف أوف شاكو بطريرك بيت المقدس فى أواخر ديسمبر ١٠٩٩م نتيجة اتهامات وجهت له. وكان دايمبرت مندوبًا بابويًا صحب الأسطول البيزوى الذى قدم إلى الشرق، ورافقه فى الرحلة إلى الجنوب على ظهر هذا الأسطول بوهمند سيد أنطاكية وبلدوين سيد الرها، ويتهمه ألبرت بأنه استولى على كبش ذهبى وأموال نقلها معه إلى الشرق واستمال بوهمند وبلدوين. وكان دايمبرت أسقفًا على بيزا عام ١٠٨٨م وله خبرة طويلة وعلى قدر من التعليم. انظر:

Radulph of Caen,op.cit., p. 704; Albert d'Aix, op.cit., p.p. 511-512.

(٧١) Albert d'Aix, op.cit., p.p. 539-540.

(٧٢) Ibid, pp. 540-548; Hamilton, B., The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, p. 55.

وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٤٨٨ ولكنه لم يعط لنا تفاصيل الخلاف.

(٧٣) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٤٦٩، ص ٤٧٢-٤٧٣.

Fulcher of Charters, op.cit., p. 131; Albert d'Aix, p. 515; CF. also: the Latin Kingdom of Jerusalem, Trans. From French by J. Shirtey, 2 vols. Amsterdam, 1974,p.21.

(٧٤) Mattheiu d'Edesse, Charonique (962-1136) in Bibiotheque Histroaie Armenienne par Dulaurier, Paris, 1958, p. 229; Albert d'Aix, p. 519.

(٧٥) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٤٨٣ ؛ Albert d'Aix., p. 542.

(٧٦) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٥٥ ؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٧٧) Albert d'Aix, pp. 634-635;

ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٦٩ ؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣١. وكان ذلك فى عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م وذكر ألبرت أن ذلك المبلغ كان سنويًا.

(٧٨) وصل هذا الأسطول فى أغسطس ١١١٠م / محرم ٥٠٤هـ وكان على ظهره سيجورد ملك النرويج، للمزيد انظر:

Flucher of Chartres, op.cit., pp. 199-200; Albert d'Aix, op.cit., pp. 640-651.

ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٧٥ ؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٤-٣٥ ؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ص جـ٩، ص ١٣٦ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢ جـ، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣١١ ؛ رانسيمان، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٣.

(٧٩) Albert d'Aix, op.cit., pp. 690-693.

(٨٠) Fulcher of Chartres, op.cit., p. 203.

(٨١) الكامل، جـ٩، ص ١٤٥ ؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩١.

(٨٢) المصدر السابق، ص ٥٤٢. ويذكر أيضًا أن هذا الشخص كان مسلمًا وارتد وأعطاه بلدوين اسمه وجعله فى حاشيته. ولم تشر المصادر الأخرى إلى ذلك.

(٨٣) عن جهاده انظر: محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢١١ وما بعدها.

(٨٤) Matthieu d'Edesse, op.cit., pp. 106-108; Bar Hebraeus, The Chronography, ed. and Trans. by E.A. Wallis Budge, 2 Vols. Oxford, 1932, p.

(٨٥) Albert d'Aix, op.cit., p. 700.

(٨٦) ذكر ابن القلانسى أن ذلك كان «بتدبير وموافقة طغتكين»، انظر: ص ٢٩٨-٢٩٩؛ «وقيل بل خافه طغتكين» كما أشار ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٥٠.

(٨٧) توجه بوهمند لمساعدة جبرائيل حاكم ملطية الأرمينى بناء على دعوته ضد غازى صاحب سيواس، ويذكر ابن العبرى أنه تم دفع مائة وعشرين ألف دينار. للمزيد:

Albert d'Aix, pp. 524-525, Ano. Syric. Chron, I., P. 74, Bar Hebraeus, op.cit., p. 237.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٩٨-٤٠٠؛ محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل كومنين، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ٧٠.

(٨٨) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٩٩؛ حسين عطية، أنطاكية، ١٢٧.

(٨٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥١١؛ ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٩٠) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥١١-٥١٢، حـ(٤).

(٩١) أشار ابن الأثير، إلى قصة الرجلين، أما أنا كومنينا فتعطى تفاصيل الحصار والمجاعة. انظر: الكامل، جـ٩، ص ٩٦. Anna, p. 357.

(٩٢) Albert d'Aix, pp. 651-652.

وأشار ابن القلانسى إلى الخلاف والاتفاق «وأصلح بيمند أمره مع الملك ودخل عليه ووطئ بساطه»، ص ٢٦٣، وكذلك: جوزيف نسيم، العرب والروم، ص٢٥٥-٢٥٧.

(٩٣) ابن الأثير، الكامل، جـ١١-٩، ص ١٢٩.

(٩٤) ابن الأثير، نفسه، ص ١٢٧.

(٩٥) يحدد ابن الأثير المبلغ باثنين وثلاثين ألف دينار، ويحدد ابن القلانسى الخيول بعشرة، ويجعلها ابن العبرى عشرين، وكذلك أربعين بالة من الثياب، ويضيف

ألبرت داكس إطلاق سراح الأسرى وهدايا قيمة من الذهب والفضة انظر ابن الأثير : الكامل، جـ٩، ص ١٤١، ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٢٧٣ ؛

Albert d'Alix, p. 685, Bar Hebraeus, p. 244.

(٩٦) ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٤١ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص٥٢١، ٥٢٧ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٤١٨-٤٢٠.

(٩٧) Bar Hebraeus, op.cit., p. 244.

(٩٨) المصدر السابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٩٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥٢٣. أما وليم الصورى فيرجع سبب فك الحصار إلى أن المحاصرين رأوا أنه لا توجد إمكانية للنجاح وذهبوا إلى حلب. المصدر السابق، ص ٥٤٤-٥٤٥ ؛ وكذلك محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(١٠٠) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٥٤٣ ؛ ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٣٠٦، أما موقع حسن القبة فهو غير معروف على وجه الدقة. نفس المصدر، ص ٣٠٦، ح(١).

(١٠١) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٩٠٢ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص٣٨-٣٩.

(١٠٢) Michel Les Syrien, op.cit., p. 244.

(١٠٣) Ibid.

(١٠٤) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦٤٠، محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢٠٣.

(١٠٤) ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق د. محمود على مكى، الرباط، بدون تاريخ، ص ٢٤-٢٥.

(١٠٦) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ١٠٤-١٠٥ ؛ وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٥١٦-٥١٧.

(١٠٧) قتل بوهمند الثانى على يد الأمير غازى بن الدانشمند عندما باغته عند عين زربة انظر: Bar Hebraeus, op.cit., p. 255.

وأشارت المصادر العربية إلى هذا الخلاف انظر: ابن العديم، المصدر السابق، ص ٦١٠-٦١١.

(١٠٨) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦٥٨-٦٦٢. أما ابن القلانسى فذكر وقوع هذه الأحداث فى محرم ٥٢٧هـ/ نوفمبر ١١٣٢م. المصدر السابق، ص٣٧٤.

(١٠٩) يذكر كيناموس أن ريموند كاد يقع فى الأسر ولكنه نجح فى التغلب على مجموعة من الكشافة الرومان ـ وهى رواية مختلفة. انظر:

Kinnamos, deeds of John and Manuel Comnenus, Trans. by Charles M. Brand, New York, pp. 22-23.

ويسميه ابن العبرى بيدوى (Bedewi)؛ Bar Hebraeus, p. 258.

(١١٠) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٦٩٦-٦٩٧.

(١١١) Kinnamos, op.cit., pp. 24-25.

(١١٢) O. City BYZANTIUM, Annals of Niketas Choniates, Trans. by H.J. Magoulias, Detroit, 1984, p. 18.

(١١٣) Anno, syric, Charon II, p. 279.

(١١٤) الكامل، جـ٢، ص ٣٠٢.

(١١٥) ابن العديم، المصدر السابق، ص ٦٢٨-٦٣٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ١، ص ٧٧-٧٩؛ وكذلك محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٣٥٠-٣٥٧؛ محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ٩٦.

(١١٦) Bar Hebraeus, op.cit., p. 264.

(١١٧) المصدر السابق، ص ٧٠٥-٧٠٦.

(١١٨) المصدر السابق، ص ٤٢٦.

(١١٩) الكامل، جـ٩، ص ٣١٣؛ مفرج الكروب، جـ١، ص ٨٨.

(١٢٠) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٧٠٥-٧٠٦؛ وكذلك محمد محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٣٦٢-٣٦٣.

(١٢١) المصدر السابق، ص ٧١١؛ Benvenisti, op.cit., pp. 149-150.

(١٢٢) المصدر السابق، ص ٤٢٧. ولم يشر وليم الصورى أو ابن القلانسى إلى اسم هذا الوالى ولاشك أنه ليس إبراهيم بن طرغت الذى كان قد استشهد أثناء مواجهة ريموند بواتييه أمير أنطاكية، انظر المصدر السابق، ص ٤٢٦.

(١٢٣) نفسه، ص ٤٥٢؛ وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٧٤٢-٧٤٣؛ Rohricht, Geschictc, pp. 238-239.

(١٢٤) كان رئيساً لأساقفة المصيصة وذكر وليم القصة كاملة دون أن يحدد العام الذى مات فيه. ويجعله هاملتون فى عام ١١٤٤م. انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٧١٥-٧١٩؛ Hamilton, op.cit., pp. 30-37.

(١٢٥) هناك صلة قرابة بين إيمرى وبطرس أرميون متولى قلعة أنطاكية، ولكن هاملتون يذكر أننا يجب أن نأخذ بحذر اتهامات وليم له لأنه كان بطريركاً ورفض مثل أسلافه أن يتخلى عن سيطرته على كنائس صور فى إمارة طرابلس بينما كان وليم رئيساً لأساقفة صور. انظر: Hamilton, op.cit., p. 39.

(١٢٦) Kinnamos, op.cit., pp. 62-63, Niktas, op.cit., pp. 37-38.

(١٢٧) Kinnamos, op.cit., p. 67.

Odo of Deiul, De Profectione Ludavici VII in Orientem, the Journey of Louis, VII to the East, ed. &Trans by Virginia Gingcrick Berry , New York, 1948, pp. 89-93.

(١٢٩) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٧٦٢؛ Ano. Syric, Chron, II. p. 298.

(١٣٠) Niktas, op.cit. p. 39.

(١٣١) Niktas, op.cit. p. 39.

(١٣٢) Odo of Deiul, op.cit., pp. 89, n.5; 93, n.I.

وكذلك محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ١٤٥-١٤٧.

(١٣٣) عن العلاقة بينه وبين ريموند انظر: زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص١٨٤-١٨٥.

(١٣٤) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٧٨٣-٧٨٧.

(١٣٥) كانت هذه هى المرة الثانية التى يزور فيها ثييرى الأراضى المقدسة، فقد زارها قبل ذلك فى عام ١١٣٧م. أما عن ترشيح جاى سيد بيروت انظر: رانسيمان، المرجع السابق، جـ٢، ص ٤٥٦.

(١٣٦) Michel les Syrien, op.cit. III, p. 276.

(١٣٧) Ano. Syric, Chron II, pp. 298-299.

(١٣٨) Bar Hebraeus, op.cit., p. 274.

ولم يورد ميخائيل السريانى هذه الرواية بمفرده، بل أشار إليها أيضاً وليم الصورى والمؤرخ السريانى المجهول أيضاً.

(١٣٩) Chronique d'Ernoul , et de Bernard le Tresorier, ed. M. L. de Mas Latrie, Paris, 1871, p. 12.

ومؤلف هذا المصدر برنارد متولى الخزانة فى دير القديس بطرس فى كوربى بفرنسا، وينتهى عند عام ١٢٣١م. وربما أضيف هذا الاتهام للجماعتين بعد ازدياد النقد الموجه ضدهما فى أوروبا بسبب سياستهما وأملاكهما الواسعة. عن ذلك انظر:

Prawer, Military Orders and Crusaders, in the Geistchichen Europas, 26, 1980, pp. 225, ff.

(١٤٠) المصدر السابق، ص ٧٨٧.

(١٤١) بدء حصار الصليبيين لدمشق، فى ٦ ربيع أول ٥٤٣هـ/٢٦ يوليو ١١٤٨م، وكان ملك بيت المقدس ونبلاؤه يحاصرون الجهة الشرقية، والملك الألمانى

والفرنسى من جهة الميدان الأخضر، وذكر سبط ابن الجوزى أن أنر راسل «السواحلة» وخوفهم وعرض عليهم تسليم بانياس فى مقابل ترحيل الفرنج «الغرباء» فحسنوا لهم ذلك ورحلوا. انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، ص ٢٥٣-٢٥٤؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، جـ٨، ص ١٩٧-١٩٨.

(١٤٢) عن موقف سيد الجليل انظر أيضًا: على السيد، إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسى فى الصراع الصليبى الإسلامى فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى، الإسكندرية ١٩٨٨ (رسالة ماجستير لم تنشر بعد)، ص ٤٢٠.

(١٤٣) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٢٣.

(١٤٤) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، ص ٣٦٩.

(١٤٥) يذكر المؤرخ السريانى المجهول أن جوسلين وعد التركمان بدفع رشوة للتركمان إذا أخذوه إلى قرية النصارى وتم الاتفاق معهم على دفع ستين دينارًا ولكن أحد الصباغين اليهود عرفه ودل عسكر نور عليه فقبضوا عليه. ويذكر ابن العبرى أن نور الدين دفع للتركان ألف دينار بعد إحضارهم له. انظر:

Ano. Syric, Charon II, p. 301; Bar Heraeys, op.cit, p. 276.

(١٤٦) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، ص٣٦٩؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص٦٦٦.

(١٤٧) Michel Les Syrian, op.cit., III, p. 343.

وظلت حتى نجاح السلطان الأشرف خليل فى استردادها فى رجب ٦٩١هـ/ يونيو ١٢٩٢م. وسميت قلعة المسلمين الأشرفية. انظر: بيبرس المنصورى، التحفة المملوكية فى الدولة التركية، تحقيق: عبد الحميد صالح، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٣٠-١٣١؛ وكذلك محمود عمران، السياسة الشرقية، ص ١٨٥ وما بعدها.

(١٤٨) ذكر مؤلف البستان الجامع أنها عرضت مائة ألف دينار وحدد مكان القبض عليه بالقرب من العريش، انظر: البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان، لمؤلف مجهول، نشر كلود كاهن فى: B.E.O. VIII, 1938, p. 131.

(١٤٩) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٥٠٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، ص ٣٩٦، المقريزى، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ١، تحقيق د. جمال الدين الشيال. القاهرة، ١٩٩٧، جـ٢، ٣، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة، ١٩٧١-١٩٧٣، جـ٣، ص ٢١٥-٢٢٠.

(١٥٠) يذكر وليم الصورى أن نصر لجأ إلى تعلم اللاتينية وأبدى استعداده للتحول إلى النصرانية ـ وربما لجأ إلى ذلك حتى لا يتم إعادته إلى القاهرة. انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص عن مصيره : راجع المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٢٢٠-٢٢١.

(١٥١) ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢، ص ١٢٦-١٢٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، ص ٣٩٨؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص ٦٦٩. أما ابن القلانسى فيشير إلى دور امرأة يهودية أنزلت حبلا إلى عسكر نور الدين اقتحموا البلد من خلال ذلك البرج. ص ٥٠٤.

(١٥٢) صحبه فى هذه الرحلة رؤساء أساقفة صور وقيسارية وأساقفة عكا وصيدا واللد وسبسطية وطبرية. وكان البابا أناستاسيوس الرابع قد أصدر مرسوماً منح الاسبتارية امتيازات خاصة أثارت الأساقفة اللاتين فى الأراضى المقدسة خاصة فيما يتعلق بالعشور. وتطور الأمر إلى صدام بين أنصار الجانبين. انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٨٣٥؛ Hamilton, op.cit., pp. 72-73.

(١٥٣) رالى سميث، جماعة الاسبتارية، ص ٣٩٢-٣٩٣، ويذكر أنه من الصعب قبول ذلك عن البابا أدريان الرابع لما هو معروف عن شخصيته.

(١٥٤) المصدر السابق، ص ٨٥٧-٨٥٨؛ Hamilton, op.cit., p. 76.

(١٥٥) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٨٦٧.

(١٥٦) عبد القادر محمد إبراهيم الحنبلى، الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، جـ١، نشر حمد الجاسر، الرياض بدون تاريخ، ص ٥٦٤. أما أبو شامة فقد ذكر قدوم نجم الدين أيوب إلى دمشق فى عام ١١٥٩م/ ٥٥٤هـ. المصدر السابق، جـ١، ص ١٢٣.

(١٥٧) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٨٩٣.

(١٥٨) نفسه، ص ٨٩٩، وكذلك:

Schlumberger, G., Campanges Du roi Amaury I de Jerusalem en Egypte au XII siecle, Paris, 1966, pp. 117-119.

(١٥٨) ابن واصل، المصدر السابق، جـ١، ص ١٥١؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ١٤٣-١٤٥.

(١٦٠) أبو شامة، نفس المصدر.

(١٦١) البستان الجامع، ص ١٣٧؛ ويذكر المقريزى نفس الرواية فى الخطط، ج-١، ص ٢٨٢، وانتهت هذه الحملة بعودة عمورى وشيركوه إلى بلاد الشام فى شوال ٥٦٢هـ/ أغسطس ١١٦٢م وقدم شاور لشيركوه خمسين ألف دينار، وللفرنج مائة ألف وشحنة لهم بالقاهرة. انظر: البندارى، سنا البرق الشامى، تحقيق : د. فتحية النبراوى، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠، ص ٥؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(١٦٢) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٨٩٠-٨٩١، وقد ذكر وليم سقوط بانياس وتوابعها فى عبارة مختلطة، فأشار أن ذلك كان فى العام الثانى من حكم عمورى أى ١١٦٧م كما ورد فى نص عبارته. وربما خلط بين الأمرين فالعام الثانى يعنى ١١٦٤م لأن عمورى حكم فى ١١٦٣م إلى عام ١١٧٤م وهى صحيحة لأن بانياس سقطت فى هذا العام، أما عام ١١٦٧م فيبدو أن هناك عبارة سقطت قبله لأن هجوم نور الدين على بقايا الإمارة كان فى هذا العام كما ذكرت المصادر العربية.

(١٦٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، ص ٤٦٩-٤٧٠؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ١، ص ١٤٦، ١٥٢-١٥٣؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٢٥٢؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ١٣٩ وعن الهجوم على هونين انظر: ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠، ص ٥-٦؛ أبو شامة، المصدر السابق،

جـ١ ، ص ١٤٧ ، وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٦٨٦ ؛

Benvenisti, op.cit., p. 151.

(١٦٤) وليم الصورى، المصدر السابق، ٩٣١-٩٣٢؛ وعن ميلون انظر نفس المصدر، ص ٩٧٤-٩٧٥.

(١٦٥) المصدر السابق، جـ١ ، ص ١٥٥ .

(١٦٦) نفسه.

(١٦٧) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٣٩ .

(١٦٨) نفسه، ص ٩٤٣ .

(١٦٩) نفسه، ص ٩٤٦ .

(١٧٠) Nikitas, op.cit., p. 94.

(١٧١) Kinnamos, op.cit., p. 209.

(١٧٢) Michel les Syrian, op.cit., (in RHC Doc Arm.) L., p. 369

أما ما ذكره رانيمان نقلا عن ميخائيل السريانى بأن صلاح الدين حاول رشوة اليونانيين فلم يشر إلى ذلك وإنما ذكر أن بعض الأشخاص حذروا ملك القدس من البيزنطيين وذلك لأنهم يعتزمون الاستيلاء على مصر لحسابهم الخاص، ونص الرواية:

Le Tribut auquel les Egyptiens Sétaicmt obliges lui fut paye eu une somme d'or, et ils ségagement pour l'avenir, cu lui dannant des otages car Youcouf (Saladin) n'etait pas encore en mesure de repouser les Franks, CF. Michel les Syrian, op.cit., pp. 369-370.

انظر: رانسيمان، المرجع السابق، ص ٦٢٧ .

(١٧٣) المصدر السابق، جـ١ ، ص ١٨٠ ، وعن الأسباب الأخرى لفشل الحملة انظر: محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ٣١٢-٣١٨ .

(١٧٤) أشارت بعض المصادر إلى أن ابن مصال، وأخرى إلى زين الدين على الواعظ

بأنه الذى أخبر صلاح الدين بأمر هذه المؤامرة، أما وليم الصورى فقد ذكر وصول مبعوث الحشيشية إلى عمورى قبل تنفيذ هذه المؤامرة ولكنه أشار إلى أن سبب قدومه بخلاف هذه المؤامرة. أما مبعوث عمورى الذى أشارت إليه المصادر العربية فهو «جرج» كاتب عمورى. عن ذلك انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٦٥–٩٦٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠، ص ٥٤؛ ابن واصل، المصدر السابق، ج–١، ص ٢٤٥؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٢٤٥؛ سعيد عاشور، الحركة، ص ٧٣٠–٧٣٢.

(١٧٥) أشار وليم إلى أن الذى دافع عن بانياس هو زوجة نور الدين وليس ابن المقدم كما ذكرت المصادر العربية، انظر: ص ٩٦٩–٩٧٠.

(١٧٦) الكامل، جـ١٠، ص ٦٠.

(١٧٧) مرآة الزمان، ص ٣٢٤–٣٢٥.

(١٧٨) ابن واصل المصدر السابق، جـ٢، ص ٧–٨، أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣١.

(١٧٩) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٤٢–٧٤٣.

(١٨٠) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٨٢.

(١٨١) نقلا عن أبى شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣٩.

(١٨٢) المصدر السابق، جـ١٠، ص ٦٧–٦٨.

(١٨٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٢٨–٣٢٩؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٩؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة بدون تاريخ، ص ٨٢.

(١٨٤) ويذكر أبى طىء أيضًا أنهم «ضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى» انظر أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠، ص ٦٧–٦٨.

(١٨٥) المصدر السابق، ص ٧٨٣–٧٨٤. وكانت حارم فى عهد نور الدين مركزًا

هامًا إذ رتب بها مشعلين يوقدان ليلا ليهتدى بهما من يهرب من بلاد الفرنج من أسارى المسلمين وحاول الفرنج رشوته بمبلغ عشرين ألف ديار مقابل إزالتهما لكنه رفض ذلك. انظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ١٤.

(١٨٦) العماد الكاتب (عماد الدين الأصفهانى)، البرق الشامى، تحقيق الدكتور مصطفى الحبارى، عمان ١٩٨٧، ص ٥٤.

(١٨٧) المصدر السابق، ص ٧٨٠.

(١٨٨) نفسه.

(١٨٩) رانسيمان، المرجع السابق، جـ٢، ص ٦٧٠-٦٧١.

(١٩٠) وقعت هذه النوبة أو الواقعة أثناء خروج صلاح الدين عند الرملة وكاد يفقد حياته وذلك فى أول جماد ثان ٥٧٣هـ/٢٥ نوفمبر ١١٧٧م. انظر عن تفاصيل الوقعة فى العماد الكاتب : البرق الشامى جـ٣، ص ٣٦-٤١؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٣؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(١٩١) أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣١.

(١٩٢) العماد الكاتب، البرق، جـ٣، ص ٥٢-٥٣.

(١٩٣) المصدر السابق، ص ٩٨٩.

(١٩٤) ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٤-١١٥. ويذكر بنفنستى Benve-nisti أن هذا الحصن كان يحرس الطرق عند وادى اليرموك ويشرف على بلاد المسلمين. انظر: p. 293-294.

(١٩٥) وليم الصورى، المصدر السابق، ص ١٠٣٩-١٠٤٠.

(١٩٦) تجدر الإشارة إلى أن وليم الصورى أخطأ فى ذكر أن صلاح الدين هو الذى استولى على الحصن، أما السبط فيذكر أنه تم فتحه «وقتل من فيه». انظر المصدر السابق، ص ٣٦٩.

(١٩٧) محمد بن تقى الدين عمر، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: د. حسن حبشى، القاهرة بدون تاريخ، ص ٩٥؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠، ص ١١٠-١١١؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٤-١١٥.

(١٩٨) المصدر السابق، ص ١٠٤٨-١٠٤٩.

(١٩٩) النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٣٨٢.

(٢٠٠) محمد بن تقى الدين، المصدر السابق، ص ١٠٦-١١١.

(٢٠١) أبو شامة، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٠؛ وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٧٨-٩٧٩.

(٢٠٢) أبو شامة، جـ٢، ص ٣١.

(٢٠٣) المصدر السابق، ص ١٠٤٩.

(٢٠٤) العماد الكاتب، البرق الشامى، جـ٥، تحقيق وتقديم الدكتور فالح صالح حسين، عمان ١٩٨٧، ص ١٧. وأشار وليم أيضًا هل كان ذلك بدافع شخصى أم تلبية لطلب الأمراء.

(٢٠٥) أشار محمد بن تقى الدين إلى أن الرسالة وصلته عندما كان متوجهًا إلى حلب. انظر: المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢٠٦) ذكر روورشت احتمالا لهذا الخطاب فى نوفمبر ١١٨٢م/ رجب ٥٧٨هـ وهو تاريخ متأخر، فقد ذكر ابن شداد أن صلاح الدين عدل عن حصاره عن حلب الذى كان فى ٢١ جماد أول/ ٢٢ سبتمبر وتوجه نحو الفرات وأرسل خطابه هذا عندما توجه إلى البيره، ولذا فالتاريخ الثانى هو الأصح، انظر: ابن شداد، النوادر، ص ٩٤؛ Rohricht, Geschichte, p. 399.

(٢٠٧) كان ابن شداد هو المبعوث للخليفة العباسى، ص ٩٥، كذلك: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٧٦-٧٧٩.

(٢٠٨) عن علاقة صلاح الدين بهمفرى كافل المملكة انظر: وليم الصورى، المصدر السابق، ص ٩٨٣.

(٢٠٩) ابن شداد، النوادر، ص ١٤٥.

(٢١٠) أبو شامة، المصدر السابق، جـ٢، ص ١٣١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠، ص ١٧٣؛ وليم الصورى، المصدر السابق، ص ١٠٢٤-١٠٢٥؛
Bar Hebraeus, op.cit., pp. 310-311; Hamilton, op.cit., pp. 46-47.

(٢١١) رانسيمان، المرجع السابق، جـ٢ ، ص ٧٥١-٧٥٢، حـ(١) .

Hamilton, op.cit., pp. 186-187.

(٢١٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠ ، ص ١٥٨-١٥٩ .

(٢١٣) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٩٧ .

(٢١٤) السيوطى (أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد) ، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: د. أحمد رمضان، ق ١ ، القاهرة، ١٩٨٢ ، ص ٢٦١ .

(٢١٥) أبو شامة، المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٩٥ ، وكذلك : ابن الأثير، المصدر السابق، جـ١٠ ، ص ١٥٦-١٥٧ ؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٢١٥ . وكذلك حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، الإسكندرية، ١٩٨٩ ، ص ٧٦، ح(٦٤).

(٢١٦) زابوروف، المرجع السابق، ص ٣٢٧ .

(٢١٧) رالى سميث، الحملة الصليبية الأولى، ص ١٣٣ ؛ ص ١٣٣ ؛ رانسيمان، المرجع السابق، جـ١ ، ص ٤٩٩ .

وضع المرأة فى الشرق اللاتيني

Jean Richard, Le statut de la femme dans l'orient lat-
in. in: Variorum Reprints, (London, 1976), pp.: 377-388)

وضع المرأة فى الشرق اللاتينى

إذا كان الشرق اللاتينى قد جذب المؤرخين وبالأخص أولئك الذين يطلق عليهم اسم الأكاديميين الذين ينتمون إلى المعاهد. ولقد ازداد هذا الاهتمام بالأخص فى الأعوام الأخيرة وسبب هذا الاهتمام هو أن الشرق قد ظهر وكأنه أرض خصبة عليها نمت وترعرعت صلات ممتدة بين اللاتين الذين أتوا من الغرب وهؤلاء الشرقيين الذين مثلوا الحضارات المختلفة والذين تواجدوا ونموا فى هذه المنطقة ويقصد بمنطقة الشرق ومنذ وقت طويل والتساؤل الذى يفرض نفسه دائمًا هو معرفة إلى أى مدى قد نجح هؤلاء الوافدون الجدد أن يقوموا بإدخال وزرع عاداتهم وأفكارهم التى أتوا بها من وطنهم الأم فى هذه البلاد وأيضًا من جهة أخرى إلى أى حد أو درجة استطاعوا أن يتطبعوا وأن يتأثروا بتلك العادات والأفكار التى وجدوها فى هذه البلاد الجديدة القديمة التى استقروا بها؟ وأيضًا الشرقيون التى امتدت جذورهم فى أرضهم هذه قد استطاعوا أن يتقبلوا طرق العيش وأن يتكيفوا معها خاصة أن المجتمع اللاتينى كان جديداً عليهم. كل هذه التساؤلات فى الواقع ذات أهمية كبرى خصوصًا فى غياب الوثائق أو الكتب التى تتصف فى هذا الموضوع أو المجال مما نتج عن هذا عدم وجود إجابة صحيحة مئة بالمئة.

أما بالنسبة للمصادر التى استعنا بها لتأليف هذا العمل والقول هنا بالطبع للمؤلف:

(أ) فهى تشمل تلك النصوص التى تم جمعها من قوانين أو مجامع القدس Les Assises de Jerusalems على الرغم من أن هذه النصوص تنتمى إلى حد ما إلى حقبة متأخرة. ولقد وجدنا أيضًا نصوص نادرة

جداً وهى تلك النصوص التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى Les Assises de la Cour aux Bourgeois.

(ب) والقوانين القضائية التى وضعت للمدنيين لم تصغ كتابة إلا فى عام ١٢٤٠م (p. 348).

ـ وكتب جان دى ابلين Jean d' Iblin وفيليب دى نوفار Philipe de Novare وهذه الكتابات أو المؤلفات قد صيغت بعد ذلك بحوالى ٢٠عاماً. مما يجعلها تؤرخ بتلك الفترة التى حدثت فيها الغزوات أو التحركات العسكرية الأولى فى حوالى بداية القرن الثانى عشر وهى الفترة التى نعتقد فيه أن التمازج الذى حدث بين المجتمع الأفرنجى وبين المجتمع الشرقى قد وصل إلى درجة الذروة. فقرارات المجامع أو المجالس العليا القضائية جعلتنا نتعرف على الوضع الخاص أو الشخصى للمرأة النبيلة أو الحرة. وحقوق هذه فى امتلاك اقطاعيات كانت موضوعاً لمناقشات عديدة وكثيرة من جانب جان دى ابلين Jean d'Ibline ونوفار Novare ولكن الجميع اتفقوا على أنه كان يوجد نص صريح فى القانون يقر بأحقية الفتاة فى وراثة الاقطاعيات.ولكن فى الواقع كان يوجد شرط وحيد للتصريح بذلك هذا الشرط هو أن جميع الورثة من الذكور يفضلون على الفتيات فى إرث المقاطعة أو الاقطاعية إذا كانت القطع أو الاقطاعات الموروثة من قبل الأبوين عددها أقل من عدد الأولاد وأيضاً فإن الترتيب فى الميلاد بالنسبة للفتيات يلعب دوراً كبيراً فى هذا الموقف فمثلا الفتاة الكبرى ترث اقطاعية بأكملها بعد أن يكون كل الذكور قد نالوا حقوقهم من الإرث أما البقية فيقتسمن ما تبقى، ويتوقف هذا الحق أيضاً إذا كان يشرف على الاقطاعية ولو فارس واحد.

ـ هذا الشرط يوضع على جانب فيحق الإرث للبنات مثلهم مثل

الذكور. وكان القانون أيضًا يتيح للمرأة أو السيدة حق امتلاك الاقطاعية عن طريق الشـراء ولكن جـان دى ابلين Jean d'Iblin قـد رفض واسـتنكر هذا القانون خصوصًا بالنسبة للفتيات اللائى لم يتزوجن.

وعلى أى الأحوال فإن ملكية اقطاعية بالنسبة للمرأة تلزمها بالتزامات لا تجب على النبيل أو الوريث الذى يمتلك اقطاعية. فهى يجب عليها أن تخضع خضوعًا كاملا للأمير أو الحاكم وأن توفى بنصيبها إليه من الهدايا والعطايا والهبات وحتى إقراضه مثلها فى ذلك مثل الرجال. ويوجد أيضًا التزام آخر وهى أى المرأة يجب أن توكل بمهام إدارة اقطاعيتها هذه إلى أحد الفرسان أو تجعلها تحت رعايته طالما أنها كانت غير متزوجة ولكن فى هذا الوضع إذا رفض الملك أو الأمير أو الحاكم أن يمنحها هذا الحق فإنها فى هذه الحالة تكون مضطرة أن تتخذ زوجًا لها.

ولذلك فإن قانون حق التولى أو امتلاك الاقطاعيات خال دائمًا صارم جدًا حيال هذه الجزئية فى الشرق اللاتينى والذى بقيت فيه القوات المحاربة هيكلية فالأمير أو الحاكم لا يستطيع اعفاء اقطاعية واحدة من القيام بمهامها. والقانون يقول إن على السيدة التى تود أن تحتفظ باقطاعية قد ورثتها أو اشترتها الزواج من سيد يستطيع أن يديرها ويرعاها باسمها وإلا تعرضت للعقاب الشديد.

وكانت الفتاة التى تبلغ الثانية عشر وتمتلك اقطاعية كانت مضطرة للزواج من فارس يكون قد اختاره لها مليكها أو أنه من الممكن أن يكون الوصى عليها الذى هو فى الواقع أميرها ثلاثة فرسان من حقها أن تختار واحدًا منهم لتتزوجه.

وإذا لم يكن كلام فيليب نوفار Philipe Novare له مجالا للشك فيجب أن نصدقه عندما يقول أو يرى أن السيدات النبيلات كن يتزوجن

حسب إرادتهن. ولكن هذه الحرية التى تمتعن بها والتى كانت من الممكن أن تجعلهن يتزوجن من أزواج دون مستواهن دفع ملك بيت المقدس ومعاونيه أن يقرروا أن هؤلاء السيدات يجب أن يحصلوا على تصريح منهم بالزواج والموافقة على الزوج ونتيجة لذلك فإننا نجد أنه حتى الأبوين قد فقدوا حقهم فى اختيار الزوج لابنتهم وجاء هذا النص فى القانون: «إن السيد يمتلك القدرة أو من حقه أن يزوج السيدة أو الفتاة عندما يريد وبمن يريد».

وعلى أى الأحوال فإن النصوص حوت فقط بالنسبة للأرامل على الآتى:

«إن الملك لا يستطيع إجبارهن على الزواج بواحد بعينه فهو لهذا السبب يترك لهن الحرية للانتقاء بين ثلاثة فرسان أو يطلق عليهن بارونات وذلك بعد مرور واحد ويوم تظل أو يسمح للأرملة أن تنتحب وتحزن على زوجها المتوفى.

ونحن نعرف أن هذه الأوضاع قد اختلفت بعد أحداث عام ١٣٦٩م والذى كان من أهم سماته هو عصيان النبلاء القبارصة ضد الملك بطرس الأول Pierre I.

ولكن هل التقييم التاريخى لهذه الأحداث الذى كتبه نوفار Novare كان دقيقًا فنحن لا نعرف فى الحقيقة القيمة لتلك الروايات أو الأحاديث المتداولة التى استقى منها معلوماته وقام بتدوينها.

ـ ومسألة الزواج الخاصة بالنساء المالكات للاقطاعيات قد أوجد العديد من التأويلات والتفسيرات وذلك لتحديد من هو السيد الذى يستطيع أن يرغم السيدة على الزواج خصوصًا إذا كانت مالكة أو تمتلك لعديد من الاقطاعات نتيجة لزواجها بأكثر من زوج أى أن الزوج الأول يكون توفى فترث منه ثم تتزوج بآخر بعد وفاة الأول فيتوفى أيضًا وهكذا. ولكى نعرف

أن المرأة التى تخطت سن الستين (التى نتيجة للسن قد فقدت القدرة على الإنجاب) كانت تستطيع أن ترفض الزوج الذى يفرض عليها.

ولكن الآراء كلها اجتمعت على أن الطمع كان له النصيب الأكبر فى مسألة زواج هؤلاء السيدات. فلقد كان السادة يتكالبون على هذا الزواج وذلك للإثراء من وراءه. ولقد كتب جان دى ابلين Jean d'Ibelin أن السادة من الأوصياء كانوا أيضًا يقومون بإعاقة زواج الوريثات الذين يشرفون عليهن من أجل التمتع بعائد هذه الاقطاعيات لأطول وقت ممكن. وأخرون يضعون هؤلاء الوريثات تحت المزايدة. وطبقًا لقرارات المؤتمر المسيحى الذى أقيم فى نابس عام ١١٦٣م أو ١١٧٤م هذه القرارات تقول أو تبيح أنه فى حالة وقوع الملك أسيرًا فى أيدى المسلمين الذين كانوا يطلقون عليهم السراكنة (les Sarrasuns) فمن الممكن للنواب أو مجلس الأوصياء أو النواب أن يقوموا ببيع أملاك الوريثات لدفع ديته وتحريره.

ويؤكد جان دى أبلين أنه إذا كان الأبوان يريدان تزويج ابنتهما من رجل معين فإنهما يجب أن يحصلا على موافقة السيد بواسطة مبلغ من المال يدخل إلى خزانة الدولة.

وإذا طرحنا جانبًا هذا النظام المميز أو الخاص فى مسألة الزواج بالنسبة للمرأة النبيلة أو التى تنتمى إلى الطبقة الأرستقراطية العليا لا يختلف كثيراً عن وضع المرأة التى تنتمى إلى طبقات الدنيا أو الطبقات الشعبية. فهذه كتالك يجب أن تحصل على موافقة الزوج كى تلجأ إلى القضاء حتى لو كانت هذه المسألة ترتبط بجريمة قتل. وهذا نص القانون : «إن المرأة المتزوجة لا تستطيع أن تلجأ إلى العدالة ولو كان هدف اللجوء هو جريمة قتل إلا بعد أن تحصل على موافقة الزوج».

وكانت المرأة تستدعى إلى قاعة مغلقة فى المحكمة كى تشاهد زوجها

يدافعها عنها حتى لو أدى ذلك إلى تهديده باستخدام الأسلحة. ولكنه إذا رفض الزوج الدفاع عنها فهى تستطيع أن تلجأ فى هذه المسألة إلى بطل أو فارس آخر كما لو كانت بالضبط فى وضع الآنسة غير المتزوجة.

فى المسائل المدنية فإن الزوج هو أيضًا الذى يأمر زوجته أن تلجأ إلى القضاء وهذا يسمح لها بالحصول على مدة أو فسحة من الوقت حينما يكون مسافرًا أو هاربًا من شىء ما أن تلحق به.

بالنسبة للتجارة فإن السيدة أو المرأة كانت من الممكن أن تعمل بالتجارة وهى أيضًا فى هذا تكون تحت سيطرة الزوج الكاملة الذى يكون مسئولا فى هذا الوضع على أن يقوم بسداد الديون إذا تراكمت عليها.

وفى الحقيقة أحب أن أنوه هنا أن جميع القوانين التى أصدرتها المجامع والخاصة بشئون الزواج فهى مستقاة من القوانين الكنسية عدا القوانين الخاصة أو التى تتعلق بالشئون المالية والنقدية.

فرباط الزواج الأبدى وواجبات الخطوبة. وأيضًا فى حالات الطلاق أو الغاء الخطوبة فإن كل هذه المشاكل تودى إلى مشاكل مادية وكل هذه المشالك تذكرنا بالغرب المسيحى المنتمى إلى العصور الوسطى.

وكانت القوانين الكنسية فى الواقع تهتم بحماية حقوق المرأة وخصوصًا المادية فإذا كانت المرأة أدينت فى قضية ضرب مثلا فإن الغرامة أو الدية التى تدفها تبلغ نصف الدية التى يدفعها الرجل الذى فى نفس الموقف.

وعندما تريد أن تبيع إرثها أو شىء من ممتلكاتها فإنها يجب أن تحضر بشخصها إلى مبنى المحكمة. لتقر البيع فربما كانت مجبرة على البيع أو يمكن لزوجها الاستيلاء على إرثها. ولذلك فإنها عندما تحضر بشخصها إلى المحكمة فإنها تقوم بحلف اليمين أو القسم على أنها غير مجبرة على البيع وأنها تود أن تبيع فعلا بإرادتها.

وأيضًا فإنه بعض هذه القوانين تعتبر كقرائن توضح أهمية وضع المرأة فى هذا المجتمع اللاتينى وكيفية الاهتمام الشديد بتأمين حياتها وخصوصًا حياتها الزوجية فمثلا يمنع القانون طرد زوجته المصابة بمرض عضال أو خطير كمرض البرص أو الصرع مثلا إلا إذا قام بإثبات ذلك. فتوضع الزوجة التى يتهمها زوجها ذلك تحت رعاية أو ملاحظة عدد من السيدات لمدة ١٥ يومًا من الممكن أن تزداد إلى شهر وذلك للتحقق من حالة السيدة وإثبات صدق الزوج.

وأيضًا كانت تعامل المرأة معاملة الشخص القاصر الذى يجب على الدولة حمايته حتى لو كانت الحماية ضد الزوج.

إذًا فإن وضع المرأة فى المجتمع اللاتينى الغربى هو نفسه كان وضع المرأة فى المجتمع اللاتينى الشرقى.

بل ونحن نستطيع أن نقول أن وضع المرأة فى الواقع كان أكثر أهمية وأكثر عمقًا فى واقع الحياة اليومية خصوصًا فى ظل الحياة الشرقية ولنتأكد من ذلك فإننا يجب أن نستعين بمصادر أخرى غير قوانين المجالس أو المجامع فربما تساعدنا هذه الدراسة على التعرف على هذا الوضع حقيقة ولكن يجب أيضًا أن نحزر من بعض المعلومات التى يجب أن ندرسها ونحللها قبل أن نصدقها ونقتنع بها. ومثالا على ذلك:

رواية تروى عن شخص يدعى نورماند Normand وهو يقال عنه أنه كان حاكم بربروستا يقال عن هذا الحاكم أنه كان يمتلك فى قصره مجموعة من الجوارى المسلمات يتسرى بهن وهذا شيء لم يوجد مثيلا له فى الشرق اللاتينى. فنحن نعرف أن نظام الرقيق والرق هذا كان شديد الانتشار فى ذلك الزمان والمكان وأن أعدادًا من المسلمين كانوا قد بيعوا كعبيد وكانوا السادة اللاتين يتمتعن بهن فى قصورهم مما أثا ضدهم العديد

من الآراء المضادة التى تندد بتلك العادة الشرقية المذمومة ومن أولئك الذين عفوا باستنكاهم لهذه العادة جاك دى فيترى ولكن مع هذا فإنه لم يقم بالإشارة إليها فى كتاباته.

ونحن نذكر هنا فى هذا المجال بأن حاكم عكا قد أدان وحرم أولئك الذين يصادقون العاهرات ويقومون بمصادقة ومصاحبة وإقامة علاقات مع سيدات متزوجات فى غياب أزواجهن.

ونحن نجد أن الكتابات الوحيدة التى اهتمت بحالة الرق وخصوصاً فى هذا المجال الذى تحدثنا فيه من قبل هم كتابات المجامع أو الكهنوت وهكذا فإن الوضع فى مجمع قبرص الذى عقد فى عام ١٣١٣م يمنع أى كاهن أو رجل دين لاتينى أن يجيء أو يجعل امرأة محط شبهات أن تقيم فى بيته وبالأخص إذا كانت من الجوارى فإذا لم ينفذ هذه الأوامر فإنه سوف يتعرض للطرد.

وأنه على الأخص فإن الاجتماع الذى حدث فى نابلس فى عام ١١٢٠م الذى حرم واتخذ موقفًا متشدداً حيال هذا النوع من الأوضاع وكان هذا فى الوقت الذى كان مازال الفتح اللاتينى فى بدايته ولقد تم إصدار قانون فحواه أن المسيحى الذى يتخذ مسلمة كعشيقة أو كمحظية يجب أن يقبض على هذه المحظية وأن يوقع عليها الجزاء والجزاء هو أن تجدع أو تكسر أنفها هذا فى حالة إذا كانت موافقة على هذا الوضع وأما فى حالة العكس فكانت لا تمس ولكنها كانت يذهب بها لتخدم فى قصر الحاكم وهكذا فإن الجوارى المسلمات أو الحرائر المسلمات اللاتى يتعرضن للوقوع فى الأسر أثناء سفرهن يستخدمن كخدم للقيام بالأعباء المنزلية وخصوصاً فى المطبخ.

ويوجد أيضًا حدث آخر يوضح لنا وضع المرأة فى بلاد المشرق هذا

الحدث خاص بالمسيحيين الأرثوذكس وليس المسلمين.

فهناك جاك دى فيترى Jacques de Vitery الذى لا يحب ولا يميل مطلقًا إلى العاهرات والذى يقول عنهن أنهن السبب فى كل المتاعب والمشاكل يحدثنا عن دليل قائم ومحدد فهو يذكر لنا أن المسيحيين السوريين يقمن بحجز زوجاتهم على طريقة المسلمين ويضربوا عليهن الخمار أو يحجبونهن ويخفونهن عن الأنظار.

بطبيعة الحال فيوجد هنا بعض المبالغات فإن المؤرخين كانوا يبالغون فى تصوير العادات الشرقية التى كانوا يرونها شديدة الانحلال.

ومنذ عام ١١٢٥م نجد أن فوشيه دى شارتير Foucher de chartres وهو مؤلف مشهور ومتفرد قد تعرض أو أشار فى كتاباته للزواج المختلط الذى كان يجمع بين الإفرنج اللاتين من الغرب وهم من اليونانيين والأرمن وبين السوريين ومن الغريب أيضًا أن نعرف أن بعض المسلمات قد عمِّدن.

هناك بعض الدلائل التى تؤكد امتزاج التقاليد والعادات. فكهنة نيقوسيا لم يكفوا عن محاربة فى القرن ١٣ والـ ١٤ عادة البكاء على المتوفى وأيضًا عادة استئجار الندابات المحترفات.

ولكننا نستتنج من ذلك كله أن شهادة الكتاب الشرقيين لا تتفق مع كتابات أو مدون القسيس أو الأرشيدوق Eveque وذلك يرجع إلى كونه رجل ولد فى الغرب واستنبت فى الشرق.

ولنرى الآن وجهة نظر الشرقيين فى هذا المجتمع اللاتينى فنجد أنه وجد أمير يدعى الأمير أسامة قد صدم بالعادات الغربية لهذا المجتمع الذى سبق الإشارة إليه. ولقد روى الأمير أسامة أنه رأى أحد الرجال الإفرنج يقود ابنته فى الحمامات الشعبية ليقوم بغسلها وسط الرجال وعندما استفسر منه الأمير عن سبب هذه الفعلة. أدار له الرجل رأسه موضحًا له أن والدة الفتاة قد

ماتت وأنه لا يوجد أحد يقوم بغسل شعرها ولذلك فإنها اصطحبها معه ليقوم هو بهذه المهمة.

وأيضًا تلك الرواية الأخرى التى رواها رجل يعمل فى إحدى الحمامات الذى طلب منه فارس من الفرسان الإفرنج أن يقوم بنزع الشعر الذى فى جسد زوجته. ولقد عقب هذا الرجل على هذا الطلب بقوله: هاهم رجال بدون نخوة ليسوا غيورين وليس لديهم أى كرامة. إذًا فعمومًا فإن الشجاعة عند الشرقيين تستنبط من نقطة الكرامة.

ولكى نثبت أن الإفرنج يجهلون مسألة الغيرة روى الأمير أسامة بعض الحكايات والأفعال الأخرى التى أكد الأمير أنه كان شاهد عيان بنفسه على أحداثها. فيبدأ حديثه بقوله أن الفرنجة أو الإفرنج يجهلون الشعور أو الإحساس بالغيرة فيقول لو أن أحدهم صادف امرأته وهى تتنزه مع شخص آخر ويدها فى يده منتحيًا بها جانبًا، فإن الزوج فى هذا الموقف يقف ساكنًا وفى وضع لا يشاهد منه. فإذا طال هذا الموقف فإن الزوج ينصرف تاركًا المكان لهم.

ويقول الأمير رواية أخرى عن ذلك السمسار أو الدلال الذى عاد من نابلس والذى عندما دخل إلى حجرة نومه وجد فى فراشه رجلا يضاجع امرأته، فصاح الزوج «يا للمصادفة» ثم صاح قائلا مرة أخرى ما الذى جعلك تدخل وتنام فى فراشى بجانب زوجتى فأجاب العشيق كنت مرهقًا ولقد نمت فى فراشك كى أستريح، ولكن كيف جرؤت أن تدخل إلى فراشى يستطرد الزوج. فيجيب العشيق لقد شاهدت وكأنما سجادة فوق المرتبة فنمت عليها. فيقول الزوج ولكن زوجتى تنام بجوارك فيجيب العشيق السرير ملكًا لها فكيف لى أن أطردها منه. فيجيب الزوج متواعدًا فيقول أنه طبقًا لتعاليم دينه فإنه سوف يقوم بالفصل بين الغطاء وبين المرتبة إذا عاود لفعل هذه الفعلة مرة أخرى.

ويعقب الأمير أسامة على هذه القصة بقوله: هاهى الغيرة عند الإفرنج.

ويقول الكاتب بهذا الصدد بأن الأمير السورى أسامة من المؤكد أنه قد
ابل مع شخص غير متزن عقلياً.

فقوانين مجلس نابلس تنص على أن المزور كان يعاقب عاقبًا شديداً
رادعاً.

فى نابلس نجد أن عقوبة الموت قد استبعدت أو ألغيت بالنسبة للمرأة
لخائنة واستبدلت هذه العقوبة بالتحريم أو النفى كجزاء لها على جريمتها.
إذا غفر لها زوجها أو صفح عنها فإنه يطرد معها من الإمارة بأسرها.

ومجمع أو مجلس الملك عمورى قد أجاز للزوج المخدوع أن ينتقم
نفسه من الاثنين ولكن يمنع قتل واحدٍ منهم وترك الآخر. خوفًا من أن
يوجه للزوج الاتهام بالقتل ويواجه عقوبة الإعدام شنقًا. إذاً فمعنى الكرامة
والشرف عند الإفرنج يختلف تماماً ويبتعد عن وجهة النظر المسلمة التى يؤمن
بها الأمير أسامة. ولكن من الواضح أن الذى يدهش أو يصدم الأمير أسامة أو
يظهر استنكاره هو كيف أن المرأة الإفرنجية تتمتع بحرية لا حدود لها. أما
بالنسبة لرجل غربى جاك فيترى Jacques de Vitry هذه الحرية تبدو وكأنها
مغلولة ومقيدة للغاية. ولكن كرجل شرقى مثل الأمير أسامة فإن هذه الحرية
التى تتمتع بها المرأة الإفرنجية تعتبر حرية مبالغ فيها. وأيضاً إن تلك القوانين
التى عددها أرشيدوق عكا فى حوالى ١٢٢٠م تعتبر دليلا على تغيرات فى
العادات، ونلاحظ هنا أن كتابات الأمير أسامة كانت مبكرة عن تلك
القوانين التى أصدرها أرشيدوق عكا بنحو خمسين عامًا فإن هذا يدعو
للشك. وعكا منذ الحملة الصليبية الثالثة قد اتخذت حاضرة والاضمحلال
الذى أصاب المستعمرات الإيطالية وأيضًا لازدياد أهمية عكاالتى تتضاعف
نتيجة لكونها ميناء هام ولأنها أيضًا تضم خلف أسوارها جزءً كبيراً من
السكان اللاتين الذين كانوا أهل مملكة القدس الأصليين. وأنه مما يبعث عن

الاندهاش هو أن العادات الحياتية أو عادات وممارسات الحياة العادية أصبحت شرقية واصطبغت بالصبغة الشرقية فى نفس هذه الفترة الزمنية وأنه مما يعتقد أن جاك دى فيترى Jacques de vitry مثله مثل أسامة قام بتعميم الأشياء وبالغ فيها.

وهكذا فدائماً إن وضع المرأة فى المجتمع الإفرنجى فى الشرق يظهر لنا وكأنه غربى أكثر منه شرقى. فالمرأة أو La dama كما يطلق عليها العرب تستطيع أن تحكم الإمارة وتمارس شئون هذا الحكم.

فى مجتمعات أخرى نجد أن المرأة تستطيع أن تمارس التجارة فهى عند تنقلها من مكان إلى مكان تنتقل وهى محجبة الوجه. وفى الواقع فإن زوجها يترك لها حريتها ولا يعاملها كالحريم. والمجالس أو المحكمة أو الكنائس كانت تستقبل الشاكيات المتهمات لأزواجهن بمختلف التهم فكانت تكفل لهن الحماية. والمرأة كانت تعامل أيضاً كشخص قاصر ولكن هذا لا يمنعها هذا من الحصول على حقوق كثيرة تتيح لها سعة فى الحرية يندهش لها الشرقيون وهكذا وعلى الرغم من رد الفعل العنيف أو بعض الأحكام العنيفة نتيجة لتأثير العادات الشرقية فإن وضع المرأة يبقى بوصفه مرأة غربية قد أنبتت أو تم زرعها فى الشرق.

وعلى ذلك فنحن نقول أن وضعها لا يبدو وضعاً وسيطاً بين وضعها فى الشرق وأيضاً كوضعها فى الغرب.

الزنا (الدعارة) : واختلاط الأجناس والتطهير الجنسي في الحرب الصليبية الأولي

جيمس أ. برونديج

James A. Brundage, Prostitution, Miscegenation and Sexual Purity in the First Crusade. In: Crusade and Settlement, ed. by P.W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 57-65.

لقد كانت الحرب الصليبية الأولى ـ فى البداية ـ بمثابة حج وعملية تكفير لذنوب المشتركين فيها. فأمل الصليبيون فى أن تمحو عنهم تلك الحملة خطيئتهم وتخلصهم من الكفارة المستحقة على ذنوبهم[١]. ويعتبر الفحش الجنسى جانبًا أساسيًا من الخطيئة التى أحس بها الصليبيون عن يقين. وفى الواقع أجمع من كتبوا حول الموضوعات الأخلاقية فى العصور الوسطى على أن ممارسة الجنس شيء نجس، عمل آثم يدنس الجسد والروح معًا[٢]، وهكذا كان من الصعب أن يكون الجنس بأى شكل على وفاق مع المثل العليا للحياة المسيحية، وحتى فى الزواج، كان الجماع يشوبه دائمًا نحو من خطيئة الشهوة الجنسية. ولكنه فى نفس الوقت كان لزامًا على الزوجين إقامة علاقات جنسية عند الحاجة. مع الامتناع عن الجماع لفترات قصيرة برضاء الطرفين[٣] اتباعًا لتعاليم القديس بول St. Paul (1 Cor. 7 : 5) فضلا عن ذلك فقد تضاربت الأقوال فى كتب الغفران إبان بداية العصور الوسطى حول الزام المتزوجين بالابتعاد عن الجماع خلال فترات هامة من العام الكنسى: خلال الصوم الكبير، والآحاد الأربعة، وأيام الأحد، والأعياد (ووقفات) وعشيات الأعياد الكبير، والأسبوع الذى يسبق عيد الخمسين، وعند البعض، خلال كل أيام الأربعاء والجمعة والسبت على مدار العام[٤]. أما الأشخاص الذين يؤدون كفارة مثل الحجاج على سبيل المثال، فهؤلاء كان يجب عليهم الامتناع التام عن الجنس[٥].

هذا الفرض الرقابى للجنس، نمى بشكل أكثر وضوحًا إبان فترة الإصلاح الجريجورى Gregorian Reform[٦] فقد ردد نفس تلك الآراء أصحاب السلطة الدينية الكبار أثناء فترة الإصلاح خاصة الأسقف بورشارد Bishop Burchad of Worms (٩٦٥ – ١٠٢٥م) والأسقف إيفو Bishop Ivo of Chartres (1040 - 1116) وهؤلاء لم يقوموا فقط بحظر العلاقات الجنسية غير المشروعة بكل أشكالها فى أى وقت وتحت أية ظروف ولكنهم

رددوا نفس القيود المتعددة التى وضعها الكتاب الأوائل حول العلاقات الجنسية بين الزوجين بل وأضافوا غيرها من عندهم[٧] . وتعد آراء (إيفو) ملائمة لتفهم المواقف تجاه الشئون الجنسية للمشتركين فى الحرب الصليبية الأولى إذ أنه ألف أعظم مقالاته الدينية Decretum, panormia بين عامى ١٠٩٤، ١٠٩٦ فى نفس الوقت الذى بدأت تتشكل فيه الحركة الصليبية[٨]. والقيود التى أوردها (إيفو) حول العلاقات الجنسية لم تكن خاصة به وحده إذ نجد أفكاراً مشابهة تشيع فى كتابات معاصريه مثل زميل دراسته رئيس أساقفة كانتربرى «القديس انسيلم» ١٠٣٣ - ١١٠٩م St. Anselm of Bec ورئيس الدير «جيبرت» Abbot Guibert of Nogent (١٠٥٣ - ١١٢٤م) والذى كان أحد المؤرخين الكبار للحرب الصليبية الأولى [٩].

وعلى ضوء ما تقدم، فليس من المدهش أن نجد الكتابات المعاصرة للحرب الصليبية تتخذ موقفاً متشدداً تجاه الأنشطة الجنسية للمشاركين فى تلك الحملة. وهذا البحث سيتناول مشكلة الأخطاء الجنسية للصليبين ومعالجتها على يد الكتاب المعاصرين. وسأتناول أربعة موضوعات رئيسية:

- مشاركة المرأة فى الحرب الصليبية الأولى ودورها فى الجيش الصليبى.
- علاقات الصليبيين الجنسية غير المشروعة.
- زواج الصليبيين من النساء غير اللاتينيات.
- الاعتداء الجنسى المتبادل خلال الحرب الصليبية الأولى.

عندما أعلن «البابا أربان الثانى» Pop Urban II الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٥، فإنه لم يتوقع مشاركة المرأة فى هذه الحملة، والمؤرخون الذين سجلوا خطبته فى كليرمونت Clermont يذكرون أنه منع النساء من المشاركة فى الحرب الصليبية[١٠]، فأوربان ومعاصروه أرادوا أن تكون هذه الحملة خالصة للرجال، وتصف الخطابات الرسمية بالإضافة إلى كتابات الشعراء

والمؤرخين مناظر مروعة يهجر منها الرجال زوجاتهم بينما تتحسر الزوجات أسفًا على فقدان صحبة وحماية رفقائهن[١١]. ولكن فى الحقيقة لم تقتصر الحرب الصليبية كلية على الرجال فقط، ولم تقبع كل النساء فى بيوتهن بعد رحيل الرجال إلى القدس (أورشليم). فضمت الجيوش المشاركة فى الحرب الصليبية الأولى نساء من أنواع عديدة فكان هناك نساء متزوجات يرافقن أزواجهن وراهبات، وعاهرات، ونساء ذات وضع مبهم[١٢].

ويبدو أن وجود العاهرات فى الحرب الصليبية قد أصاب بعض المؤرخين بصدمة، فقالوا إن العاهرات والنساء الفاجرات والأنواع الإجرامية الأخرى وغير الشريفة قد لوثت الجيوش الصليبية، وأصبن الجند بعدوى رذائلهن[١٣]. ويؤكد رئيس الأساقفة «بالدريك» Archbishop Paldric of Dol قيام الصليبيين خلال حصار «نيقية» Nicaea بإغلاق دور الدعارة فى معسكرهم. ويضيف قائلا إنه على الرغم من مصاحبة بعض الصليبيين للنساء خلال الحصار إلا أنهن كن إما زوجاتهم أو مجرد خادمات لهم[١٤]. وعندما وصل الجيش إلى «أنطاكية» Antioch، عادت المواخير للنشاط من جديد داخل المعسكرات نفسها[١٥]. وهذا أمر بالكاد مدهش، فالجيوش دائمًا ما جذبت إليها التابعين (الأتباع)، والحروب الصليبية المتأخرة بالتأكيد كان لها نصيب من بيوت الدعارة المنظمة[١٦]. ويزعم بعض الكتاب الحديثين أن الصليبيين العائدين هم المسئولون عن وجود بيوت الدعارة فى أوربا الغربية، ولكن هذا ليس صحيحًا، فالغرب كان مليئًا بمثل هذه المؤسسات قبل عام ١٠٩٥م بكثير[١٧] من العاهرات والنساء الأخريات فى صفوف الجيش الصليبى قدموا عدداً من الخدمات للجنود، فبالإضافة إلى تلبية مطالبهم الجنسية نقرأ عن نساء يساعدن المحاربين أثناء المعركة، يحضرن لهم الطعام والماء، ويمرضهن، ويستحثنهم على القتال[١٨]، وكما يقول بالدريك Baldric، لعبت النساء وغير المحاربين الآخرين أدوارًا هامة فى الاستراتيجية المعنوية للحرب الصليبية،

يتضرعون للربّ بالدعاء بينما يحارب الرجال اللائقون جسدياً[١٩]. وبالتأكيد شاركت النساء أيضًا فى العمليات العسكرية، ويذكر المؤرخون بين الحين والحين أن امرأة لقت حتفها أثناء القتال[٢٠].

ولكن الغالبية العظمى من الملاحظات الخاصة بالنساء فى سجلات الحرب الصليبية تتعلق بالإغراءات الجنسية التى قدمنها للرجال وخضوع الرجال لهن بصفة متكررة. وأصبحت نزعة الصليبيين للممارسة الجنسية لازمة غالبًا ما تتكرر فى الكتابات السردية. وجعل المؤرخون من الممارسات الجنسية لرجال الجيش سببًا فى جميع النكسات التى منى بها الجيش الصليبى[٢١]. فعندما هزم المجريون صليبيى «جوتشاك» Gohschalk الشعبيين، ذكر «ألبرت» Albert of Aachen أن السبب فى ذلك كان انغماس الصليبيين فى الزنا[٢٢]. كما أعلن فولتشر Fultcher of Chartres أن كمين «قلج أرسلان» Qilij Arslan للجيش الصليبى فى دوريلايوم Dorylaeum نتج عن فسوق الصليبيين[٢٣]. ولم يكن سجلهم عند «أنطاكية» Antioch بأفضل حالا حيث انطلقوا بشهوة عارمة لا تعرف أى معنى للاعتدال، واندفعوا حال وصولهم إلى الجنس أكثر وأكثر وإلى الزنا، وأشكال من الفحش لا اسم لها[٢٤]. وعندما ضرب الحصار حول المدينة وبدأت الإمدادات فى التناقص. عدل الصليبيون من أسلوب حياتهم فكوفئوا بالاستيلاء على المدينة. وبمجرد استتباب الأمر بدأوا من جديد علاقاتهم مع نسائهم الفاجرات، فكانت النتيجة الحتمية، كما يذكر المؤرخون عن اقتناع كاف، وصول جيش «كربوغا» Kerbogha ليحاصر الصليبيين داخل «أنطاكية» . ومرة أخرى قوم الصليبيون سلوكهم، وعندما فعلوا ذلك نصرهم الرب على كربوغا[٢٥]. هذا الأسلوب ظل قائمًا حتى بعد انتهاء الحرب الصليبية الأولى. واستمر الإسراف الجنسى وفسوق المستعمرين اللاتين يتخذ كمبرر للانتكاسات العسكرية التى واجهوها[٢٦]. وقد كان الدرس واضحًا،

فالمسيحيون متيقنون من النصر فى الحياة الدنيا والخلاص فى الحياة الآخرة، هذا ما داموا يتجنبون الخطايا الشهوانية[٢٧].

وإذا اعتقد القواد الصليبيون أن التحرر الجنسى سبب الكوارث العسكرية، كما ادعى المؤرخون عن ثقة، فإن الخطة الجلية لتجنب الهزيمة كانت التطهير الجنسى عن طريق إبعاد العاهرات وربما حتى النساء المتزوجات عن المعسكر قبيل المعارك الحاسمة، وهذا بالفعل ما قام به القواد[٢٨]. فمن أجل تحجيم النوازع الجنسية لدى الجنود وبالتالى إحراز النصر، قام القواد بإبعاد العاهرات والنساء غير المرتبطات فى أوقات الخطر[٢٩]. وعلى الرغم من أن ريموند Raimond d'Aguiters اعتبر أن العلاقات الجنسية بين الرجل وزوجته ليست سبباً فى غضبة الرب[٣٠]، نجد آخرون خافوا من أن أى نشاط جنسى قد يغضب الرب. ومن هنا وجدنا القادة فى أثناء حصار أنطاكية يأمرون بإبعاد النساء المتزوجات من المعسكر لئلا يخضع أزواجهن للرغبة الجنسية فى عشية المعركة[٣١]، ويذكر «ألبرت» Albert of Aaehen أن عدة آلاف من النساء المبعدات لجأن إلى مستعمرة محصنة قريبة أقمن فيها حتى استسلمت أنطاكية[٣٢].

وبالإضافة إلى تجنب الإغراء عن طريق إبعاد النساء، بصفة مؤقتة على الأقل، تحاشى القواد الصليبيون غضبة الرب عن طريق طقوس الاستغفار والتطهير الروحى قبل المعارك الهامة. فتصف المصادر الأدبية مثل «أنشودة البطولة» Chansons de geste بصفة عامة الجنود وهم يؤدون الاستغفار الجماعى قبل المعارك، وجيش الحرب الصليبية مارس تلك السياسة الروحية بصفة دائمة[٣٣]، فقبل مهاجمة قوات كربوغا فى أنطاكية قام الجنود بالصوم لمدة ثلاثة أيام، واعترفوا بخطاياهم، وتناولوا العشاء الربانى، ووزعوا الصدقات[٣٤]، وقبيل الهجوم الأخير على القدس فى يوليو ١٠٩٩، مارس

الصليبيون بالإضافة إلى ما تقدم نظام جديد لطقوس الاستغفار، ففضلا عن الصوم، وبذل الصدقات، والاعتراف، والعشاء الرباني، استمعوا إلى وعظ، وساروا عراة الأقدام في موكب استغفار حول المدينة[٣٥]. مثل هذه الممارسات ظلت قائمة حتى الحروب الصليبية المتأخرة، وأصبحت من الطقوس الصليبية الأساسية[٣٦].

طقوس الغفران هذه لم تظهر للرب فقط أن الصليبيين قد ندموا على هفواتهم الجنسية، والنقائص الأخلاقية الأخرى، ولكنها أيضًا أوضحت للجنود أن قادة الحملة أرادوا إقامة نظام صارم للسلوك الجنسي. ولتأكيد ذلك أصدر القادة مرسومًا صارمًا ينص بمعاقبة من يخرق القواعد الخاصة بالسلوك الجنسي. وليس من غير المتوقع أن نجد العقوبات غالبًا ما تقع على النساء المتورطات أكثر من الرجال. فقد كان ذلك في الحقيقة هو النمط الشائع لتنفيذ القانون في أوروبا أيضاً[٣٧]، وحسبما يقول «جيبرت» Guibert of nogent، تعرضت الحبلى من النساء غير المتزوجات إلى التعذيب الشديد atrocibus supliciis هن وقوادوهن . وربما يكون وصف جيبرت مبالغًا فيه، إذ نعرف أنه كان يعارض الجنس بجميع أشكاله معارضة شديدة[٣٨]، ويقدم لنا ألبرت Albert of Aachen وصفاً أكثر وضوحاً بل أكثر اعتدالا، للعقوبة التي كانت تطبق على المتهمين (المتورطين) جنسياً.

«يتم تجريد الزاني والزانية من ملابسهما، ويجبرا على المشي حول الجيش وأيديهما مكبلة خلف ظهريهما، والجلادون يضربونهما بشدة بالعصي حتى يخاف الآخرون من رؤيتهم لتلك المعاملة القاسية، فلا يقعوا في نفس الجريمة»[٤٠].

وربما يشير هذا الوصف لقضية الراهب وعشيقته اللذان أدينا بالزنا عن طريق التعذيب بالحديد المتوهج، وجلدا بالسياط عاريان داخل المعسكر

الصليبى كما يخبرنا شاهد آخر[٤١]. وعلى أية حال فإن مثل هذه العقوبات كانت غالبًا ما تطبق على المتهمين جنسيًا فى الغرب[٤٢]. وقد نبه المؤرخون الصليبيون قرائهم إلى أن مرتكبى الفواحش الجنسية من الصليبيين قد يواجهون موتًا مفاجئًا، كما حدث على سبيل المثال لرئيس الشمامسة وامرأته الآثمين، اللذان قتلا بطريقة شنيعة على يد عسس تركى فاجأهما بينما كانا يلعبان النرد فى بستان[٤٣].

ومن المحتمل أن الكتاب الذين وصفوا الحرب الصليبية الأولى قد عكسوا خوف المشاركين فيها عندما وصفوا الفسوق الجنسى لأعدائهم. فقد قدموا لنا المسلمين كمدمنى أشكال فظيعة من الفسوق الجنسى. ووصفوهم على أن لديهم شبق خاص لمفاتن المرأة المسيحية العفيفة[٤٤]. وكان ألبرت Albert of Aachen بصفة خاصة مغرمًا بمثل تلك القصص، مثل حكايته عن محاولة أحد الأتراك اغواء عاهرة فاتنة من «تريز» Trier [٤٥] ووصفه لزواج أرملة صليبية من ملك تركى[٤٦]، وقد روع الفسوق الجنسى عند البيزنطيين المؤرخ «جيبرت» بصفة خاصة : وهو يذكر أن اليونانيين أدمنوا الإفراط فى الجنس لدرجة أن الحكومة الإمبراطورية ابتكرت نظامًا للدعارة الإجبارية بإلزام كل عائلة بتخصيص حصة من بناتها للحمامات العامة[٤٧].

لم تكن المغامرات الجنسية بالطبع قاصرة على الفاسقين الأتراك الذين مارسوا أساليبهم القذرة مع النساء المسيحيات العفيفات. ففى فترة مبكرة من الحرب الصليبية، وقع الصليبيون فريسة فى شراك النساء اليونانيات. وسرعان ما بدأ بعض الفرنجة فى تفضيل مفاتن النساء البيزنطيات على مفاتن نسائهم. وهو تطور يصفه جيبرت باشمئزاز كبير. والأسوأ من ذلك، يضيف جيلبرت قائلا، أن لجأ بعضهم إلى الغلمان اليونانيين المتوافرين فى دور الدعارة التى تديرها الدولة[٤٨]. ومما صدم بعض المؤرخين الآخرين سماع

تخصيص النساء الشرقيات للجنود الغربيين. وقد فاحت عن علاقات الصليبيين بالنساء الشرقيات، كما يقول الراهب ستيفن Stephen أثناء حصار «كربوغا» لأنطاكية، رائحة نتنة بلغت أعنان السماء[٤٩]. إن الصليبيين باستطاعتهم أن ينالوا تأييد الرب فقط عندما يتركوا عشيقاتهم المحليات[٥٠]. وهذا ما فعلوه بالضبط ولكن بصفة مؤقتة. وبالتأكيد كان الوصول الجنسى للنساء المسلمات أمراً سهلا على الصليبيين. فبالإضافة إلى الدعارة الحرفية انتظر الصليبيون وحصلوا بالتأكيد على خدمة جنسية بالإضافة إلى الخدمة المنزلية من النساء المسلمات اللاتى أسروهن وتبادلوهن فيما بينهم[٥١].

ولكن لم تكن كل الاتصالات الجنسية بين الصليبين والنساء الشرقيات غير مشروعة، ففى فترة مبكرة عام ١٠٩٨م أثناء حصار أنطاكية، سجل تيودبوده Tudebode أن كربوغا أباح الزواج من النساء المسلمات كإغراء لجذب انفصاليين عن الجيش الصليبى[٥٢]. وعندما استقر الحال بالرجال اللاتين فى الشرق، بدأوا فى الزواج من نساء الإقليم. وفى فترة شهيرة من تاريخه الخاص بالمستعمرات اللاتينية التى تلت الحرب الصليبية الأولى، يورد فوشيه Fulcher ofChartres عادة زواج اللاتين من النساء المحليات.

«بينما قد يحصل مستعمر على منزل وأسرة، كحق مكتسب وموروث. فإن مستعمر آخر ربما يتخذ زوجة ليست من نفس الأصل، ولكن سورية أو أرمينية أو حتى مسلمة تم تعميدها»[٥٣].

وقد أصبح نسل هذه الارتباطات بين الأجناس طبقة اجتماعية خاصة Turcopoles داخل الإمارات اللاتينية[٥٤].

من الواضح أنه كان هناك شيئًا من التكافؤ بين المستعمرين اللاتين بخصوص العلاقات الجنسية بين أهاليهم وأهالى المسلمين. وقد قام مجمع

نابلس فى عام ١١٢٠م، والذى كان بالفعل، كما يوضح براور Prower، برلمانًا أكثر منه هيئة دينية مسيحية بالمعنى المألوف[٥٥]، بتطبيق عقوبات صارمة ضد من يقوم من الرجال اللاتين بإقامة علاقات جنسية غير شرعية مع النساء المسلمات .

«إذا ثبت أن أحداً ضاجع امرأة مسلمة برضاها، يخصى الرجل ويقطع أنف المرأة»[٥٦] .

وقد عاقب مجلس نابلس أيضاً النساء اللاتينيات اللاتى مارسن علاقات جنسية مع الرجال المسلمين.

«إذا رضت امرأة مسيحية ممارسة الجنس مع رجل مسلم، يطبق على كليهما عقوبة الزنا، أما إذا اغتصبها عنوة، فهى غير مذنبة، ويخصى الرجل»[٥٧] .

ومخافة أن يتذرع المتهمون بهذه الاتهامات بعدم علمهم بالموقف الدينى لشريكهم. فقد قرر مجمع نابلس أن من يتشبه من المسلمين بالفرنجة يتخذ عبداً[٥٨] . فقرارات مجلس نابلس سعت خصيصاً للحد من العلاقات الجنسية بين المسيحيين اللاتين والأهالى المحليين الذين ظلوا على ولاءهم للإسلام. فالمحظورات استهدفت العلاقات الجنسية على أساس دينى وليس الأساس العرقى. فاللاتين خاصة الرجال، كانت لهم الحرية فى الزواج من امرأة سورية أو أرمينية من المسيحيات أو حتى الزواج من المسيحيات المرتدات عن الإسلام، ولكن الزواج من مسلمة بالفعل كان عرضة لعقوبة صارمة. الديانة إذن، وليست السلالة أو العرق، كانت الناحية التى أكدت عليها قرارات مجلس نابلس.

وأخيراً هناك موضوع الاعتداء الجنسى أثناء الحرب الصليبية الأولى، أحد الاتهامات التى يتهم بها المسيحيون المسلمين هى تهمة دأب المسلمبن

على اغتصاب النساء المسيحيات فى المقاطعات التى غزوها. وفى الوصف الذى يقدمه «روبرت الراهب» Robert the Monk لخطبة البابا أوربان الثانى فى كليرمونت نجد البابا يتهم الأتراك بالاعتداء على نساء أناتوليا Anatolia[٥٩] . وهناك مؤرخون آخرون يتهمون أعداءهم باغتصاب عاهرات ونساء آخريات أثناء الحرب الصليبية الشعبية[٦٠] . واغتصاب الفتيات والنساء الأرمينيات فى «عرقا» Arqa[٦١] ووضع الأسرى من الغلمان والنساء فى المواخير[٦٢] ، وإباحة الاغتصاب كحافز لجنودهم[٦٣] .

ولكن الصليبيين أنفسهم لم يكونوا بمنأى عن اتهامات مشابهة، فأحيانًا ما يشير المؤرخون الغربيون إلى اغتصاب وسوء معاملة الجيش الصليبى للنساء[٦٤] وأحيانًا ما ارتكب الصليبيون صنوفًا من الاعتداء الجنسى فضلاً عن الاغتصاب . أحد الأمثلة على ذلك حادث وقع أثناء الحرب الصليبية لعام ١١٠١م، عندما قامت الكتائب اللاتينية بفصل نهدى امرأة مسيحية كانت تقوم بالدفاع عن منزلها أثناء هجومهم[٦٥] . وبلا وعى ربما يكشف عن موقف الجنود الصليبيين تجاه نساء أعدائهم المهزومين شبه تفاخر فوشيه Flucher بأنه عقب هزيمة كربوغا Kerbogha فى أنطاكية:

«لم يقم الفرنجة بإيذاء النساء اللاتى وجدوهن فى خيام العدو سوى أنهم مرروا رماحهم خلال بطونهم»[٦٦] .

ومع ذلك لم يكن المستعمرون اللاتين فى الأراضى المقدسة، على استعداد لإباحة (السماح) بالاعتداء الجنسى على المسلمات اللاتى أصبحن الآن خاضعات لهم. ولهذا نجد برلمان نابلس يضع عقوبات صارمة ضد من يقوم من اللاتين والآخرين بالاعتداء الجنسى على النساء.

«إذا اغتصب أحد بالقوة امرأة مسلمة من أهل بيته، تستبعد هى ويخصى هو . وإذا ارتكب أى شخص اغتصاب بالقوة لامرأة مسلمة من أهل بيت غيره يتعرض لنفس العقوبة»[٦٧] .

إن تاريخ الحرب الصليبية الأولى هكذا، فى ضوء الأدلة التى عرضناها، يظهر وبه تكافؤ أساسى فيما يتعلق بالسلوك الجنسى، وبينما حاول رجال الدين وقلة من القادة العلمانيين تحجيم الأنشطة الجنسية للقوات الصليبية، فإن الغالبية العظمى من الجنود لم تنفذ هذه السياسة بحذافيرها. فقد صاحبت الجيوش الصليبية نساء من أنواع عدة، ووقعت بينهن وبين القوات علاقات جنسية منتظمة. وفى الأوقات الحرجة فقط كان لدى القادة، الدينيين والعلمانيين، القدرة على فرض قيود وقتية (طارئة) على الأنشطة الجنسية لاتباعهم، هذه الفترات الحرجة تركزت فى حالة التأهب للالتحامات الكبرى مع العدو. وقد صاحبت هذه الفترات أيضًا نشاط استغفارى محموم من الدعاء والصوم وبذل الصدقات وما شابه ذلك وإنما ما صاحبت الحظر الجبرى للعلاقات الجنسية. هذا التزامن بين الاستغفار والحظر الجنسى والأزمة خلال الحرب الصليبية كان متوازيًا بدرجة مذهلة مع إصرار الأخلاقيين الغربيين على ضرورة تجنب المسيحيين للأنشطة الجنسية حتى فى الزواج، فى مواسم الغفران فى السنة الكنسية.

ومن المذهل أيضًا التطور التدريجى لقانون العقوبات المطبق على السلوك الجنسى داخل صفوف الجيش الصليبى. فلا يوجد دليل على وجود مثل هذه القوانين فى بداية الحملة . وعندما نجح الجيش فى محاصرة أنطاكية، مع ذلك، بدأ نوع ما من النظام الجزائى فى الظهور. وتظهر الأدلة أن تنظيم السلوك الجنسى الذى تطور خلال مجرى الحرب الصليبية الأولى، قد ظل قويًا، ربما مع تطورات أخرى، بعد الاستيلاء على القدس (أورشليم) عام ١٠٩٩م، وأن خيرة الجيش الصليبى فى التعامل مع الأنشطة الجنسية لأفراده يتفوق على مثيلتها فى المملكة اللاتينية، فى الشكل الذى وصل إلينا فيه هذا القانون من (قرارات) برلمان نابلس عام ١١٢٠م.

وأخيراً توحى الأدلة التى أوردناها، أن تقديم السلوك الجنسى خلال الحرب الصليبية الأولى وما تلاها يقدم مثالا آخر على تأثير المعتقدات الشعبية فى أوروبا الغربية على القواعد العسكرية الصليبية فى الشرق اللاتينى.

الهوامش

(١) J. A. Brundage, Medieval Cannon Law and the Crusader (Madison, 1969), 10-18; p. Rousset, Les origines et les caractéres de a premiére croisade (Neuchâtel, 1945), 134-7)

(٢) P. J. Payer, Early Medieval regulations concerning marital sexual relations, Jaurnal of Medieval History, VI (1980), 370-1; J.L., Flandrin, La vie sexuelle des gens maris dans l'ancienne sociétés: de la doctrine de l'église à la realité des comportements' in sexualités occidentales (Paris, 1982; Ecole des hautes en sciences sociales, Centre d' études transdisciplinaires, Communications, No. 35), 102-5, M. Douglas, Purity and Danger:An Analysis of Concepts of Pollution and Taboo (New York, 1966), 3, 130, 132.

(٣) Ivo of Chartres, Decretum. 8; 133-4, in PL, clxi incorporated in Garatian, Decretum C. 33. 9. 4c. 12 and c. 33a. 5.c.6.

(٤) R. Kattje, Ehe und Eheverstüchern, in Love and Marriage in the Twelfith Century, ed. W. Van Hoecke and A. Welkenhuysen (Leuven, 1981; Mediavalia Lovaniesia, ser. 1. no. 8), 339; Payer, Early medieval regulations; pp. 365-7.

(٥) Payer, Early medieval regulations, pp. 369-70.

(٦) J. Lechereq, Monks on Marriage, a twelfith-century view (New York, 1982), 64.

(٧) Burchard, Decretum, 19: 5 (PL, cx), 960)

(٨) P. Fournier and G. Le Bras, Histoire des collections canoniques en occident depuis les fausses décrétales jusqu ' au Décret de Gratien (Paris, 1931-2) ii, 55-7, 105-6.

(٩) St Anselm, De nuptiis consanguineorum, (PL, clviii, 559) and Oratio IV) Guibert of Nogentt, Self and Society in Medieval France, ed. and trans. J.F. Benton (New York, 1970), 66.

وعن وجهة نظر انسلم وأيفو عن الصليبية انظر: برونديج.

(١٠) Robertus monachus, Historia Iherosolimitana, RHC Oc. III, 729-30.

وعن وجهة نظر أربان انظر خطابه المؤرخ فى ١٩ سبتمبر ١٠٩٦ إلى شعب بولونيا.

D.C. Munro, American Historical Review, xi (1906), 237.

(١١) Fulcher of chartres, Historia Hierosoly mitana (1095-1127) ed. Hagenmeyrer (Heidelberg, 1913), pp. 169-3; Urban II, Letter to the Bolognese, HE p. 108; Letter of the Patriarch of Jerusalem (January 1098) in HE p. 148; Ivo of Chartres, Epistolae, p. 125, 245.

(١٢) Albert of Achen, Historia Hierosolymitana, RHC Oc., iv, 281, 288, 317; Fulcher, pp. 183, Baldric of Dol, Historia Jerosolim, tana, RHC Oc., iv, 17; Guibert of Nogent, (Gesta Dei per Francos, RHC, Oc., iv, 251.

(١٣) Guibert of Nogent, Gesta Dei, p. 142; Ekkhard of Aura, Hierosolymita, RHC. Oc., v, 19; Albert of Aachen, pp. 272, 291; Orderic Vitalis, v, 16.

(١٤) Baldric of Dol, p. 28.

وأخذ بنفس روايته الدريك فيتاليس ، ٥، ص ٥٤.

(١٥) Baldric of Dol, p. 66; Gesta Francorum, Iherusalem expugnantium, RHC Oc. III, 498-9.

(١٦) Richard of Devizes, Chronicle, ed. J. T. Appleby (Edinburg, 1963), 47-8; James of vitry, letters, ed. R.B. Huygens (Leiden, 1960), 117-18; Life of St. Louis, Trans. R. Hague (New York, 1955), 66.

(١٧) G. Schönfeldt, Beiträge zur Geshichte des Pauperisums und der prostitution in Hamburg (Weimar, 1897; Socialgeschichtliche Forschung en, vol. 2) 81-2; R. Lewin sohn, A History of Sexual Customs, Trans. A. Mayce (New York, 1958), 145; J.A., Brundage, Prostitution in medieval Canon Law, Signs, i (1976), 825-45.

(١٨) Baldric of Dol, p. 34; Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, ed. and trans. R. Hill. (Edinburg, 1962; (GF); Pierre Tudebode, Historia de Hierosolymitano itinere, ed. J.H. Hill and L.L. Hill (Paris, 1977), 52; Orderic Vitalis, v, 60.

(١٩) Baldric of Dol, p. 107.

(٢٠) Tudebode, p. 65; Albert of Aachen, p. 228; Fulcher, pp. 431-2.

(٢١) Rousset, Les Origines, p. 86; R.Hill, Crusading Warfare; A Comp follower's view, in Proceedings of the Battle Conference on Anglo-Norman Studies, i (1979), 79.

(٢٢) Albert of Aachen, p. 295.

(٢٣) Fulcher, p. 196; Hill, Crusading Warfare, p. 79.

(٢٤) Historia et gesta ducis Gotfridi, RHC Oc., v. 466.

(٢٥) GF., p. 58; Fulcher, p. 243; Robertus monachus, p. 821; Historia et gesta ducis Gotfridi, p. 478; Gesta Francorum Iherusalem expugnatium, pp. 499-501; Orderic Vitalis, v. 98.

(٢٦) Walter the Chancellor, Bella Antiochena, ed. H., Hagenmeyer (Innsbruk, 1896) 62; Fulcher, pp. 622-4; Hill, Crusading Warfare, p. 80.

(٢٧) Albert of Aachen, p. 416.

(٢٨) Fulcher, pp. 222-3; Rousset, Les origines, pp. 146-7; Hill, Crusading Warfare, p. 76.

(٢٩) Baldric of Dol, p. 66; Albert of Aachen, pp. 378-9, Historia et gesta ducis Got fridi, pp. 467, 478, 488.

(٣٠) Raymond d' Aguilers, Le Liber de Raymond d' Aguilers, ed. J.A. Hill and L.L. Hill (Paris, 1969), 97.

(٣١) Fulcher, p. 223.

(٣٢) Albert of Aachen, p. 365.

(٣٣) Rousset, Les origines, p. 124.

(٣٤) GF, pp. 67-8; Guibert of Nogent, Gesta Dei, p. 205; Robertus monachus, p. 827; La chanson d'Antioche, 7. 33, 11. 959-64, ed. Paris, (Paris, 1848) ii, 192; Orderic Vitalis, v, 100; letter of the clergy and people of Luca (October 1098) in HEP., p. 164; Rousset, Les origines, p. 87.

(٣٥) GF, p. 90; Raymond d' Aguilers, p. 144; Albert of Aachen, pp. 470-1); Gilo, Historia gestorum viae nostri temporis Hierosolymitane , RHC Oc., v, 797; Letter of Archbishiship Daimbert to the Pope (Septmber 1099) in HEP, p. 171.

(٣٦) Fulcher, pp. 493-4, ORderic Vitalis, v, 178; James of Vitry, Letters, pp. 117-18.

(٣٧) برر كتاب القرن الثانى عشر الميلادى أحيانًا هذا التفاوت فى المعاملة على أساس أن جنس الذكورة له وقار أكثر من الأنوثة. انظر:

Hugguccio, Surmma to D. 26 c. 2, in Cambridge, Pembroke College, MS 72, fol. 127 ra.

وبالتأكيد فإن القانون طالب بعفة أكثر من المرأة عن الرجل، كما لاحظ الكاردينال هوستينسس، وفى معظم الحالات، فإن الوضع القانونى للمرأة كان أقل مرتبة من الرجل، وطبقًا لهوستينسس والذى أمدنا بكتالوج لهذا، حيث

يتضح صواب ذلك. أما بعض المؤلفين فقد رأى أن جميع النساء على الأقل متساوون على الرغم من الفوارق الاجتماعية.

(٣٨) Guibert of Nogent, Gesta Dei, p. 182.

(٣٩) Guibert of Nogent, Self and Society, pp. 14-18.

(٤٠) Albert of Aachen, p. 379.

(٤١) Guibert of Nogent, Gesta Dei, p. 182.

(٤٢) Eleanora of Arborea, Commentaria, 22 (1708 ed., p. 57); Perugia, Statuta 3083, 88 (Perugia, 1523-8), fol. 33 va, 34vb.

(٤٣) Albert of Aachen, pp. 370-1.

(٤٤) Tudebode, p. 92

(٤٥) Albert of Aachen. pp. 327-8.

(٤٦) Albert of Aachen, p. 436

(٤٧) Guibert of Nogent, Gesta Dei, p. 127

(٤٨) Guibert of Nogent, Gesta Dei, p. 133.

(٤٩) Tudebode, p. 99.

(٥٠) Fulcher, p. 243.

(٥١) Fulcher, p. 403, Guibert (Gesta Dei, p. 127).

ويوضح أن الرق كان عادة غير معروفة لدى اللاتين، وهى رواية غير طبيعية بشكل واضح. وعلى أى حال، فإن اللاتين سرعان ما عودوا أنفسهم على عادة تجارة الرقيق فى الشرق الأدنى.

(٥٢) Tudebode, p. 109

(٥٣) Fulcher, p. 748.

(٥٤) Raymond d'Aguilers, p. 55; Albert of Aachen, p. 434; J. Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, (London, 1972), 340, R.C. Smail, The Crusaders in Syria and the Holy Land (Lodnon, 1973), 182-3.

(٥٥) J. Prawer, Crusader Institutions (Oxford, 1980), 15-16; H. E.Mayer, The Concord at of Nablus, Journal of Ecelesiastical History, xxxiii (1982), 531-43.

(٥٦) Council of Nabuls, c. 12; in J.C. Mansi, ed., Sacrorum Conciliorum nova et amplissima collectio (Paris, 1901-27), xxi, 264.

(٥٧) Counci of Nablus, c. 15, Mansi, 264.

(٥٨) Counci of Nablus, c. 17, Mansi xxi, 264.

(٥٩) Robertus monachus, p. 728.

(٦٠) Albert of Aachen, p. 288.

(٦١) Albert of Aachen, p. 358.

(٦٢) Raymond d'Aguilers, p. 130.

(٦٣) Ramond d'Aguilers, p. 155

(٦٤) Guibert of Nogent , Gesta Dei, p. 143.

(٦٥) Albert of Aachen, p. 560.

(٦٦) Fulcher, p. 257.

(٦٧) Council of Nablus, c. 13-14, Mansi xxi, 264.

مصر وأمن البحر الأحمر
في عصر الحروب الصليبية

يمثل البحر الأحمر محوراً هاماً من محاور الصراع الصليبى الإسلامى. فعلى مدى المائتى عام التى شغلتها أحداث هذا الصراع رسم الجانبان استراتيجيتهما واضعين فى اعتبارهما أهمية هذا البحر. فقد سعى الصليبيون منذ البداية إلى السيطرة عليه. غير أن الكارثة التى حلت بهم فى أسيا الصغرى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ جعلتهم يعيدون حساباتهم مرة أخرى بعد انقطاع الطريق البرى عبر أسيا الصغرى. وعقب انقضاء السنوات العشر الأولى من القرن الثالث عشر الميلادى ونجاح الصليبيين فى الاستيلاء على موانئ الشام الجنوبية ـ عدا صور وعسقلان ـ عاد الاهتمام مرة أخرى بالبحر الأحمر ونجح الصليبيون فى إيجاد قاعدة لهم عند أيلة وجزيرة فرعون فى عام ١١١٦م/٥١٠هـ. وفى العقود التالية حرص الصليبيون على إحكام قبضتهم على هذه المنطقة بإنشاء سلسلة من القلاع على طول الطريق ما بين مصر والشام. وبسقوط عسقلان فى عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ تحولت الأطماع الصليبية إلى مصر ذاتها وذلك أثناء السباق بين عمورى الأول ونور الدين محمود نحو امتلاكها. غير أن هذا المشروع الصليبى منى بالفشل الذريع وقامت الدولة الأيوبية فى مصر والتى وضعت استراتيجيتها على أساس إعادة الطريق بين مصر والشام، ويعنى ذلك فى المقام الأول ضمان أمن البحر الأحمر. فكانت أولى خطوات صلاح الدين الأيوبى استرداد أيلة فى ٥٦٦هـ/١١٧٠م. وشن حملات ضارية ضد الكرك أو بالتحديد بارونية ما وراء الأردن وسيدها آنذاك رينالد دى شاتيون (المعروف فى المصادر العربية باسم أرناط) الذى كان أول من أدرك خطر التهديد الأيوبى على إمارته، ومن جانبه بنى أيضًا سياسته على عدة أسس: شكل البحر الأحمر جانبًا أساسيًا منها. فعقب فشله فى ضم شبه جزيرة سيناء ومهاجمة الدفاعات المصرية شرقى النيل، قام بمشروعه فى البحر الأحمر وكان مصيره أيضًا الفشل الذريع. ولم يتعلم «أرناط» الدرس من مصير أسرى حملته، بل عاود

تهديد القوافل وتهكم على الرسول ﷺ فكلفه ذلك حياته.

واستمر صلاح الدين فى سياسته الرامية لضمان أمن البحر الأحمر سواء من عند مداخله الشمالية أو الجنوبية وكذلك بطول ساحليه الشرقى والغربى. فنجح فى إبعاد الأخطار التى هددته ووفر له الأمن الاقتصادى من ناحية أخرى.

وسار الأيوبيون بعده فى الحفاظ على أمن هذا الشريان الحيوى فاحتفظوا بالكرك أحد المراكز الهامة لضمان أمن البحر الأحمر ولم يفرطوا فيها أثناء جميع المفاوضات بينهم وبين الصليبيين وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى حيث تحولت الاستراتيجية الصليبية إلى أن مفاتيح القدس موجودة فى القاهرة قلب العالم العربى ومركز إمداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح. وعلى الرغم من قيام دولة بنى رسول فى اليمن فقد استمر الأيوبيون فى حفاظهم على أمن هذا البحر وضمانه.

أما نظرة المماليك فقد كانت أشمل. حيث ربطوا بين الكرك والحجاز واليمن، خاصة مع ازدياد المحاولات الرامية لاختراق هذا الأمن من ناحية الصليبيين وكذلك التتار وذلك لتهديد الأماكن المقدسة من ناحية وشل حركة التجارة فيها من ناحية أخرى. وازدادت محاولات فرض الحصار الاقتصادى على مصر للقضاء على حركة الجهاد الإسلامى. وفطن المماليك لهذا فازداد حرصهم على ضمان أمن البحر الأحمر الشريان الرئيسى لموارد دولتهم آنذاك.

وعلى صفحات هذا البحث عرض لأهم هذه الأخطار فى عصر الحروب الصليبية والتى هددت أمن هذا البحر. وكان أبرزها الخطر الصليبى سواءً من جهة مملكة بيت المقدس أو محاولات التعاون مع دولتى النوبة والحبشة النصرانيتين لاختراقه من جهة الجنوب. كذلك برز خطر سكان

جزر سواكن ودهلك على الملاحة والسفن المارة بهما. ومن ناحية البر كان خطر قبائل البدو أو العربان الذين انتشروا على سواحله الشرقية والغربية وعند شبه جزيرة سيناء ومنهم من تعاون مع الصليبيين فازداد بذلك خطرهم على أمن هذا البحر. ولاشك أن القوى الإسلامية التى حكمت مصر سواء من الفاطميين .أو الأيوبيين أو المماليك نجحت فى القضاء على هذه الأخطار جميعًا وتمكنت من إحكام قبضتها عليه لتجعل منه بحراً إسلاميًا خالصًا. وبلغ من حرص المماليك على هذا البحر أنهم منعوا وصله بالبحر المتوسط، وكما يقول الحميرى فى «الروض المعطار» صفحة ٤٦٦ :

«وقد رام بعضهم فيما سلف أن يوصل بحر القلزم وبحر الروم حرصًا على عمارة الأرض وخصب البلاد ومنافع العباد فمنع ذلك خشية تتوصل الروم بسبب ذلك إلى غزو الحجاز».

ولابد من الإشارة إلى أن المقالات التى قدمها الأستاذ الدكتور محمد حسنين ربيع عن موضوع البحر الأحمر كان لها فضل كبير على الباحث فى توضيح كثير من النقاط والتى تبرز على مدى صفحات البحث. كما أن لمؤلف الدكتور عطية القوصى عن تجارة مصر فى البحر الأحمر الفضل فى الكشف عن الأهمية الاقتصادية لهذا البحر. وإن كانت هذه المؤلفات لم تركز بصفة أساسية على أمن البحر الأحمر ودور مصر فى الحفاظ عليه خلال عصر الحروب الصليبية وهو محور هذه الدراسة. كما أننى أفدت من مؤلفات أساتذتى فى الحروب الصليبية. وذيلت البحث بملحقين أحدهما يتناول وصف أرنولد لحملة أرناط. والثانى ينشر لأول مرة من مخطوط «الفضل المأثور» لشافع بن علىّ ويتضمن أحد وصايا المنصور قلاوون لابنه الأشرف خليل والذى يوضح مدى حرص سلاطين المماليك على ضمان أمن البحر الأحمر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قبيل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس فى يوليو ١٠٩٩م/ شعبان ٤٩٢هـ، عقدوا اجتماعًا عند الرملة أثيرت فيه فكرة الزحف على مصر مباشرة، للاستيلاء عليها مما سيؤدى إلى امتلاك القدس والإسكندرية والقاهرة وممالك كثيرة. غير أن المشروع اعترض عليه البعض، بسبب قلة القوات وعدم معرفتهم بهذه الأرض الغريبة مما يجعل فرص الاحتفاظ بهذا النجاح قليلة[١]. وعلى الرغم من انفراد ريموندا جيل بهذه الرواية إلا أنها توضح اهتمام الصليبيين بمصر. وربطهم بينها وبين القدس منذ بداية الحملات الصليبية[٢]. وعقب سقوط القدس تولى جودفرى دى بوبون (١٠٩٩–١١٠٠م/ ٤٩٢–٤٩٣هـ) الحكم تحت اسم حامى القبر المقدس، وضمت أملاكه يافا وبيت لحم واللد والرملة وطبرية ونابلس والقدس. كما اهتم بمنطقة ما وراء الأردن حيث هاجم القبائل فى هذه المنطقة وأجبرها على إحضار الهدايا. كذلك أعد حملة للاستيلاء على حيفا، والتى سقطت بعد وفاته [٣]. ونلاحظ أن الاستراتيجية الصليبية لم تتضح أهدافها بعد فى هذه المرحلة القصيرة التى حكم فيها جودفرى، على الرغم من أنه يمكننا أن نتبين حرصه على ضم ميناء آخر إلى جانب يافا، لكى يضمن اتصاله بالغرب الأوروبى وسط هذا المحيط الإسلامى الذى يحيط به.

أما بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠–١١١٨م/٤٩٤–٥١٢هـ) فقد أظهر اهتمامه منذ بداية حكمه بمنطقة ما وراء الأردن، والتى تربط بين الشام ومصر والحجاز، فقام بحملته الاستكشافية فى هذه المنطقة من ١٥ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر ١١٠٠م، فاتجه عبر منطقة ما وراء الأردن ووادى موسى وشبه جزيرة سيناء حيث اتضح له مدى أهمية هذه المنطقة من الناحية الاستراتيجية لعزل مصر عن بلاد الشام وهو هدف أساسى سعى الصليبيون لتحقيقه منذ بداية حركتهم[٤] ولكنه اضطر خلال السنوات العشر التالية إلى تركيز سياسته للاستيلاء على مدن ساحل الشام. وذلك بعدما

حلت بالطريق البرى عبر آسيا الصغرى الكارثة التى نزلت بحملات عام ١١٠١م[٥]. غير أنه لم يهمل هذه المنطقة الجنوبية تمامًا فقد وضع الصليبيون أقدامهم عليها بعد الاستيلاء على الخليل. وعبر بلدوين نهر الأردن مرة ثانية فى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ. واخترق وادى عربة وواصل إغاراته على القبائل الموجودة فى المنطقة، لكى يجبرها على الخضوع له من ناحية، ولمزيد من الاستكشاف لهذه المنطقة من ناحية أخرى[٦]. غير أنه لم يتمكن فى هذه المرحلة من أن يحصل على قاعدة له فيها[٧].

عاد اهتمام بلدوين بمنطقة ما وراء الأردن، للوصول منها إلى شبه جزيرة سيناء، وذلك بعد أن حقق أهدافه فى الاستيلاء على مدن الساحل الشامى، حيث لم يتبق فى قبضة الفاطميين سوى صور وعسقلان، فهادن دمشق من أجل التفرغ لهذه المنطقة، ويشير جان ريتشارد إلى عقده اتفاقًا مع قبائل هذه المنطقة فى عام ١١١٢م/٥٠٥-٥٠٦هـ[٨]. ثم خرج على رأس حملتين فى عامى ١١١٥ و١١١٦م/٥٠٩ و ٥١٠هـ. وانتهت الحملة الأولى بنجاحه فى تشييد حصن أطلق عليه مونتريال. وذلك عند موقع الشوبك[٩] . وبهذا الحصن استطاع السيطرة على وادى عربة، مما أدى إلى منعه عبور القوافل المارة بهذه المنطقة إلا بعد موافقته، كما نجح بلدوين فى الحصول على مركز متقدم له فى هذا الموقع[١٠]. أما الحملة الثانية والتى خرجت فى عام ١١١٦م/٥١٠ هـ فقد استطاع بلدوين خلالها الاستيلاء على أيلة الواقعة على رأس خليج العقبة وعلى جزيرة فرعون حيث أقام قلعة بها[١١]. ولاشك فى أن ذلك كان أول خطوة صليبية هددت أمن البحر الأحمر. حيث استمر هذا التهديد قرابة نصف قرن أو يزيد. كما سيطر تماماً على الطريق المعتاد للقوافل بين مصر والشام والحجاز، مما اضطر هذه القوافل إلى أن تسلك طرقًا بعيدة. كما أن الحج انقطع عبر هذا الطريق وتحول إلى طريق عيذاب جنوبًا على البحر الأحمر[١٢]. أما ما ذهب إليه د. يوسف

غوانمة من أن بلدوين نجح فى التحكم فى تجارة البحر الأحمر فهذه مبالغة واضحة، لأن هذه السيطرة تتطلب أيضًا التحكم فى مدخله الجنوبى وميناء عيذاب الميناء الرئيسى على الساحل المصرى وهو ما لم يستطع بلدوين تحقيقه(١٣).

استمر بلدوين الأول فى استراتيجيته الرامية إلى السيطرة على شبه جزيرة سيناء والطرق المؤدية إليها. ويشير جان ريشارد إلى بناء بلدوين لقلعة وادى موسى Le Vaux Moysi فى عام ١١١٧م/١١٥هـ(١٤) وفى العام التالى خرج بلدوين بحملة عبر الطريق الشمالى الذى يمر بشمال سيناء ووصل إلى الفرما حيث أحرقها، وفى أثناء عودته أصيب بمرض أدى إلى موته، وحمل جثمانه إلى القدس لدفنه بها(١٥).

لا شك أن بلدوين وضع الأساس للاستراتيجية الصليبية للوصول إلى البحر الأحمر بعد أن تكشفت أهميته من الناحية السياسية والاقتصادية وأيضًا الدينية. وذلك عندما بنى قلعة مونتريال، ثم وصل إلى أيلة وجزيرة فرعون واستولى عليهما ووضع حامية هناك، لكى تكون قاعدة لها، وكان ذلك أول تهديد حقيقى لأمن البحر الأحمر، وحاول الاستعانة برهبان دير سانت كاترينة، غير أنهم طلبوا منه عدم إقحامهم فى ذلك، حتى لا يؤثر ذلك على علاقتهم بالسلطات الإسلامية، أو العربان الذين يحيطون بالدير(١٦). أما الدولة الفاطمية فقد قامت بعدة حملات لوقف هذا التهديد لأمن البحر الأحمر، ولكنها لم تنجح فى ذلك، لأن بلدوين نجح فى تنفيذ سياسته بالاستيلاء على موانئ الساحل الشامى من ناحية، ووضع قدمه على خليج العقبة، وفيما وراء الأردن من ناحية أخرى، بينما كانت الخلافة الفاطمية تعانى من عوامل الضعف والانحلال من ناحية ثالثة.

أما عهد بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م/٥١٢-٥٢٥هـ) فلم يشهد

محاولات جادة هددت أمن البحر الأحمر. فقد انشغل بأحداث شمال الشام، وإن كان أهم حدث فى عهده هو سقوط صور فى قبضة الصليبيين فى يوليو ١١٢٤م/ جمادى أولى ٥١٨هـ ولم تعد سوى عسقلان فى قبضة الفاطميين، والتى ظلت تمثل تهديداً للصليبيين حتى سقوطها فى عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ. واهتم بلدوين بمنطقة ما وراء نهر الأردن، والتى كان لها صلة مباشرة بأمن البحر الأحمر. فأغار على قبائل البدو فى هذه المنطقة، وذلك لإحكام السيطرة عليهم[١٧].

ومن المفاخر التى اهتم فولك أوف انجو (١١٣١-١١٤٣م/٥٢٦-٥٣٨هـ) بتسجيلها ضمن عهده «الأرض العربية التى تقع على البحر الأحمر ضمها إلى سلطانة»[١٨]وفى العقود التالية أصبحت السياسة الصليبية هى الوصول بالحدود الأمنية لمملكتهم إلى الحدود الطبيعية من وجهة نظرهم وفى ضوء الاستراتيجية التى خططوا لها منذ البداية، وفى الجنوب لم تكن سوى الصحراء هى الحد الطبيعى. وعن طريق بارونية ما وراء الأردن وسلسلة القلاع التى شيدت بطول الطريق الذى يربط مصر والشام كانت وسيلة الصليبيين لتهديد أمن البحر الأحمر، وتحقيق المزيد من الإحكام على هذه المنطقة. ففى عام ١١٤١م/٥٣٥هـ شيد باجان وكان يعمل ساقياً للملك فولك حصناً شديد المناعة فوق تل مرتفع أسماه الكرك[١٩]. وأضاف الصليبيون إليه حصون الوعيرة أو قلعة وادى موسى والصلت أو سلا وتافيلا[٢٠]. وبذلك أحكم الصليبيون قبضتهم على هذا الطريق. الأمر الذى كان له انعكاساته السياسية والاقتصادية والدينية. أما الطريق الساحلى عبر شبه جزيرة سيناء فقد حرص الصليبيون على إحكام سيطرتهم عليه أيضاً، غير أن عسقلان وقفت حجر عثرة فى سبيل إتمام ذلك. فلجأ الصليبيون إلى إنشاء سلسلة من القلاع حولها فى الفترة من ١١٣٦ إلى ١١٤١م مثل بيت جفرين ويبنى وتل صافيتا. واستكمل الصليبيون حصارهم لها ببناء قلعة فى

غزة عام ١١٥٠م/٥٤٥هـ وذلك قبل ثلاث سنوات من سقوط عسقلان وأدى ذلك إلى توقف وصول الإمدادات الفاطمية إليها براً، ولم يعد سوى الطريق البحرى[٢١]. ويشير ابن أيبك إلى ذلك التهديد بقوله «لما كان على المسلمين منها من الأذى وقطع الطرق بسببها، فإذا أخذت أمنت الطرق وسافرت القوافل والتجار»[٢٢].

ارتبطت عسقلان بأمن البحر الأحمر، فقد ظلت رأس الجسر الذى استخدمه الفاطميون طيلة تاريخهم فى هجماتهم ضد الصليبيين بعد سقوط مدن الساحل الشامى فى قبضتهم. كما كانت حائط صد ضد محاولات الصليبيين الاستيلاء على الطريق الساحلى. ولكن بناء سلسلة القلاع السابقة حولها، بالإضافة إلى قلاع أخرى، وحالة الضعف التى آلت إليها الدولة الفاطمية أدى إلى سقوطها عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ فى قبضة الصليبيين[٢٣] وكانت النتيجة المباشرة لسقوطها هى محاولة استيلاء الصليبيين على مصر فى ظل الصراع بين الوزراء على السلطة خاصة بين شاور وضرغام. كما أن عمورى ملك بيت المقدس (١١٦٢-١١٧٤م/ ٥٥٧- ٥٦٩هـ) كان كونتًا ليافا وعسقلان قبل توليه عرش المملكة، فجعله ذلك على علم بأحوال مصر، وثمة عامل آخر دفع عمورى لذلك هو ازدياد قوة نور الدين محمود وضغطه على الصليبيين وسعيه لتوحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى استكمالا لسياسة والده عماد الدين زنكى الأمر الذى يخشاه الصليبيون ويعملون له ألف حساب، فقد أدركوا أنهم سيصبحون بين شقى الرحى، الأمر الذى جعلهم يتجهون نحو مصر التى بدت غنيمة سهلة على الرغم من اعتراض بعض القادة الصليبيين على هذا المشروع[٢٤]. ولاشك أن هذا المشروع نقل التهديد لأمن البحر الأحمر إلى مرحلة جديدة، مما يهدد أكبر مورد اقتصادى لمصر، فضلا عما يشكله من تهديد لمقدسات المسلمين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ولكن نور الدين

محمود لم يكن بذلك الحاكم الذى يغفل عن هذا التهديد، لما تمثله مصر من قوة بشرية ومادية بالنسبة له وفى جهاده ضد الصليبيين. وينقل سبط ابن الجوزى إدراك نور الدين لذلك «وما قصدنا بفتح مصر إلا فتح الساحل وقلع الكفار منه»(٢٥).

وبدأ التسابق بين عمورى ونور الدين على امتلاك مصر، واستغرق هذا الصراع ما يقرب من سبع سنوات تخللتها عدة حملات وصلت إلى القاهرة والإسكندرية والمنيا ورفعت الأعلام الصليبية فوق أسوار القاهرة. ولجأ عمورى إلى الاستعانة بالدولة البيزنطية محاولا إنجاح هذه المحاولات. ولكن هذا المشروع انتهى بالفشل الذريع وتحملت الخزانة الصليبية تكاليف باهظة أدت إلى إفلاسها(٢٦). غير أن ميزان القوى فى الصراع بين الطرفين مال لصالح المسلمين بسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية لكى ينتقل أمن البحر الأحمر إلى مفهوم جديد فى ظل هذه الفترة الأيوبية.

لعب البحر الأحمر دوراً هامًا بالنسبة لاستراتيجية كل من الصليبيين والأيوبيين. ففى عام ١١٧٠م/٥٦٦هـ حصّن الصليبيون دير البلح الواقعة على الطريق الشمالى لسيناء. فى الوقت الذى كانوا لا يزالون فيه يسيطرون على الطريق الأخرى والتى تمر بأيلة وبارونية ما وراء الأردن. وظلت القوافل تتعرض للخطر إلا إذا خرج معها العساكر حتى تتمكن من المرور عبر الطرق الفرعية. ولذا أدرك صلاح الدين أن الأمور لن تستقيم له حتى يضمن السيطرة على الطريق بين مصر والشام، وإبعاد الخطر الصليبى عن أمن البحر الأحمر، فتوجه فى عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م مغيراً على الداروم وغزة ووجه إليهما ضربة قوية، ثم عاد وتوجه إلى أيلة وجزيرة فرعون حيث أعد مراكب حملت معه إلى القلزم وبعد استعادته لأيلة أبحرت هذه السفن إلى الجزيرة واستعاد القلعة التى طالما هددت هذه المنطقة وذلك فى ربيع الآخر ٥٦٦هـ/ ديسمبر ١١٧٠م(٢٧). وتمكن صلاح الدين بذلك من القضاء على خطر

هذه القلعة التى طالما هددت أمن البحر الأحمر من هذه الجهة «فأخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد و«مؤيلا» لسفار البلاد وغيرهم». وربط صلاح الدين بين خطرها على أمن الحجاز واليمن بقوله «ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها فى بحر الهند وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن»[٢٨] وكان ذلك بداية لفتح الطريق بين مصر والشام والذى ظل مهدداً ما يقرب من خمسة وخمسين عاماً. كما حرص صلاح الدين على استغلال هذا الانتصار فى الدعاية لنفسه خاصة لدى الخليفة العباسى فى بغداد ويتضح ذلك من خلال رسائله الطويلة إليه والتى أوردها أبو شامة[٢٩].

غير أن استراتيجية صلاح الدين الرامية إلى استعادته لأملاك نور الدين فى الشام اصطدمت بوجود هذه المعاقل التى على الطريق ما بين مصر والشام. فانتهج سياسة ترمى إلى استعادتها أو تخريبها «فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب»[٣٠] وبدأ سلسلة من الحملات ضد الكرك بصفة خاصة لحصانته ولكونه المركز الرئيسى لبارونية ما وراء الأردن والتى حكمها آنذاك رينالد دى شاتيون أو أرناط. الذى شعر بمدى الخطر الذى يتهدد بارونيته من استراتيجية صلاح الدين. فتبنى سياسة جديدة تمثلت فى نقل حدود المملكة الصليبية عبر الصحراء عند مدخلها الجنوبى. ومن هذا المنظور أصبحت شبه جزيرة سيناء بخليجى البحر الأحمر ضمن الاهتمام الصليبى[٣١]. وبدأت هجمات صليبية ضد الدفاعات المصرية الشرقية عند وادى صدر واستهدفت بالتحديد قلعة الجنيدى التى أنشأها صلاح الدين لحماية هذه المنطقة ـ جنوب شرق ممر متلا الحالى ـ وهددت فاقوس وذلك منذ عام ٥٧٢هـ/١١٧٧م، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل[٣٢] وعاود الصليبيون هجومهم ضد العريش فى جمادى الأخرة ٥٧٧هـ/ أكتوبر ـ نوفمبر ١١٨١م بهدف تخريب هذه الواحة الهامة حيث كان يستخدم صلاح الدين الطريق الشمالى لمهاجمة عسقلان وغزة

والداروم[٣٣] وعلى الرغم من ارتباط هذه الغارة بحملة أرناط على البحر الأحمر ـ كما سنرى ـ إلا أنها أيضًا ارتبطت بالمحاولات الصليبية لإدخال سيناء فى حوزة المملكة الصليبية. وحاول الصليبيون مرة أخرى النيل من الدفاعات الأيوبية فخرجوا فى المحرم عام ٥٧٩هـ/ أواخر أبريل ١١٨٣م حتى وصلوا إلى فاراّن فخرج إليهم سعد الدين كمشة وعلم الدين قيصر على طريق صدر أيلة عند مكان ماء يسمى العسيلة وتمكنوا من ردهم[٣٤].

اتجه تفكير أرناط إلى أسلوب جديد يهدد به أمن البحر الأحمر بعد أن فشلت سياسته السابقة القائمة على «أن جبل سيناء يقع فى حدود الكرك» كما ذكر أرنول[٣٥] فـفكر فى غزو تيماء ـ دهليز المدينة على ساكنها الصلاة والسلام ـ وذلك فى عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١-١١٨٢م. غير أن عز الدين فرخشاه خرج ليكون فى مقابلة الكرك وخرب ما حولها لإجباره على عدم الخروج. وفى رسالته إلى الخليفة العباسى يقارن صلاح الدين بين جهاده للصليبيين ومنعهم من تهديد المقدسات الإسلامية وبين المواصلة وتواطئهم مع الصليبيين «والعجيب أنا نحامى عن قبر النبى صلوات الله وسلامه مشتغلين بهمه... والمذكور (يعنى صاحب الموصل) ينازع فى ولاية هى لنا ليأخذها بيد ظلمه»[٣٦].

استمرت محاولات أرناط الفاشلة فى تهديد أمن البحر الأحمر سواء من جهة سيناء أم الحجاز، ولذا فقد أقدم على مغامرة كانت السبب المباشر فى دق أكبر مسمار فى نعش الوجود الصليبى فى بلاد الشام. فقد حاول الاستيلاء على أيلة والنفاذ منها إلى البحر الأحمر. وأخطأ أرناط فى حساباته هذه المرة أيضًا. فلم يكن صلاح الدين بالقائد الذى يغفل عن مثل هذا التهديد لأمن البحر الأحمر وهو الذى حرص منذ بداية حكمه على استرداد أيلة وضم اليمن جنوبًا فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م. ومنع أى اتصال بالحبشة جنوبًا لكى يحكم قبضته عليه فجعله بحرًا إسلاميًا خالصًا.

وعلى الرغم من الدراسات المستفيضة لحملة أرناط إلا أننا بحاجة للوقف عند بعض أحداثها. فقد بالغت كثير من الدراسات فى أهدافها معتمدة على خطابات صلاح الدين للخليفة العباسى. بينما أشارت المصادر المعاصرة مثل البرق الشامى للعماد الكاتب إلى أن هدفها «وكان للفرنج مقصدان أحدهما قلعة أيلة التى هى على فوهة بحر الحجاز ومداخله. والآخر الخوض فى هذا البحر الذى تجاوره بلادهم من ساحله»(٣٧). ويتفق أرنول ـ المصدر الصليبى الوحيد ـ الذى أشار إلى هذه الحملة مع القاضى الفاضل فى هدف أرناط « وذلك لكى تبحر السفن فى هذه المنطقة وتعرف أيضاً نوع من الشعوب يسكن على شواطئ هذا البحر»(٣٨).

وتجدر الإشارة إلى رواية هامة أوردها المقريزى تلقى ضوءً جديداً على استعداد أرناط لهذه الحملة. فقد ذكر أن العريش تعرضت لهجوم صليبى فى جمادى الآخرة ٥٧٧هـ/أكتوبر ـ نوفمبر ١١٨١م وقطعت أشجار النخيل وحملت جذوعها إلى بلادهم(٣٩). ويعد أرناط المستفيد الوحيد من هذه الغارة وحمل جذوع النخيل إلى إمارته لصناعة السفن التى تصلح للإبحار فى البحر الأحمر. وسواء قام ببناء هذا الأسطول فى عسقلان أم الكرك فإن بدو هذه المنطقة تشير إليهم أصابع الاتهام، لقيامهم بدور فى حملها وتصنيعها. فلم يكن لدى الصليبيين الخبرة فى صناعة نوع السفن المستخدم فى صناعته جذوع النخيل وهو النوع المعروف بالجلاب(٤٠). وهذا يقودنا إلى مناقشة نوع السفن. فقد أشار أرنول إلى أنها من الـ Galére أو الشينى(٤١) وهذا النوع أو الأسماء الأخرى التى أطلقت عليها لم تستخدم فى البحر الأحمر باستثناء الحراقة(٤٢). وهذه الأنواع لم تستخدم فيها عيدان النخيل، مما يجعلنا نتساءل عمن قام ببناء هذه السفن لأرناط. ولا نستطيع أن نغفل دور بدو هذه المنطقة والعلاقة بينهم وبين الصليبيين. فقد كان منهم من له خبرة بأعمال البحر، وأشار أبو شامة إلى «الساحليين من العرب»(٤٣)، كما أكد ذلك الدور سبط ابن الجوزى والعماد الكاتب(٤٤).

أعاد أرناط تجميع السفن الخمس(٤٥) بعد أن نقلت على الجمال إلى أيلة وأنزلت فى مياه البحر الأحمر. وحاصرت اثنتان منها جزيرة فرعون، بينما أبحرت الثلاثة الباقية فى اتجاه عيذاب حيث ظلت ما يقرب من أربع أشهر من شعبان إلى ذى القعدة ٥٧٨هـ/ نوفمبر ١١٨٢ ـ فبراير ١١٨٣م وعاثت فساداً على ساحليه وهاجمت سفن الحجاج والتجار، وانتشر الفزع، لأنه لم يعهد أن سلك كافر هذا البحر، كما تعرضت المقدسات الإسلامية للخطر. وسارع صلاح الدين ـ الذى كان آنذاك فى الشام ـ بإرسال الأمر إلى أخيه العادل سيف الدين فى مصر بحسم هذا الأمر، ولم يتوان العادل فى القضاء على هذا الخطر. فأعد أسطولا اختار لقيادته قائداً محنكاً ـ حتى قيل أنه أخذ معه أساور الأسرى ـ وبحارة لا يقلون كفاءة عن قائدهم. ووصل حسام الدين لؤلؤ إلى جزيرة فرعون فأغرق سفينة وفرت الثانية حيث أسر بحارتها. وتابع السفن الثلاث الباقية حيث علم بوصولها إلى الساحل الحجازى وتمكن من القضاء على هذا الخطر فأسر من نزل إلى الساحل عند الحوراء وأرسل الأسرى إلى عيذاب ومنها إلى قوص ثم إلى مدن مصر مثل القاهرة والإسكندرية فأمر بإعدامهم حتى «لا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف»(٤٦).

وهناك كثير من المبالغات أحاطت بهذه الحملة. وفى الحقيقة فإن مرجع ذلك هو خطابات صلاح الدين الأيوبى إلى الخليفة العباسى والتى أراد أن يحقق أكبر دعاية له من خلالها. فعلى سبيل المثال أشار البعض أن عدد قوات أرناط بلغت ألفًا وخمسمائة. فلم يكن بإماكنه أن يوفر هذا العدد إلا إذا شاركت مملكة بيت المقدس معه. وكان الصليبيون آنذاك فى مواجهة صلاح الدين الذى كان فى الشام. وهذا يدل على اعتماد أرناط على قواته حيث كانى قدم ستين فارسًا فقط فى جيش المملكة(٤٧). وقد أشار العليمى إلى أن عدد القوات الصليبية بلغ نيفًا وثلثمائة وهو أقرب ما يكون إلى

الصحة. وتتحمله هذه السفن الثلاث(٤٨). أما ما ذكره د. يوسف غوانمة من أنها كانت حملة بحرية وبرية اعتماداً على ما ذكره الذهبى فهو أيضاً مبالغة لم تشر إليها أياً من المصادر الأخرى. وربما يقصد الذهبى من ذلك نزول الصليبيين براً عند ساحل الحوراء(٤٩). على أية حال تمكن صلاح الدين من استغلال نجاحه فى القضاء على هذه الحملة حيث كان لا يزال فى حاجة لتأييد الخلافة العباسية لكى يضم حلب إلى مملكته.

فشل أرناط فى استراتيجيته الرامية إلى ضم سيناء وتهديد أمن البحر الأحمر مما أكد لصلاح الدين ضرورة القضاء على أرناط، ونذر دمه بعد أن تطاول على رسول الله ﷺ (٥٠) واستمرت حملات صلاح الدين ضد الكرك والشوبك مع اتباع أسلوب الحصار الاقتصادى لها بتخريب ما حولها من المزارع التى تمدها بالمؤن اللازمة. وكانت الكرك عقبة فى سبيل ضمان أمن البحر الأحمر وكذلك الحجاز. فيقول العمرى «وكان الكرك شجى فى الحناجر وقذى فى المحاجر ورصد الطرقات المسلوكة» «وجثم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفساً يصعد من تهامته» «ومما فتحه الله على سلطاننا بلاد الكرك وما أدراك ما هو قلعة كانت على الإسلام أية مضرة، بل كانت لكعبة الإسلام ـ زادها الله شرفًا ـ أية مضرة»(٥١). ويربط أبو شامة أيضًا بينهما بقوله «وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام»(٥٢).

فشلت استراتيجية أرناط أمام إصرار صلاح الدين على إزالة بارونيته والتى كانت بمثابة الإسفين بين شقى مملكته فى مصر والشام فى الوقت الذى كانى سعى فيه إلى توحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام ليتسنى له توجيه ضربته القاضية إلى الصليبيين فى الأراضى المقدسة. وعلى الرغم من أنه لم ينجح فى الاستيلاء على الكرك إلا بعد معركة حطين إلا أنه ظل يوجه إليها الضربات الواحدة تلو الأخرى(٥٣). وأمام استمرار أرناط فى نقض تعهداته تمكن صلاح الدين من أن يوجه ضرباته القاضية للصليبيين فى

حطين ١١٨٧م/٥٨٣هـ. ومن أهم نتائجها استرداده للكرك والشوبك حيث ظلا فى قبضة الأيوبيين والمماليك ولم يفرطا فيهما فى أى معاهدات تالية مع الصليبيين.

وعلى الرغم من تحقيق الحملة الصليبية الثالثة لنتائج محدودة، إلا أنها فشلت فى تحقيق الهدف الرئيسى الذى خرجت من أجله وهو الاستيلا على القدس مرة أخرى، واتجهت الاستراتيجية الصليبية فى هذه المرحلة التالية إلى توجيه الحملات نحو مصر طيلة القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى. ومن أجل الحفاظ على أمن البحر الأحمر فى هذه المرحلة أصر الأيوبيون ومن بعدهم المماليك على الاحتفاظ بالكرك والشوبك. ففى أثناء الحملة الصليبية الخامسة عرض السلطان الكامل محمد إعادة كثير من الأراضى التى استردها صلاح الدين للصليبيين «ما خلا الكرك والشوبك» وأدرك أوليفر أوف بادنبورن أهمتيهما فيقول «ومن يسيطر عليهما فإنه بإمكانه أن يخرب القدس وحقولها وكرومها عندما يرغب فى ذلك»(٥٤). وثمة ملاحظة هامة هى أن الداوية والاستبارية والإيطاليين كانوا هم الذين عارضوا ذلك لإدراكهم للأهمية العسكرية والاقتصادية للكرك. وقبل نهاية الدولة الأيوبية نجحت فى استرداد عسقلان عام ١٢٤٧م/٦٤٥هـ حيث تأكدت السيطرة أيضاً على الطريق الشمالى عبر شبه جزيرة سيناء(٥٥). وأخيراً جاء قيام دولة المماليك فى مصر لكى يضع حداً لهذه الأحلام الصليبية فى السيطرة على مصر خاصة بعد تغلبها على أكبر خطر هدد العالم الإسلامى وهو خطر التتار وكان مركز الثقل فى الصراع بين المسلمين والصليبيين قد مال بشكل واضح لصالح المسلمين.

وأدرك المماليك من ناحية أخرى أهمية الكرك بالنسبة لأمن البحر الأحمر وخاصة الساحل الشرقى منه. «ورأى أن بلاد الحجاز طريق البلاد اليمنية وظهر البلاد الكركية والشوبكية» (٥٦) فأكثر بيبرس من خروجه إلى

هناك مهتماً بتوفير الأمن له حتى يضمن استمرار طريقه ما بين مصر والشام في جهاده ضد الصليبيين. فخرج لمتابعة برج تصدع «فاشتهى أن يكون إصلاحه بحضوره»[٥٧] كما جدد أبراجًا أخرى به بالإضافة إلى ترتيب جماعة من البحرية به ونظم العلاقة بين العربان والجماعة المقيمة به[٥٨] واستمر اهتمام قلاوون به حتى في تفاوضه مع الملك المسعود نجم الدين خضر بن الظاهر بيبرس في عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م[٥٩].

ومن الأخطار التي هددت أمن البحر الأحمر طيلة الحروب الصليبية يأتي خطر البدو أو العرب أو العربان والذين انتشروا بطول ساحليه الشرقي والغربي، وكذلك على الطرق المارة عبر شبه جزيرة سيناء. ويرجع خطر جانب منهم بسبب علاقتهم بالصليبيين. عندما سعى جودفرى ومن بعده بلدوين الأول لاستغلال هذه القبائل التي انتشرت في شبه جزيرة سيناء وفي ما وراء نهر الأردن. وتوثقت علاقة بلدوين بهذه القبائل بعد نجاحه في الوصول إلى رأس خليج العقبة واستيلائه على أيلة وجزيرة فرعون[٦٠]. كذلك اهتم بلدوين بالطريق الشمالي عبر شبه جزيرة سيناء. ويشير المقريزي إلى قبيلة ثعلبة التي كانت بين العريش ورفح واتهمها صراحة بالتعامل مع الصليبيين «وكانوا مع الفرنج لما ملكوا البلاد في الإسلام»[٦١]. وعندما أشار ابن القلانسي إلى مهاجمة الفاطميين للعريش في ربيع الأول ٥٥٣هـ/ أبريل ١١٥٨م «وظفر العسكر المصري بجملة وافرة من الفرنج والعرب»[٦٢]. ولم يسلم النازحون من عسقلان بعد سقوطها في قبضة الصليبيين في عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ من رجال هذه القبائل حيث هاجموهم واستولوا على ما معهم[٦٣] كذلك اتهم ابن جبير عرب الكرك بنقل أخشاب السفن إلى البحر الأحمر في حملة أرناط وذلك مقابل أجر تم اتفاقهم عليه[٦٤]. كما اتهم أبو شامة الساحليين من هذه القبائل بأنهم دلوا السفن الصليبية في البحر الأحمر[٦٥]. وفي الحقيقة لا نستطيع أن نحدد قبيلة بعينها. فقد

انتشرت قبائل العابد وبنى عقبة وبنى مهدى وبنى حسن وبنى خالد. وبنى كنانة وبنى أبى وبنى على طول الطريق ما بين أيلة والكرك والحجاز وتداخلت فى بعضها البعض. وأشار سبط ابن الجوزى إلى رسالة صلاح الدين لنور الدين محمود عن خطر هؤلاء ـ وخاصة عرب الكرك ـ ونقلهم الأخبار إلى الفرنج ودلهم الصليبيين على الطرق والمسالك عبر الصحراء «فإنهم آفة على المسلمين ودليل الكفار على الإسلام»(٦٦). ويوضح صلاح الدين هدفه من إبعاد هذه القبائل «بحيث إذا نهض العدو لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهدى إليه سبيلا» ويؤكد العماد الكاتب خطرهم فهم «جنس كالحنظل كلما زيد سقيًا بالماء الحلو أفرطت مرارة ثمرته. وعزت نضارة خضرته»(٦٧) واستمر خطر قبيلة ثعلبة حيث هاجمت من نجا من قوات صلاح الدين بعد هزيمته فى معركة الرملة عام ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ(٦٨). وأدرك صلاح الدين سبب الهزيمة وعدم سيطرته على هذه القبائل فى رسالته للخليفة العباسى «وأنا لم نتمكن بمصر منه مع المسافة وانقطاع العمارة وقلال الدواب»(٦٩).

لكل ما تقدم، حرص الأيوبيون على السيطرة على هذه القبائل، وذلك لضمان أمن البحر الأحمر خاصة الطرق المارة عبر شبه جزيرة سيناء، فيذكر ابن العميد أن الملك الكامل محمد رتب الخفراء لحفظ الطرق(٧٠) أما ابن واصل فكان أكثر تحديداً عندما أشار إلى أنه أجبر العرب الذين كانوا يحرسون الطريق بين مصر والعريش عل إحضار بساط مسروق مما يدل على هيبته وحرصه على أمن هذه المنطقة (٧١). ولم يقتصر خطرهم على تعاملهم مع الفرنج، بل كان الصدام بين هذه القبائل ينعكس على الأمن، مثال ذلك ما حدث بين قبيلتى جذام وثعلبة وكانت أيام خوف وحرب وانقطعت الطرقات(٧٢).

وكان لهذه القبائل تجربة مع المماليك، فقد أنقذوهم عندما خرجوا من مصر متجهين إلى الشام. فيشير العينى إلى ذلك بقوله «فوقعوا على قبيلة من العرب فحملوهم إلى الملك المغيث عمر صاحب الكرك» وذلك فى عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م(٧٣) ومنذ بداية حكم الظاهر بيبرس حرص على توثيق علاقته بعربان الكرك حيث ربط بين أمن الساحل الشرقى للبحر الأحمر من الكرك والشوبك حتى اليمن جنوبًا. «ومنها النظر فى أحوال العربان والإحسان إليهم وإلزامهم بخفر البلاد الشامية»(٧٤)كما فعل نفس الشيء مع بنى مهدى وبنى عقبة حيث رتب أمور الكرك ودعاهم لتناسى الأحقاد بينهم وتحميلهم مسئولية ضياع أية ممتلكات. كما ضمنهم خفر البلاد إلى الحجاز(٧٥) بالإضافة إلى اهتمامه بأمر البريد حيث اعتمد على العربان فى إحضار خيل البريد(٧٦). «وشمل الكل إنفاق على ما تقتضيه أحوالهم من إمرة وغير ذلك»(٧٧).

واستمر اهتمام المماليك فى عهد السلطان قلاوون بعربان الكرك لاستمرار ضمانه لأمن البحر الأحمر. فقد أشار بيبرس المنصورى إلى أنه خلع على مقدمى الكرك ورجالها ومن حضر من أمراء العربان الذين بها ورتب أمرها. وجعله لعز الدين أيبك الموصلى وكان نائبًا بالشوبك(٧٨). وبهذه السياسة المزدوجة استطاع سلاطين المماليك أن يحتفظوا بولاء هذه القبائل من ناحية وعدم تعرض أمن البحر الأحمر للتهديد من ناحية أخرى. كما حملوهم مسئولية حماية الطريق إلى الحجاز خاصة بعد أن أعيد استخدام هذا الطريق فى عهد بيبرس.

أما البدو أو القبائل العربية التى سيطرت على طريق الحج فقد حرصت السلطات الإسلامية فى مصر والشام على التعامل معهم من أجل ضمان أمن البحر الأحمر. فيرجع اهتمام الفاطميين بالحجاز قبل استيلائهم على مصر(٧٩). وعقب قيام الدولة الفاطمية فى مصر أعلنت الأسر التى حكمت

في مكة المكرمة خضوعها وتمردت في أوقات أخرى مستغلة الأحوال في مصر مثلما حدث أثناء الشدة المستنصرية ٤٥٤هـ/١٠٦٢م[٨٠]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إننا نجد قاسم بن هاشم أمير مكة يرسل مراكب هاجمت التجار من عيذاب وذلك في عام ٥١٢هـ/١١١٨م وعلم الأفضل ابن بدر الجمالي بذلك فقرر تأديبه ولكنه أرسل رسولا من جانبه في عام ٥١٦هـ/١١٢٢م لكي يعتذر عما اقترفه في حق التجار[٨١]. كما وردت إشارات عديدة عن خطر البدو أثناء موسم الحج. ومحاولات كف خطرهم بإقطاعهم القطائع[٨٢].

وفي إطار حرص الأيوبيين على أمن البحر الأحمر وبعد أن سيطروا على أيلة، خرجت حملة تورانشاه إلى اليمن، فمر على مكة المكرمة حيث رحب به حاكمها عيسى بن فليته وذلك في عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م. وكان ذلك بداية النفوذ الأيوبي بها حيث حرص صلاح الدين على عدم التدخل في الشئون الداخلية له واكتفى بإجراءات حققت العدالة والأمن له وللحجاج القادمين[٨٣].

أما موقف عربان الحجاز من حملة أرناط التي هددت أمن البحر الأحمر فقد اختلفت المصادر حول ذلك. فقد أشار أبو شامة إلى أنهم التزموا بإحضار الصليبيين الذين نزلوا إلى الشعاب والجبال في المنطقة عند رابغ وساحل الحوراء «فإن العربان اقتصوا آثارهم والتزموا بإحضارهم»[٨٤] أما العليمي ـ من القرن العاشر الهجري ـ فيتهمهم بالانضمام إلى الصليبيين «وانضم إليهم عدة من العربان المرتدة، ففرت العربان وارتقى الفرنج أمام رأس جبل صعب المرتقى»[٨٥]. وربما كانت هذه القبائل تنتسب إلى عرب زبيد الشام وينتسبون إلى مسرح من حرب وكان منهم الخمس وهم بطن من زبيد سكن الساحل قرب رابغ[٨٦].

واستمر الحجاز يتأرجح ما بين الأيوبيين وبنى رسول الذين أقاموا لهم دولة في اليمن فاستغل عربان الحجاز هذا الاضطراب وهددوا أمن البحر الأحمر من الناحيتين السياسية والاقتصادية أما فى الفترة المملوكية فقد نظر المماليك إلى الحجاز باعتباره مكملا لاستراتيجيتهم بالنسبة للكرك واليمن، ولذا كان حرصهم على استتباب الأمن فيه خاصة بعد الاضطرابات السابقة في العصر الأيوبي. ومن ناحية أخرى كان بيبرس يعد لفتح الطريق البرى عبر شبه جزيرة سيناء. ففى عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م وصلته كتب من خيبر ببذل الطاعة والخدمة. وأرسل حملة بقيادة الأمير أمين الدين موسى بن التركماني، وفى الوقت نفسه أرسل إلى النائب بالكرك بتجهيز أمراء العربان وجماعة من البحرية صحبته حيث تمكن من فتحها[٨٧]. وكان لذلك أثره فى إحكام سيطرته على قبائل هذه المنطقة. وخضع أمير المدينة المنورة لدفع العداد فى عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧م[٨٨]. كما وفد على السلطان بيبرس رسل من عرب زبيد وبلى[٨٩] وفى عام ٦٦٦هـ/١٣٦٨م التزم بنو صخر وبنو لام وبنو عنترة وغيرهم من عربان الحجاز بدفع الزكاة من الغنم والإبل[٩٠]. وفى العام التالى استعد بيبرس سراً لأداء فريضة الحج حتى لا يعطى أعداءه فرصة لاستغلال غيابه. فأرسل قواته إلى دمشق فى صحبة الأمير سيف الدين أقسنقر وتوجه إلى الكرك فى صورة المتصيد وأمر بإعداد المؤن والعربان لمصاحبته مع إخفاء خبره. وفى الوقت نفسه بلغت أنباء عن استعداد التتار لإرسال ركب إلى الحجاز «لكشف الطرقات والتلصص على تلك الجهات» وكان قصدهم استباحة دم الحجاج فى الحرم، ولكن عندما بلغتهم حركة السلطان «فرجعوا خائبين»[٩١].

وبعد أدائه للفريضة رتب بيبرس أمور الحجاز، فجعل شمس الدين مروان نائبًا بمكة، وأحسن إلى أميرها وصاحب ينبع وزعماء الحجاز. وتعهد صاحب مكة بفتح بيت الله الحرام دون أن يأخذ أموالا من أحد. وعدم

التعرض للحجاج أو التجار والخطبة والصكة للسلطان مقابل عشرين ألف درهم كل سنة. فوافق الشريف نجم الدين أبي نمي على ذلك[٩٢]. كذلك استمر اهتمام قلاوون بأمر الحجاز. ففي عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م حضر إلى خدمته ملك أعراب الحجاز[٩٣]. وعندما خرج الأمير أبو نمي الحسيني صاحب مكة قبض عليه الأمير سيف الدين بلبان المعروف بطير الحنة وأرسله إلى السلطان[٩٤] كما اهتم قلاوون في وصاياه إلى ابنه بالإشارة إلى العربان بأن يرتبون في الأماكن التي أعطيت لهم «وكل من جرت له عادة من العربان بحفظ مكان يرتب فيه ويلزم حفظه»[٩٥].

ونظراً لارتباط اليمن بأمن البحر الأحمر، فقد اهتمت السلطات الإسلامية في مصر بعد سيطرتها عليه. فقد توثقت العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة الصليحية في عهد أبي كامل علي بن محمد الصليحي (٤٢٩-٤٧٣هـ/ ١٠٣٨-١٠٨٠م) وابنه المكرم أحمد وزوجته السيدة الحرة. وكان لذلك الأثر المباشر على ضمان المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. وأسهم الصليحيون في الحفاظ على أمنه[٩٦]. فلم يسمحوا لأية سفينة هندية أو صينية أو غيرها من السفن غير الإسلامية أن تبحر شمالاً فيما وراء ثغر عدن[٩٧]. كما قامت الدولة الفاطمية بإجراءات أخرى للحفاظ على أمن البحر الأحمر مما جعله بحراً إسلامياً خالصاً على الرغم من استيلاء الصليبيين على أيلة وجزيرة فرعون[٩٨].

وعقب سنوات قليلة من قيام الدولة الأيوبية أرسل صلاح الدين أخاه المعظم تورانشاه في رجب ٥٦٨هـ/ فبراير ١١٧٤م لفتح اليمن حيث استمر تابعاً للأيوبيين حتى عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. وكان ذلك يعني «والكلمة هناك بمشيئة الله إلى الهند سارية» كما يقول في رسالته إلى الخليفة العباسي[٩٩]. ودون الدخول في أسباب فتح اليمن، فإن هذا أعطى الدولة الأيوبية السيطرة تماماً على هذا البحر وضمان أمنه بعد نجاحه أيضاً في استرداد أيلة.

ولم يهمل الأيوبيون أمر اليمن. فقد خرجت عدة حملات بقيادة الملك المسعود بن الكامل محمد. من بينها حملة عام ٦١٢هـ/١٢١٥م. وأخرى عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م لضبط الأوضاع فى اليمن[١٠٠]. وعلى الرغم من قيام دولة بنى رسول فى اليمن عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م فقد استمرت على السياسة الأيوبية فى الحفاظ عليه بحراً إسلامياً خالصاً[١٠١].

وربط المماليك بين الكرك والحجاز واليمن. فمنذ بداية حكم بيبرس أرسل إلى اليمن يعلمهم بتوليه الحكم[١٠٢]. ووردت هدايا صاحب اليمن فى عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م حيث قبلها بيبرس [١٠٣]. واستمر قلاوون على السياسة نفسها فى الاهتمام باليمن، وذلك لتنشيط تجارة البحر الأحمر وضمان أمنه، خاصة بعد محاولات الاختراق من الجنوب عبر مملكة الحبشة النصراينة وتكوين حملات مشتركة للقضاء على دولة المماليك[١٠٤]. وتبودلت الهدايا بين قلاوون والمظفر شمس الدين أبو المحاسن يوسف صاحب اليمن. والذى قام بدوره فى مراقبة المدخل الجنوبى مراقبة جيدة حيث منع محاولات الاختراق. ونجحت الاستراتيجية المملوكية فى الحفاظ على أمن البحر الأحمر بطول الساحل الشرقى.

أما الساحل الغربى للبحر الأمر فقد لقى نفس القدر من اهتمام السلطات الإسلامية الحاكمة فى مصر إن لم يكن قد فاق مثيله الشرقى. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب: من بينها أنه أصبح الطريق البديل للحج بدلا من الطريق البرى عبر شبه جزيرة سيناء الذى تأثر بالشدة المستنصرية ثم الاحتلال الصليبى للقدس وأيلة، كما أن التجارة عصب الحياة الاقتصادية لمصر آنذاك كانت تأتى عبر هذا الساحل. وقد اهتم الفاطميون منذ البداية بضمان أمن هذا الساحل. فيشير ناصرى خسرو إلى انتشار الأمن عند عيذاب مبيناً أن البجه التزموا «فهم لا يسرقون ولا يغيرون»[١٠٥] وفضل البحارة ميناء عيذاب، لعمق وغزارة الميناء وخلوه من الشعاب المرجانية التى طالما أطاحت

بكثير من السفن أثناء إبحارها فيه[١٠٦]. كما كان مرفأ الحجاج الذين يفدون إليه عبر الطريق البرى من قوص ويبحرون باتجاه ميناء جدة. وأتت إليه مراكب الهند والحبشة واليمن والحجاز. أما قوص فعلى الرغم من أنها لا تقع على ساحل البحر. فيقول العمرى «ولم تذكر قوص دون ما سواها فى الصعيد إلا لأنها هى مدينتها الحاضرة وبها يحط مصعداً ومنحدراً زمر الرفاق المسافرة»[١٠٧] ووصلت حدودها إلى ساحل البحر الملح اليمنى وذلك فى العصر المملوكى كما أشار ابن شداد[١٠٨]. وأصبحت محل اهتمام السلطات الإسلامية، وكانت المركز الإدارى والعسكرى فى الجنوب. وعلى الرغم من حال الضعف التى مرت بها الدولة الفاطمية فى أواخر عهدها إلا أنها لم تكن مركزاً للثورات[١٠٩]. ويشير الإدفوى إلى حالة الأمن بها بقوله «ومن محاسن (إقليم قوص) الجليلة كثرة الأمن لاسيما فى الوجه القبلى منه»[١١٠] وعهد إلى قبيلة بلى حماية هذا الطريق ما بين عيذاب وقوص والتى أسهمت بدور رئيسى فى نقل الحجاج والتجارة عبره. ويؤكد ابن جبير حالة الأمن عبر هذا الطريق، ويدلل على ذلك بكثرة أحمال الفلفل والبهارات الملقاة على جانبيه ولا يقدم أحد على سرقتها «على كثرة المار عليها من أطوار الناس»[١١١] ولكن يبدو أن قلة المياه أحيانا كانت تؤدى إلى التشاحن بين قبائل البدو فى هذه المنطقة[١١٢].

وقد أسهم عربان الصعيد بدور إيجابى إلى جانب أسد الدين شيركوه أثناء حملته فى مصر عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ. فقد أشار أبو شامة إلى أنه رحل ومعه عدد من العربان عندما طلب منه صلاح الدين القدوم لنجدته حيث كان محاصراً من عمورى وشاور فى الإسكندرية[١١٣]. وعقب قيام الدولة الأيوبية أراد صلاح الدين البحث عن مكان آخر ويلجأ إليه إذا ما تعرض للخطر من جانب نور الدين محمود فأرسل أخاه تورانشاه إلى النوبة جنوباً لفتحها. وفى أثناء طريقه إليها هاجم أحد الثائرين فى بلاد قوص

«وأوقع به وبدد شمله»[١١٤]. واستمر اهتمام الأيوبيين بعد صلاح الدين بالمنطقة نظراً لأهميتها. فرتب الكامل محمد «خفراء لحراسة التجار والمترددين لعبور هذه الرمال الصعبة والبرارى المتوحشة فلا يروعهم أحد»[١١٥] وكان لسطوة السلطات الأيوبية أثرها المباشر على خضوع عربان الصعيد. فقد جرت محاولة من جانب بعض الخارجين، وذلك فى أواخر الثلاثينيات من القرن الثالث عشر الميلادى، وبعد قيامهم بالقبض على والى قوص «إلا أنهم لم يتابعهم أحد على ذلك من العربان لخوفهم من السلطنة»[١١٦]. ويبدو أن العربان استغلوا الصراعات الدائرة بين أبناء البيت الأيوبى فاندلعت الحروب بينهم مما أدى إلى إرسال السلطان العادل سيف الدين أبو بكر عسكراً إليهم حوالى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م بقيادة زين الدين بن أبى ذكرى وجماعة من الأمراء وما يزيد على الألف فارس. وتم إجبارهم على دفع مبلغ ضخم من المال حمل إلى بيت المال، وذلك بعد أن أدت الصراعات إلى ارتفاع الأسعار والإضرار بأمن البحر الأحمر من جهة الجنوب[١١٧].

وفى عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م خرج ما يزيد على عشرة آلاف من عربان الصعيد على الظاهر بيبرس «فإنهم قد طمعوا بتغيير الممالك ونافقوا وقاتلوا والى قوص عز الدين الحواش»[١١٨]. ولم يكن بيبرس بالرجل الذى يترك مثل هذا الخطر يهدد مملكته. فأرسل الأمير عز الدين أفرم ومعه مائتا فارس «فحسم مادتهم وبدد شملهم» «وأراح المسلمين من شرهم»[١١٩]. وسرعان ما اتضح بعد نظر بيبرس فى القضاء على هذه الأخطار التى تهدد أمن البحر الأحمر. فيذكر ابن عبد الظاهر أنه فى نفس العام «توالت التجار من اليمن فى سنة واحدة مرتين وسبب ذلك عدل السلطان، وكان التجار قد سافروا فى غير أوان السفر، ووصلوا ناس بعد ناس، وهذا ما لا سمع بمثله»[١٢٠]. كما أنهم لم يجرؤوا على الاعتداء على أموال التجار الذين وصلوا بأموال عظيمة

فى برارى عيذاب «عندما هرب العربان قدام العساكر»(١٢١) واستطاع بيبرس بذلك أن يضمن ولاءهم من ناحية وضمان أمن البحر الأحمر من جهة أخرى. وفى عهد المنصور قلاوون استمر خضوعهم، بل إننا نجده يستخدمهم فى حملته ضد النوبة عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م(١٢٢). ولم يقتصر دورهم عل ضمان أمن هذه المنطقة بل أيضاً لعبوا دوراً اقتصادياً هاماً حيث كانوا ينقلوا الشبة من الواحات «وتهبط به العرب إلى ساحل قوص»(١٢٣). وبذلك تمكن المماليك من ضمان أمن البحر الأحمر من جهة عربان الصعيد نظراً لما يمثلونه من أهمية أمنية واقتصادية لتجارة البحر الأحمر ويكونهم حلقة الوصل إلى النوبة والحبشة جنوباً.

على أية حال، لم يقف ضمان أمن البحر الأحمر عند قوص، بل حرصت السلطات الإسلامية ـ من الفاطميين حتى المماليك ـ على وقف أية محاولات لاختراق هذا الأمن من جهة مملكتى النوبة والحبشة النصرانية. وقد ربطت أساطير القرن الثانى عشر الميلادى بين ملك النوبة وبين مهاجمة مكة المكرمة والمدينة المنورة مدعية أنه ابن الكاهن يوحنا صاحب الأسطورة الشهيرة(١٢٤) واهتم الصليبيون بالنوبة ووضعها البابااوات ضمن دائرة اهتمامهم لتوحيد الكنائس تحت سيطرة روما. ولذا نجد حرص الأيوبيين بصفة خاصة عليها. وأرسل صلاح الدين حملتين الأولى فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م بقيادة تورانشاه و«أمنت بعده البلاد واطمأن أهلها»(١٢٥) غير أن قوص تعرضت للخطر فخرجت حملة ثانية بقيادة العادل سيف الدين فى عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م حيث «استأصل شأفتهم وأخمد ثأرتهم»(١٢٦).

وفى أواخر عهد الدولة الأيوبية وفى ظل الاستراتيجية الصليبية الرامية إلى الاستيلاء على مصر، بحث الصليبيون عن حليف من الجنوب لمهاجمة مصر معه. فدخلت النوبة فى بؤرة الاهتمام الباوبى، فوردت ضمن المراسيم البابوية فى عامى ١٢٤٥، ١٢٥٣م. ووجهت إليها الدعوات للانضمام إلى

الكنيسة الغربية خاصة وأن كنيستها كانت تتبع بطريريك الإسكندرية[١٢٧].

وفى عهد دولة المماليك الأولى عاد التهديد النوبى لعيذاب بصفة خاصة والتى حرص سلاطين المماليك على حمايتها من أية أخطار تتعرض لها لضمان أمن البحر الأحمر عصب الحياة الاقتصادية. وفى ٢١ محرم ٦٧١هـ/١٨ أغسطس ١٢٧٢م قام داود ملك النوبة بمهاجمة عيذاب ونهب تجار عدن ومصر وقتل خلقًا منهم وكذلك قاضيها وواليها وأسر ابن حلى المشرف على بضائع التجار. وعلى الفور أمر بيبرس بالرد على الغارة فخرج والى قوص بعد حوالى ثمانية أيام. أى فى صفر مما يدل على سرعة تحركه لضمان أمن البحر الأحمر. وتوغل فى بلاد النوبة «ودوخ بلادهم وفعل الأفاعيل التى شفى بها صدر الدولة. وأخذ بها ثأرمن قتل بسيوف تلك الصولة»[١٢٨] وبعد ذلك بعدة سنوات عادة النوبة لتهديد قوص فخرجت حملة فى عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م بقيادة عز الدين أيبك الأفرم وشمس الدين أقسنقر الفارقانى فهاجمتها وكسرت شوكة ملكها ولم يبق من جماعته إلا القليل[١٢٩] كذلك جرد المنصور قلاوون عسكرًا صحبه الأمير علم الدين سنجر المسرورى وعز الدين أيدمر السيفى والى قوص لغزو النوبة فى عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م بعد تكرار تهديدها لأمن البحر الأحمر[١٣٠]. وقد نجح المماليك فى حماية هذا البحر من جهة الجنوب خاصة خطر النوبة وذلك لعلمهم بالمحاولات الصليبية المستمرة للبحث عن حليف من هذه الجهات لاختراق هذا البحر وتجارته التى كانت عصب الحياة الاقتصادية فى مصر، والتى اعتمد عليها المماليك ـ بعد الله عزَّ وجلَّ ـ فى جهادهم للصليبيين.

وعلى الرغم من أن الحبشة أصبحت أحد المحاور الرئيسية لدعاة الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) وذلك لغلق البحر الأحمر من جهة الجنوب والقضاء على دولة المماليك التى نجحت فى طرد

الصليبيين نهائيًا من بلاد الشام، إلا أنها كان لها دورًا فى تهديد أمن البحر الأحمر خلال عصر الحروب الصليبية. فقد هدد ملك الحبشة بهدم الكعبة المشرفة إذا تعرضت البيع ـ أى الكنائس ـ للخطر فى عهد بدر الجمالى(١٣١). وقد أشار مؤرخو الحملة الصليبية الأولى إليها ضمن مؤلفاتهم. ولكن لم تكن معلومات واضحة، لنقص المعرفة الجغرافية آنذاك. ولكن زيارة الأثيوبيين للقدس ولقاءهم برجال الدين الغربيين دفع إلى التفكير لقيام مملكة نصرانية عند حدود آسيا وأفريقيا قد تكون عند الهند أو أثيوبيا(١٣٢). ومع ظهور أسطورة الكاهن يوحنا مع بداية السبعينيات من القرن الثانى عشر الميلادى، عادت الحبشة للدخول فى بؤرة اهتمام الصليبيين خاصة مع وجود الأحباش فى القدس(١٣٣). ولاشك أن صلاح الدين أدرك البعد الأمنى بالنسية لدولته عامة وللبحر الأحمر خاصة من جهة الحبشة. فسمح لهم بالمرور عبر الطريق البرى للوصول إلى القدس. كما أعفاهم من ضرائب تدفع بها(١٣٤). وربما يكونوا ممن سمح لهم بالإقامة فيه عقب استرداده فى عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م(١٣٥).

وفى ظل الاستراتيجية الصليبية الرامية إلى أن «مفتاح القدس موجود فى مصر على وجه الدقة»(١٣٦) ازدادت أهمية الحبشة. وبحث الصليبيون عن ابن الكاهن يوحنا حيث عادت الأسطورة للظهور مرة أخرى أثناء الحملة الصليبية الخامسة مقترنة بأخرى ادعت أنه عندما تسقط مدينتين ساحليتين مصريتين هما الإسكندرية ودمياط فإنه سيلتقى ملكان أحدهما من الشرق والآخر من الغرب وذلك فى القدس(١٣٧). وازداد يقين الصليبيين بهذه الأسطورة مع اجتياح جحافل جنكيز خان لآسيا فى طريقه إلى الغرب ووعود فردريك الثانى بالحضور إلى دمياط والذى ظل الصليبيون يترقبون وصوله(١٣٨). وعقب فشل الحملة الخامسة أرسل جاك دى فيترى مبعوثًا إلى الحبشة للبحث عن الملك المشار إليه فى الأسطورة، وذلك لكى يتم عقد

تحالف صليبى حبشى من الشمال والجنوب ضد الدولة الأيوبية[١٣٩]. وعلى الرغم من عدم تحقيق هذه المحاولة لأية نتائج. فإن الحبشة ظلت تتردد فى المراسيم البابوية حيث أرسلت إليها مبعوثين من قبلها وتوضح رسالة البابا كليمنت الرابع المؤرخة فى ٨ فبراير ١٢٦٧م إلى أن مقدم الرهبان الدومنيكان أرسل مبعوثيه إلى أثيوبيا. وصحبهم أحد الرهبان الذى كان يعرف الطريق جيداً إلى هناك ولم يكن هذا عبر البحر الأحمر ـ والذى حافظ عليه المماليك بحراً إسلامياً ـ وإنما سلك طريقاً آخر يمر ببلاد التتار فى فارس ثم عبر الخليج العربى والهند ثم يبحر من أحد موانيها إلى شرق أفريقيا. وكان هذا هو خط السير الوحيد الذى سمح للاتين والأثيوبيين أن يبعدوا عن الصعاب التى تعترض طريقهم[١٤٠].

ولم تكن هذه المحاولات بعيدة عن إدراك المماليك. فقد عملوا على منع قيام أى تحالف من شأنه أن يهدد أمن البحر الأحمر. واستغلوا ارتباط الحبشة بمصر من النواحى التجارية والثقافية والأكثر من ذلك النواحى الدينية. ويشير العمرى لهذا الارتباط بقوله «لتمكن المترددين من عندهم من زيارة الأماكن المقدسة». وارتباط اليعاقبة ـ ومنهم الأحباش ـ بمصر «لمقام بطريركهم عنده، فإنهم لاباب لهم بخلاف الملكية فإن لأولئك الباب وهو بروميه»[١٤١]. كما أن علاقة مصر باليمن فى عهد دولة المماليك الأولى مكنها من إحكام المراقبة على الحبشة حيث لم يسمح لأى مبعوث حبشى بالمرور إلا بعد الكتابة إلى مصر بشأنه[١٤٢].

وثمة خطر آخر هدد أمن البحر الأحمر ونقصد به خطر حرامية البحر الذين استخدموا جزر دهلك وسواكن مقراً لهم[١٤٣]. وهدد هؤلاء السفن خاصة المنطقة ما بين عيذاب وسواكن. وقد اهتمت السلطات الفاطمية بالقضاء على هذا الخطر. وذكر كثير من المؤرخين بأن عدة هذا الأسطول كانت خمسة استناداً على رواية المقريزى فى ذلك[١٤٤]. وبعد قراءة نص

آخر للمقريزى فى اتعاظ الحنفا يتضح أن الفاطميين رصدوا سفنًا مختلفة لحماية هذه المنطقة منها الشوانى والحراريق وذلك عندما هاجم شريف مكة قاسم بن هاشم سفن التجار فى عام ٥١٢هـ/١١١٨م[١٤٥]. أما هذه السفن الخمس فقد أضافها الفاطميون إلى جانب الأسطول السابق. وأن يكشف ما بساحل عيذاب من الشوانى والحراريق، فمهما كان يحتاج إلى إصلاح ومرمة ينجز الأمر فيه» «وتقدم إلى المستخدم بصناعة مصر بتقديم خمس حراريق وتكميلها ليسيروا (كذا) إلى الحجاز»، «فجهز إلى الأعمال القوصية الاهتمام بالجلاب الديوانية وترميم ما يحتاج إلى المرمة، وتجديد عوض ما تلف»[١٤٦]. ومن ناحية أخرى نلاحظ أن مسئولية هذا الأسطول عهد بها إلى والى قوص مما يدل على أهمية الربط بين قوص وأمن البحر الأحمر وهو ما سبق الإشارة إليه.

وفى عهد الدولة الأيوبية أسهم هذا الأسطول فى توفير الأمن الاقتصادى لهذا البحر وخاصة عند ساحله الشرقى، فيشير العماد الكاتب إلى أن صلاح الدين عندما أسقط المكوس المفروضة على الحجاج وعوض صاحب مكة بثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه كل عام حملته الجلاب الثلاث[١٤٧]. ولا يعنى ذلك نجاح السلطات الإسلامية فى القضاء تمامًا على خطر هؤلاء الحرامية فيشير أحد خطابات الجنيزة إلى أن مراكب التجار لم تكن دائمًا بمنأى من هذا الخطر[١٤٨]. وربما كان ذلك دافعًا إلى موافقة الفاطميين لكبير التجار اليهود فى عدن على حماية سفنه التى يملكها أو يشرف عليها[١٤٩].

وفى بداية دولة المماليك، عاد التهديد مرة أخرى لأمن البحر الأحمر من جانب جزيرتى دهلك وسواكن. فقد تعرضوا لأموال من يموت من التجار وذلك فى عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م. وفى البداية أرسل الظاهر بيبرس إليهم بدر الدين ابن الداية ينكر عليهم ذلك[١٥٠]. ولكن عندما تكرر هذا

التهديد في عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م سارع بيبرس بإرسال حملة بحرية قوية لتأديب صاحب سواكن. وخرج والى قوص على رأس هذه الحملة المؤلفة مما يزيد على أربعين مركبًا «كبارًا وصغارًا» وشحنت بالمقاتلة. كما خرجت خمسة كلالين موثقة من القصير. واستمرت هذه الحملة لمدة عشرة أيام تمكن بعدها قائدها علاء الدين من أن يقضى على هذا الخطر «وتمهدت البلاد» وعاد صاحبها للدخول فى طاعة الدولة[١٥١]. ونلاحظ على رواية المصادر أن هناك مراكب صنعت لهذه الحملة. ومنها ما كان جاهزاً فى القصير والتى ربما كونت جانبًا من الأسطول الذى عهد إليه حماية هذه المنطقة. كما أنها تدل على مركز جديد من مراكز الحماية فى البحر الأحمر وهو القصير. ويبدو أن هذه الحملة كانت من الكفاية بحيث لم يعد هؤلاء الحرامية إلى تهديد أمن البحر الأحمر فلم تشر المصادر إلى تهديدهم للتجار، وذلك نظراً للاستراتيجية الشاملة التى اتبعتها دولة المماليك بالنسبة للبحر الأحمر فحرصت على توفير الأمن له من جميع جهاته سواء مداخله الشمالية أو الجنوبية أو على طول ساحليه الشرقى والغربى، بل أيضًا فى جزره.

وثمة نوع آخر من الحماية وفرتها السلطات الإسلامية لأمن البحر الأحمر. ونقصد بذلك الأمن الاقتصادى وهو لا يقل بحال عن الأمن العسكرى فقد حرص الفاطميون والأيوبيون والمماليك على منع أية قوى غير إسلامية أن تبحر فيه. وعبثًا حاول الإيطاليون الحصول على امتيازات تجارية تقربهم إلى منافذ هذا البحر، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل[١٥٢].

كما ألغى صلاح الدين الضرائب التى كانت تؤخذ من الحجاج فى جدة وعوض صاحب مكة بدلا منها حتى يوفر الأمن للحجاج وكذلك للتجار[١٥٣]. كما وطد علاقته بزعيم اليهودفى مصر موسى بن ميمون حتى يضمن التجار اليهود فى اليمن جنوبيًا والذين كان لهم تجارة قوية فى عدن على الرغم من أنه لم يسمح لهم بالتوغل فيه[١٥٤]. وقد أتت هذه السياسة

الأيوبية ثمارها ويؤكد ابن واصل وابن العميد ذلك حتى أن التجار شعروا بالأمان «فلا يخافون سارقًا ولا قاطع طريق»[١٥٥].

أما فى العصر المملوكى فقد شجع بيبرس التجارة. فألغى تصقيع الأملاك الذى كان السلطان قطز قد فرضه. كما اشترط على الشريف نجم الدين أبى نمى «أن لا يتعرض إلى تاجر أو حاج بظلم»[١٥٦] وأغدق على أهل الحجاز وبدر وغيرهم حتى لا تؤثر اضطراباتهم على التجارة عبر البحر الأحمر[١٥٧] أما قلاوون فكان أكثر اهتمامًا بتوفير هذا الأمن الاقتصادى للبحر الأحمر. فأبطل زكاة الدولبة والتى كان كل تاجر يدفعها عند خروج الجنود للجهاد[١٥٨]. كما أصدر مرسومًا عامًا لجميع التجار كى يحثهم ويشجعهم على القدوم بتجارتهم وأعطى لهم الامتيازات والأمان[١٥٩]. ومن وصاياه لابنه «إطابة قلوب التجار واستمالة خواطرهم ومعاملتهم بالعدل والإحسان والرفق والإنصاف: ليتوجهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التـ مع اعتماد مصلحة الديوان المعمور»[١٦٠].

ولاشك أن المماليك حرصوا على توفير هذا الأمن الاقتصادى للبحر الأحمر، لعلمهم بمحاولا ت الحصار الاقتصادى لمصر من جانب الصليبيين وعلى الرغم من وضوح هذه السياسة فى القرن الرابع عشر الميلادى، إلا أن الجذور الأولى لها كانت أثناء القرن الثالث عشر الميلادى، فقد حاولت أرمينية القيام بهذا الدور. وكذلك الأمير الإنجليزى إدوارد الأول فى حملته على الشام عام ١٢٧١م/ ٦٧٠هـ[١٦١] وقبل سقوط عكا بعام ـ أى فى ١٢٩٠م/٦٨٩هـ ـ جرت محاولة صليبية لاختراق البحر الأحمر ولكن عبر طريق فارس ـ الخليج العربى ـ فوصلت أعداد من الجنوية إلى بغداد وتبعهم سبعمائة من الفرنج. ولكن المحاولة باءت بالفشل. وأخيرًا كتب أحد الدعاة الصليبيين «إذا بنى البابا سفينتين فى هذا البحر (الخليج العربى) فأى مكسب سيكون ولسلطان الإسكندرية أى خسارة ستكون»[١٦٢]

وجاء سقوط عكا فى عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ لكى يطوى صفحة فى تاريخ هذه المرحلة من الصراع الصليبى الإسلامى. وفى القرن الرابع عشر الميلادى/ الثامن الهجرى أصبح البحر الأحمر محور دراسات الدعاة والمبشرين الصليبيين لقيام حملات جديدة. وفى النهاية أعرب أحد الصليبيين عن نهاية هذه الحروب بقوله:

أتت ساعتنا

عسكراً بعد عسكر

لنغادر الأرض المقدسة(١٦٣).

الهوامـــــش

(١) ريموندا جيل: تاريخ الفرنج غزاة بيت المقدس، ترجمة د. حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) أشار المؤرخ المجهول وبطرس تيدبوده إلى هذا الاجتماع دون أن يوردا لنا تفاصيله واكتفيا بالإشارة إلى أنه تم اختيار أسقف للرملة فقط. انظر: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وعلق عليه د. حسن حبشى، القاهرة ١٩٥٨، ص ١١٤؛

Tudbodus, Petrus, Historia de Hierosolymitano itinere, trans by J. Hill and L.L. Hill, Philadelphia, 1974, p. 111.

وكذلك سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ٢جـ، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٤٠.

(٣) عن سقوط حيفا ودور البنادقة فى ذلك انظر:

ابن القلانسى، تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار، دمشق ١٩٨٣، ص ٢٢٥؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة، ٧١-١٩٧٣، جـ٣، ص ٢٦، وكذلك:

Hagenmayer, Chrnologie de la premiére croisade, in R.O.L. Vol. VII, Paris, 1900-1901,pp. 339-47.

(٤) Fulcher of Chartres, A History of the Expeditions to Jerusalem (1095-1127) trans, by Frances Rita Ryan, ed., with an introduction by H.S. Fink, Knouvill, 1969, IV, pp. 146-47.

(٥) The Alexiad of Anna Commena, trans from the Greek by E.R. Sewter , Penguin Books, 1982, pp. 355-57.

وعن تأثيرها على الطريق انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٦) ذكر وليم الصورى أن بلدوين هاجم قبيلة عربية فى هذه المنطقة، ويذكر ألبرت اكس غارة أخرى على قافلة كانت تعبر هذه المنطقة واستولى بلدوين على أحمال ضخمة من السكر والفلفل والزيت والعسل حملها إلى القدس.

William of Tyre, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, tr. by Babcock and Krey, 2 vols. New York, 1943, 10-8, pp. 426-27; Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed., R.H.C.H - Occ., t. IV, Paris, 1879, p. 648, cf. also: J. Prawer, Crusader Institution , Oxford, 1980, pp. 473-74.

(٧) M. Benvenisti, The Crusaders in the Holy land, Jersualem, 1976, p. 319.

(٨) عن اتفـاق بلدوين ودمـشق انظر: ابن القـلانسى: تاريخ دمـشق، ص ٢٦٣-٢٦٤، وكذلك:

Prawer , Crusader Inst., pp. 474-75; Ricahrd, J., The Latin Kingdom of Jersualem, 2 vols. trans. from the original by Jeant Shirly, Amsterdam, 1979, p. 29.

(٩) لم توضح المصادر الصليبية هل بنى بلدوين قلعته فوق أنقاض الشوبك القديمة أو أنه اتخذ موقعًا جديدًا وكذلك اختلفت المراجع ما بين أنها بنيت على أنقاض الشوبك أو بجوارها. للمزيد راجع:

Fulcher of Chartres, op.cit., p. 215, n.I; William of Tyre, op.cit., pp. 506-07; Cf. also: Benvensiti, op.cit., p. 319; Prawer, Crusader, Inst., p. 467.

(١٠) Flucher of Chartres, op.cit., 11, LV. p. 215; William of Tyre, op.cit., 11, 26, pp. 505-506; Cf. also, Prawer, Crusader Inst., p. 475.

حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ـ مقال فى كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (مجموعة أبحاث) ـ القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٠٧.

(١١) خلط ألبرت أكس بين الحملتين مشيرًا إلى خروج مائتى فارس وأربعمائة من المشاة مع بلدوين حيث تم بناء القلعة فى ثمانية عشر يومًا، ثم تقدم مع ستين فارسًا إلى البحر الأحمر، انظر: Albert d'Aix, op.cit., XII, c. 20, p. 699.

وتقع جزيرة فرعون على مسافة أربعة عشر كيلو مترًا جنوب غرب أيلة وترك بلدوين حامية بها. انظر: Benvenisti, op.cit., p. 319.

(١٢) تأثر هذا الطريق أيضًا بالشدة المستنصرية التى ألمت بمصر منذ عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، كما تركت تأثيرها على الأوضاع فى بلاد الحجاز حيث خرج محمد بن جعفر بن أبى هاشم أمير مكة على الخلافة الفاطمية وأعلن تبعيته للخلافة العباسية. انظر:

حسنين ربيع: البحر الأحمر، ص ١٢٢؛ عائشة بنت عبد الله باقاسى، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى، مكة ١٩٨٠، ص ٢٥-٢٦.

(١٣) أشار د. يوسف غوانمة إلى السيطرة الصليبية على تجارة البحر الأحمر ولو جزئيًا، ثم عاد وتدارك ذلك بقوله إن ذلك لم يلحق إلا بالحجاج وهذا هو الصواب. انظر: إمارة الكرك الأيوبية، ط ثانية، الأردن ١٩٨٢، ص ٦٥.

(١٤) Richard , The Latin Kingdom, p. 88.

ولم يحدد لنا مصدره الذى استقى منه هذه المعلومة.

(١٥) استخدم بلدوين الطريق الشمالى المار بالعريش ثم يصل إلى الأفرع الشمالية لدلتا النيل واستخدمته أيضًا عدة حملات صليبية هاجمت مصر، وكذلك القوات الفاطمية التى كانت تخرج إلى عسقلان برًا. وأشار وليم الصورى إلى دور قبائل البدو فى هذه المنطقة حيث أخذ معه مرشدين متمرسين. كما ذكر ألبرت أنهم قدموا له الماء والطعام لتتجنب خطره. وقدر عدد قوات بلدوين بمائتين وستة عشر فارسًا وأربعمائة من المشاة.

William of Tyre, op.cit, 11-13, p. 515; Albert d'Aix, op.cit., p. 705.

وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٢٩. أما العريش فيشير ياقوت أن أهلها من جذام وهناك بئرى أبى إسحاق على مسافة ستة أميال منها وكانت تمر عليها القوافل. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، أجزاء، بيروت، ١٩٨٠، جـ٤، ص١١٤.

(١٦) أشار ألبرت إكس إلى هذه الرواية، بينما لم يوردها فوشيه الذى لم يكن مصاحبًا للحملة. وربما كانت صحيحة نظرًا لحرص هؤلاء الرهبان على علاقتهم بالسلطات الإسلامية سواء الفاطمية أو الأيوبية أو المملوكية والتى حرصت من جانبها على توفير الأمان لهم وحمايتهم من اعتداءات البدو. للمزيد انظر: جوزيف نسيم يوسف، دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، العدد ١٨ سنة ١٩٦٤، ص ١٨٢ وما بعدها.

(١٧) كان جانبًا من هذه القبائل يعتنق النصرانية وقد هجر بلدوين الأول قسمًا منها إلى القدس وذلك فى عام ١١١٦م/٥١٠هـ وبعد حملاته على هذه الجهات، كما حصلوا على امتيازات منه مثل المساكن وقطع من الأرض لزراعتها انظر:

William of Tyre, op.cit., XI, 27, pp. 507-08, Cf. Also: Prawer, Crusader Inst., pp. 92-93.

(١٨) Prawer, Crusader Ins. p. 472.

(١٩) William of Tyre , op.cit., II, 15/22, pp. 127-128; Cf. also: Deschamps, p. Les chateaux des croises en terre Sainte: La defense du royaume de Jerusalem, 2 vols. , Paris, 1934-9, pp. 38-39.

(٢٠) أشرنا إلى تشييد قلعة وادى موسى فى عام ١١١٧م/٥١١هـ وذكرها وليم الصورى فى عام ١١٤٤م/٥٣٩هـ حيث دعا البدو فى هذه المنطقة السلاجقة للاستيلاء عليها. وتقابلها سلا Celle أو الصلت ثم تافيلا ويلاحظ أنها تقع بطول الطريق المؤدى إلى أيلة. انظر عن موقعها خريطة رقم (١).

(٢١) بالإضافة إلى الطريق الساحلى عبر شبه جزيرة سيناء، كان هناك الطريق المدرية ـ الذى سمى بذلك لأن جانبًا منه كان قريبًا من النيل فسمى بذلك أى قطع الطين اليابس، كما كان هناك الطريق البدرية أو الفوقانية بعيداً عن الطريق الشمالى وعبرته القوافل بعيداً عن تهديد الصليبيين وكان يقطع فى ثمانية أيام، كما سلكه المتهربون من التجار بعيداً عن دفع الحقوق السلطانية عند الفرما. كما وردت إشارة إلى طريق البرية وهو الذى سلكه صلاح الدين أثناء عودته بعد هزيمة تل الصافية فى ١١٧٧م/٥٧٣هـ. للمزيد انظر: سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ٨، ق١، حيدر آباد ـ الدكن، ١٩٥١-١٩٥٢، ص ٣٤٣؛ أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، ٢ جـ فى مجلد واحد، جـ٢، ص ٢٨ك ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع، تحقيق د. سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٨، حـ(٤)؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٣، ص ٣٧٠.

(٢٢) ابن أيبك، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٢٣) انشئت قلاع أخرى مثل بير سبع واللد والرملة والداروم ونقلت أسر ومزارعون للإقامة حولها وإمدادها بما تحتاج إليه من مؤن وإمدادات للمزيد راجع:
William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 80-81, 130-132; Cf. also: Benvenisti, op.cit., pp. 114-117; Prawer, Crusader Inst., pp. 473-78; Mayer, H.E., The Double County of Jaffa and Ascalon, One Fief or Two? in Crusade and Settlement, Cardiff 1985, pp. 181-187.

(٢٤) للمزيد راجع: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٦٨٠؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٩٩ وما بعدها، وكذلك:
Schlumberger, G., Campanages du roi Amaury I de Jerusalem en Egypte au XII Siécle, Paris, 1906, pp. 117-119, 136-140; Omran, M.S., King Amalric and the Siege of Alexandria , 1167, in Crusade and Settlement, Cardiff, 1985, pp. 191-196.

(٢٥) مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٢٩١.

(٢٦) Prawer, Crusader Inst., p. 479.

(٢٧) أشار سبط ابن الجوزى إلى إغارة صلاح الدين على غزة وعسقلان والرملة، كما حدد

ابن الأثير استرداد أيلة فى العشر الأول من ربيع الآخر/ ١٢ ـ ٢١ ديسمبر ١١٧٠م، للمزيد انظر:

مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٢٨٣ك الكامل، جـ٩، ص١١٠؛ وكذلك يوسف درويش، إمارة الكرك، ص ٦٢، راجع أيضاً:

Richard , The Latin Kingdom, pp. 50-51.

(٢٨) أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ٢٤٢، وردت هكذا فى النص وصحتها موئلا(١).

(٢٩) نفسه،ص ٢٤١-٢٤٣.

(٣٠) نفسه، ص ٢٤٢.

(٣١) Prawer, Crusader Inst., p. 480.

(٣٢) عماد الدين الأصفهانى، البرق الشامى، الجزء الثالث، تحقيق د. مصطفى الحيارى، عمان ١٩٨٧، ص ٦٦-٦٧، أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ٢٧٦ وعن صدر انظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ٣٩٧.

(٣٣) المقريزى، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، صورة بالأوفست عن طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ، ص ٢١١.

(٣٤) أشار الأصفهانى فى رواية أخرى إلى خروج والى الشرقية لردهم. أما الداروم فتقع على بعد ٥ أميال من غزة. وكانت تتحكم فى فرض الضرائب سنوياً على سكان القرى المجاورة وكذلك على المسافرين عبر هذه الطريق. وذكر ياقوت أن فاران كورة من كور مصر القبلية.

William of Tyre, op.cit., 20/19, p. 371-72.

ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٦٢؛ ابن شاهنشاه الأيوبى، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: د. حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٥٠-١٥١ وحدد الغارة فى ٢٤ محرم/ ١٩ مايو ١١٨٣ م. عماد الدين الأصفهانى، البرق، جـ٥، ص ١٤١، ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٢٢٥.

(٣٥) Chronique d'Ernoul et Bernard le Trésorier, ed. L. de Mas Latrie (Paris 1971), p. 68.

(٣٦) لم تذكر المصادر صراحة خروج أرناط إلى تيماء وإنما أشارت إلى عزمه على ذلك. أما أرنول فقد أشار إلى نهب أرناط لقافلة إسلامية متجهة من دمشق إلى مكة. للمزيد انظر: Ernoul, op.cit., pp. 54-56.

ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٥٢-١٥٣؛ أبو شامة، الروضتين، جـ٢، ص٢٣-٢٤.

(٣٧) عماد الدين الأصفهاني الكاتب، البرق الشامي، جـ٥، تحقيق وتقديم الدكتور فالح صالح حسين، عمان، ط أولى، ١٩٨٧، ص ٧٣.

Ernoul, op.cit., pp. 69-70.

(٣٩) الخطط، ص ٢١١.

(٤٠) مفردها جلبة وتجمع أيضاً جلب وجلبات. واستخدمت بصفة خاصة في البحر الأحمر. وأورد ابن جبير وصفاً دقيقاً لها، وأشار ابن بطوطة إلى حملها للجمال أيضاً أثناء عبورها مما يدل على ضخامتها واستخدمت في نقل الحجاج أيضاً فيما بين عيذاب وجدة. وهي

(٣٨) لا يستعمل فيها مسمار وتربط عيدان النخيل بخيوط من قشر جوز النارجيل وتدهن بدهن الخروع أو القرش وذلك حتى تصير لينة. وللمزيد راجع: درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية، ١٩٧٩، ص ٢٧-٢٩.

Ernoul, op.cit., p. 69.

(٤٢) هناك أنواع عديدة من الشيني - مثل الغراب والطريدة والجفنة والحراقة وهي جميعاً من سفن البحر المتوسط باستثناء الحراقة التي أشير إلى استخدامها في البحر الأحمر ولكنها لم تكن تبنى من عيدان النخيل ولم تكن شائعة الاستخدام. وفي الواقع أن الصليبيين لم يكن لديهم الخبرة في أعمال البحر اعتماداً على المدن الإيطالية التي قامت بدور الوسيط

(٤١) بينهم وبين أوروبا. ولم يكن لمملكة بيت المقدس أسطول بحري مما يؤكد ما توصلنا إليه عن دور بدو هذه المنطقة وعلاقتهم ببناء هذه السفن. وعن أنواع السفن السابقة انظر: درويش النخيلي، المرجع السابق، ص ٢٤-٢٧، ٨٤، ٨٩، ١٠٦.

(٤٣) الروضتين، جـ٢، ص ٧٢.

(٤٤) أكد سبط بن الجوزي إحضار أرناط للأخشاب معه وقيام الصناع بصناعتها عند أيلة: انظر : مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٣٦٩.

(٤٥) أشار أرنول صراحة إلى السفن الخمس. ولم تحدد المصادر العربية إلا سفينتين عند جزيرة فرعون، أما باقي الأسطول فلم تحدد لنا عدده. ويشير براور فقط إلى ثلاثة اثنتان حاصرتا الجزيرة وأبحرت الثالثة دون أن يحدد لنا مصدره في ذلك. انظر:

Ernoul, op.cit., p. 69, Cf. also: Prawer, The Latin Kingdom, p. 482.

(٤٦) أبو شامة، الروضتين، جـ٢، ص ٣٦؛ اتفق سبط ابن الجوزي والعماد الكاتب في عدد الأسرى بأنهم مائة وسبعين أسيراً، وأرسل اثنان منهم إلى منى حيث نحرهما ومنهم من أرسل إلى المدينة المنورة وكذلك شاهد ابن جبير هؤلاء الأسرى في أثناء زيارته

للإسكندرية. أما العليمى فيشير إلى أنه تم اختيار اثنين من أعيان الفرنج ونحرا فى منى. ويشير شاومبرجيه إلى قرار الباقين شمالا إلى الكرك عبر الصحراء. ولم يعط لنا أرنول أية تفاصيل عن الحملة سواء فى البحر الأحمر أو عند نزولها إلى ساحل الحجاز. انظر : ملحق رقم(١). وكذلك : سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ق ١ ، ص ٣٦٩، العماد الأصفهانى، البرق، جـ٥، ص ٧٥؛ العليمى (مجير الدين)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ جـ فى مجلد واحد، عمان ١٩٧٣، ص ٢٨٠-٢٨١.

Schulmberger, G., Reanud de Chatilion, Prince d'Antioche Seigneur de le Terre d'Outre Jourdain, Paris, 1898, pp. 204-210.

(٤٧) كذلك أشار د. يوسف غوانمة إلى مشاركة الداوية بثلثمائة فارس مع أرناط وهو ما لم يشر إليه أرنول ـ المصدر الصليبى الوحيد عن الحملة ـ كما أن الداوية لم يملتكوا قلاعًا على هذا الطرق تؤهلهم للمشاركة فى هذه الحملة. للمزيد انظر: يوسف غوانمة، إمارة الكرك، ص ١٢٨-١٣٢ ؛ صبحى لبيب، التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، الجمعية التاريخية المصرية، ١٩٥٣، ص ٨-٢١١.

Schulmberger, op.cit., pp. 206-208; La Mont J., Feudal Moarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291, Massachusetts, 1939, pp. 140-41.

(٤٨) العليمى، الأنس الجليل، ص ٢٨٩-٢٨١.

(٤٩) يوسف غوانمة، إمارة الكرك، ١٢٨-١٢٩.

(٥٠) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٩٨.

(٥١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)، تحقيق دوروتيا كرافولسكى، ط. أولى، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢١٢-٢١٣.

(٥٢) الروضتين، جـ٢، ص ١٣٤.

(٥٣) عن حملات صلاح الدين على الكرك انظر:

Schulmberger, op.cit., p. 210 ff.

Oliver of Paderborn, The Capture of Damietta, trans. by John J. Gavian, Philadelphia, 1948, pp. 45-46.

وللمزيد من عروض الصلح أثناء الحملة الصليبية الخامسة انظر: محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دى برين على مصر، الإسكندرية ١٩٨٥، ص ٣٢٢-٣٢٣؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون فى الأراضى المقدسة، الإسكندرية ١٩٨٩، ص ١٦٧-١٧١.

(٥٥) أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، نشر السيد عزت العطار الحسيني، ط أولى، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٨٠؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الأول، ٣ أجزاء، نشر وتعليق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٤٢، جـ١، ص ٣٢٨.

(٥٦) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر د. عبد العزيز الخويطر، ط أولى، الرياض ١٩٧٦، ص ٢٢٠.

(٥٧) نفسه، ص ١٠١.

(٥٨) نفسه، ص ٣٥١.

(٥٩) بيبرس الدادوار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق د. زبيدة عطاء، شركة المدينة للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٦٠) أشارت المصادر الصليبية إلى أسماء بعض القبائل في هذه الفترة المبكرة مثل قبيلة المناسة وقبيلة سمعان، كما سرد وليم الصورى علاقة بلدوين بأحد زعماء القبائل في المنطقة، ومن ناحية أخرى أطلق على البدو لفظ سيدار Cedar انظر:

William of Tyre, op.cit., pp. 355-57, 412-13; Cf. also, Prawer, Crusader Inst., pp. 471-72.

وعن علاقة بلدوين بالبدو انظر: محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ١٦٧ ح(١).

(٦١) المقريزى، البيان والإعراب بمن حل مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١، ص ٣-٤. وأشار إلى أنهم بطن درما وزريق.

(٦٢) تاريخ دمشق، ص ٥٣٩-٥٤٠.

William of Tyre, op.cit., II, 118-119, 231-32.

(٦٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، بدون تاريخ، بيروت، ص ٥٧.

(٦٥) الروضتين، جـ٢، ص ٧٢.

(٦٦) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٢٩٣.

(٦٧) العماد الكاتب، البرق، جـ٣، ص ١٠٢.

(٦٨) William of Tyre, op.cit., II, XXI, 23, pp. 430-31.

ويؤكد العماد الكاتب وأبو شامة أن أعداداً كبيرة من قوات صلاح الدين ضلت الطريق بل إن الأدلاء خرجوا للبحث عن صلاح الدين نفسه، انظر: البرق، جـ٣، ص ٤١.

(٦٩) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جـ، القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠، جـ١٣، ص ٨٩.

(٧٠) المكين جرجس ابن العميد، أخبار الأيوبيين، نشر كلود كاهن فى .B.E.O، جزء ١٥، ص ٨٩.

(٧١) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١-٣، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠، جـ٤-٥ تحقيق الدكتور محمد حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٢-١٩٧٧، جـ٥، ص ١٥٧.

(٧٢) ابن لقلق (كيرلس الثالث)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المجلد الرابع، نشر د. أنطون خاطر، القاهرة ١٩٧٤، ص ٩١-٩٢.

(٧٣) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، ٢ جـ، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٧-١٩٨٨، جـ١، ص ٨٩.

(٧٤) شافع بن على، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرة، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض، ص ٧٤.

(٧٥) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٦٤-١٦٥؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فيسبادن، ١٩٨٣، ص ٣٣٤-٣٣٥؛ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص٩٨؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٨٠-٤٨١.

(٧٦) يرجع اهتمام بيبرس بالبريد لضمان وصول الأخبار إليه فى أسرع وقت لكى يلم بأحوال البلاد، انظر بيبرس المنصورى، التحف الملوكية فى الدولة التركية، نشر د. عبد الحميد صالح، بيروت ١٩٨٧، ص ١١٥؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص ٣٥٠؛ شافع بن عليّ الفضل المأثور، ورقة ٩٦ و٩٦ظ.

(٧٧) شافع بن على، حسن المناقب، ص ٧٧.

(٧٨) التحف الملوكية، ص ١١٥-١١٦؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص ٣٥٠.

(٧٩) تدخل المعز لدين الله الفاطمى لكى يصلح بين بنى الحسن وبنى جعفر أثناء الصراع الدائر بينهما وذلك فى عام ٣٤٨هـ/٩٥٩م، انظر : عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز، ص ١٩-٢٠.

(٨٠) توقفت المساعدات الفاطمية للحجاز أثناء هذه الشدة مما أدى إلى خروج محمد بن جعفر بن أبى هاشم على الخلافة الفاطمية وإعلان ولائه للعباسيين. انظر: حسنين ربيع، البحر الأحمر، ص ١٢٦؛ عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز، ص ٢٥-٢٦.

(٨١) المقريزى، اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ٣، ص ٥٨-٥٩؛ درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٣٣.

(٨٢) أقطع نور الدين القطائع للعرب فى الحجاز حتى يكفوا عن اعتدائهم على الحجاج، وكذلك فعل الحافظ بن عساكر أما الوزير جمال الدين وزير الموصل فقد بنى سوراً حول المدينة المنورة ـ على أفضل ساكنيها الصلام والسلام ـ لكى يحميها من غارات هذه القبائل. انظر: النويرى نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٨، ق١، ص ٢٠٥، ٢٤٨، ٣٠٦.

(٨٣) عائشة بنت عبد الله، بلاد الحجاز، ص ٣٨.

(٨٤) الروضتين، جـ٢، ص ٣٧.

(٨٥) الأنس الجليل، ص ٢٨١.

(٨٦) عاتق بن غيث البلادى، معجم قبائل الحجاز، مكة ١٩٨٢، ص ١٣٣، ١٨٠.

(٨٧) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٢٢٠.

(٨٨) شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٦٨؛ ابن عبد الظاهر، الروض، ٢٧٦، أما العداد فهو زكاة مفروض سنوياً على قطعان القبائل التركمانية والعربية، المقريزى، السلوك، ص ٤٨٠-٤٨١.

(٨٩) بلى من أشهر بطون قضاعة وهاجر عدد كبير منهم إلى السواحل الغربية للبحر الأحمر عند شمال شرقى السودان. ومنهم من هاجر إلى الشام ومصر. وعمل جانب منهم على درك الحج. فمنهم أهل حمل ودرك كالجعافرة ومنهم أهل حمل فقط. أما الرسل الذين وفدوا على بيبرس فهم مالك بن بدر الزبيدى وغانم بن سند الزبيدى وشبل بن عراوة البلدى وقيل البلوى، للمزيد راجع: ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٢٦٥؛ ابن شداد، سيرة الظاهر بيبرس، ص ٣٢٩-٣٣٠، وكذلك: عاتق بن غيث، معجم قبائل الحجاز، ص ٤٣-٤٤ وعن أصول القبائل العربية التى هاجرت إلى الشام انظر: محمد محمد مرسى الشيخ، القبائل العربية فى بلاد الشام، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص٢٢-٣٧.

(٩٠) بنو صخر بطن من جذام كانوا يقطنون جهات العلا بالحجاز ثم نزحوا إلى بلاد الكرك ولما ضايقتها بشائرها انتقلت إلى البلقاء فضايقتها عدوان فارتحلت إلى جهات غزة. وحدث أيضاً بينها وبين ثعلب صدام فى أواخر العهد الأيوبى. أما بنو لام فهم بطن من طى والتى كانت ديارها تمتد إلى تيماء، ونزلوا حول المدينة المنورة، وبنو عنتر من جذام وكانت منازلهم البلقاء ومنهم بالحجاز. انظر: عاتق بن غيث، معجم قبائل الحجاز، ص ٢٤٤-٢٤٥، ٤٨٦.

(٩١) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٥٦.

(٩٢) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٥١-٣٥٢؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص ٤٦-٤٧؛ بيبرس المنصورى، التحف الملوكية، ص ٨٨.

(٩٣) العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص ٢٤٤.

(٩٤) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٢٦٥.

(٩٥) شافع بن على، الفضل المأثور والسلطان الملك المنصور، البودليان باكسفورد رقم ٤٢٤ ميكروفيلم، ٨٠ظ.

(٩٦) أرسلت الدولة الفاطمية حملة بقيادة الصليحى عام ٤٥٤هـ/١٠٦٣م للقضاء على تمرد محمد بن جعفر بن أبى هاشم، انظر: عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٠٧-١٠٨.

(٩٧) حسنين ربيع، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى، ضمن دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ١٣٤.

(٩٨) Ashtor, E., Levant Trade in the Later Middle Ages, Princton, New Jersy, 1983, pp. 270-71.

(٩٩) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٣، ص ٨٦، كما أورد أبو شامة روايات المؤرخين المختلفة حول أسباب فتح اليمن. أما السبط فقد أشار إلى استئذان صلاح الدين فى فتحه لليمن. وأشار أرنول باختصار إلى فتح صلاح الدين لليمن مما يدل على علم الصليبيين بذلك. انظر: الروضتين، جـ١، ص ٢١٦-٢١٧؛ مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٢٩٩؛ راجع أيضًا: Ernoul, op.cit., p. 54.

وكذلك محمد عبد العال، الأيوبيون فى اليمن، مع مدخل فى تاريخ اليمن الإسلامى إلى عصرهم، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٧٠-٧١.

(١٠٠) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٣، ص ٢٢٧، وعن الاضطرابات فى اليمن قبل حملات الملك المسعود، انظر نفسه، جـ٣، ص ١٣٥-١٣٨.

(١٠١) حسنين ربيع، البحر الأحمر، ص ١٢٢، وتجدر الإشارة إلى أنه أعدت حملة أيوبية لاسترداد اليمن فيما بعد عام ١٢٤٤م/٦٤٢هـ وكانت حملة ضخمة مكونة من ألفى فارس وأربعين مركبًا. ولكن حدث ما عطل الحملة ولم يخرج سوى ثلاثمائة أو

أربعمائة فارس بهدف إبعادهم إلى مكة. انظر: ابن لقلق، تاريخ بطاركة الكنيسة، ص ١٠٦-١٠٧.

(١٠٢) العينى، عقد الجمان، جـ١ ،ص ٢٨٨.

(١٠٣) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٨٢.

(١٠٤) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٣٥، وكذلك : سعيد عاشور، مركز مصر فى التجارة العالمية فى أواخر العصور الوسطى، مقال فى كتاب دراسات وبحوث فى تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧، ص ١٣٥.

(١٠٥) ناصرى خسرو علوى، سفر نامة ـ نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٤، ص ٧٢.

(١٠٦) حسنين ربيع، البحر الأحمر، ص ١١٨.

(١٠٧) مسالك الأبصار، ص ١٤٧، ١٤٩.

(١٠٨) تاريخ الملك الظاهر بيبرس، ص ٣٣٥.

(١٠٩) Gracin, Un Centre Muslman, Qus, IFAO, Caire, 1976, p. 99.

(١١٠) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٨.

(١١١) ابن جبير، الرحلة، ص ٦٣.

(١١٢) نفسه.

(١١٣) أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ١٦٩، وكذلك : حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، ص ١٢٠-١٢٣.

(١١٤) أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ٢٣٥.

(١١٥) ابن العميد، تاريخ الأيوبيين، ص ١٤٤.

(١١٦) كيرلس الثالث (ابن لقلق)، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ص ١١٥.

(١١٧) نفسه، ص ٨٤-١٠٨.

(١١٨) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٢٨؛ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص ٩٢؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٧١.

(١١٩) العينى، عقد الجمان، جـ١، ص ٣٣١.

(١٢٠) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٢٨؛ شافع بن على، حسن المناقب، ص ٢٨ وحدد شافع عدد الفرسان بمائتى فارس.

(١٢١) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٣٢.

(١٢٢) بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص ٢٤٣.

(١٢٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٥٥.

(١٢٤) Oliver of Paderborn, The Capture of Damietta, pp. 49-50.

(١٢٥) ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٢٠؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(١٢٦) نفسه، ص ٢٣٥، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٣٢.

(١٢٧) Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, p. 190.

(١٢٨) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٤١٦؛ ابن شداد، سيرة الملك الظاهر، ص ٥٣.

(١٢٩) بيبرس المنصورى، التحف الملوكية، ص ٨٢-٨٣؛ ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٧٧-٧٨؛ شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٥٨-١٥٩ ويضيف شافع أن من أسباب مهاجمة النوبة فساد ملكها وعتوه وغارته على بلاد عدن.

(١٣٠) بيبرس المنصورى، التحف الملوكية. ص ١١٨؛ بيبرس الداودار، زبدة الفكرة، ص٢٤٣.

(١٣١) زكى سلام شافعى، أهل الذمة، ص ٣١٠.

(١٣٢) أشار فوشيه أوف شارتر وجيوبرت دى نوجان وبلدريك أوف دول وألبرت أوف اكس ووليم الصورى فى مؤلفاتهم إلى أثيوبيا مما يدل على معرفة مسبقة بها. أما عن المعلومات الجغرافية آنذاك فقد كانت مشوشة. فعلى سبيل المثال يشير أوليفر أوف بادربورن إلى أن أثيوبيا كانت بعد المنيا وهى متسعة ويسكنها عدد كبير من النصارى. انظر:

Oliver of Paderborn, op.cit., p. 77, cf. also: John Kirtland Wright, The Geographical - lore of the time of the crusades, California 1965, pp. 114-115; Anna - Dorothee, Die Nathiones Christianorum orientalium im verstandnis der Latinsheen Historiographie, Wien, 1973, p. 264.

(١٣٣) Richard, J. Les premiers missionnaires Latin en Ethiopie (XII XIV siecles, Variorum London 1976, p. 393; Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, pp. 350-51.

(١٣٤) سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ٣٠٠.

(١٣٥) أشار ابن الأثير إلى سماح صلاح الدين ببقاء النصارى الشرقيين فى القدس عقب استرداده لها، انظر: الكامل، جـ٩، ص ١٨٦.

(١٣٦) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، موسكو ١٩٨٦، ص ٣١٠.

(١٣٧) Richard , The Latin Kingdom, p. 223.

(١٣٨) Ibid.

كان أول ظهور لأسطورة الكاهن يوحنا فى حولية أوتو أوف فرزينج فى عام ١١٤٥م. أما خطاب الكاهن يوحنا المؤرخ فى عام ١١٧٧م والموجه إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل (١١٢٣-١١٨٠م) فقد عثر على ما لا يقل عن ثمانين مخطوطة له وجهت بعضها إلى عدد من ملوك وأمراء الغرب الأوروبى. أما ما ورد فيه من أحداث فهى مستقاة من قصص الإسكندر والقديس توماس فى الهند ومن روايات شرقية أخرى. للمزيد انظر:

Richard, Les Premier Missionnaires, p. 323; John-Kirtland, op.cit., p. 114; Anna - Dorothee, op.cit., p. 266.

وكذلك محمود سعيد عمران، الحملة الخامسة، ص ٢٣٦، ح١.

(١٣٩) سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة، ص ٣٠٠؛

Richard , Les Premiers Missionnaires, p. 324.

(١٤٠) وكانت هذه السفن تتجه إلى سومطرة ومقديشيو وزنجبار، انظر:

Ibid., pp. 324-26.

(١٤١) يقصد بذلك بطريك الإسكندرية. وتوجد مكاتبات عديدة بين ملك الحبشة «يكونوا أملاك» والظاهر بيبرس، ثم بين ابنه يجيباميون والمنصور قلاوون، انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٣٥-١٣٨؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٧٠-١٧٣.

(١٤٢) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٢٦٧.

(١٤٣) استخدم د. عطية القوصى لفظة المتجرمة. أما حرامية البحر والكرسالية فقد استخدمته المصادر المملوكية للإشارة إلى هؤلاء القراصنة. انظر: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ١٦١، ١٦٥، ٢٠٦، وكذلك: عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر، ١٣، ١٤، وكذلك:

P.M. Holt, The Treaties of the Early Mamluk Sultans with the Frankish States, SOAS, Vol. XLIII, London, 1980, pp. 67-76.

(١٤٤) صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥٢٤، وكذلك : عطية القوصى، تجارة مصر، ص ٩٢. راجع أيضاً:

Ashtor, Levant Trade, p. 271.

(١٤٥) جـ٣، ص ٥٨-٥٩. كذلك أورد د. درويش النخيلى نصًا من مخطوط اتعاظ الحنفا، انظر السفن الإسلامية، ص ٢٨، ٣٣.

(١٤٦) المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٥٨-٥٩.

(١٤٧) العماد الأصفهانى، البرق، جـ٣، ص ١٠٥-١٠٦. وأشار إلى مقدم الجلاب الثلاث مما يدل على أنها سفناً تابعة للأسطول الأيوبى. راجع أيضًا: سعيد عاشور، مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٤١-١٤٢.

(١٤٨) عطية القوصى، تجارة مصر، ص ٩٦ ، حسنين ربيع، وثائق الجنيزة، ص١٣٧-١٣٨.

(١٤٩) عطية القوصى، تجارة مصر، ص ٩٩.

(١٥٠) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ١٨٧ ؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٥٠٦.

(١٥١) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٢٤٨ ؛ شافع، حسن المناقب، ص ١٠٦-١٠٧، العينى، عقد الجمان، جـ١ ، ص ٤٢٨ ؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٥٥٠، وقد انفرد ابن عبد الظاهر بتحديد نوع السفن التى أبحرت من القصير بأنها «كلاليين» وربما تكون الكلك الذى أشار إليه د. درويش النخيلى وهى نوع من السفن الصغيرة والتى ربما استخدمت كسفن إنقاذ. ويشير ياقوت الحموى إلى أهمية القصير فهو «مرفأ سفن اليمن» «ومرسى المراكب وهو أقرب موضع فى بحر القلزم إلى قوص». انظر: السفن الإسلامية، ص ١٣٤ ؛ ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(١٥٢) أوشك البيازنة على الحصول على فندق لهم بالقاهرة فى عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ. ولكن لم يتم تنفيذ ذلك الاتفاق فقد خيرهم الفاطميون بين تعويضهم بفندق آخر فى الإسكندرية أو الحصول على فندق فى القاهرة ولم يسمح لهم صلاح الدين بذلك فى القاهرة حيث أشارت الوثيقة إلى فندق فى الإسكندرية فقط. انظر: صبحى لبيب، التجار الكارمية، ص ٨-٩ ؛ جوزيف نسيم، علاقات مصر بالممالك الإيطالية فى ضوء وثائق صبح الأعشى، مقال فى كتاب دراسات تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٦١-١٢٣.

Röhricht, R., Regesta regni Hierosolymitani, 2 vols. Innsbruck, 1893-1904, no. 450.

(١٥٣) انظر هامش ١٤٧.

(١٥٤) زكى سلام، أهل الذمة، ص ١٩٠؛ سعيد عاشور، اليهود فى العصور الوسطى، ص٩١.

(١٥٥) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص ١٥٧؛ ابن العميد، تاريخ الأيوبيين، ص ١٤.

(١٥٦) ابن عبد الظاهر، الروض، ص ٣٥٢.

(١٥٧) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(١٥٨) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ١٠٤؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢، ص ٢٣٠.

(١٥٩) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٢، ص ٣٢٩-٣٤٢.

(١٦٠) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٦ظ، وانظر ملحق رقم (٢).

(١٦١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ١٢٠٢ وما بعدها.

(١٦٢) Richard J., About an account of the battle of Hattin referring to the Frankish mercenaries in oriental Moslem States, Speculum XXVII, 1952, p. 174.

(١٦٣) ميخائيل زابوروف، الصليبيون، ص ٣٠٧.

الملاحق والخرائط

الملحق الأول
النص الفرنسى القديم

p. 69 Sour le rive de celle mer fist une fois 1; princes Renaus .

p. 70 faire v. galies, Quant; 1 les ot failes, si les fist metre/ en mer, et si fist entrer chevaliers et siergans et viandes asses pour cierkier et pour savoir quels gens manoient sour cele mer d'autre part.11 se partirent d'ileuc, quant il se furent apparellié, et se mirent cil haute mer'n'ainc puis k'il se partirent de la, on n'oi parler, ne sot on k'il devinrent.

---

* Emoul, op.cit., pp. 69-70.

«الترجمة»

غارة رينالد دى شاتيون على البحر الأحمر عام ١١٨٢م/٥٧٨هـ[١].

نقلا عن : Ernoul, op.cit., pp. 69-70

وعلى شاطئ هذا البحر (الأحمر) أمر الأمير رينو بصنع خمس شوانى Galies[٢]. وعندما تم الانتهاء منها أنزلت إلى البحر وشحنت بالفرسان والجنود واللحوم (الأطعمة) الكافية وذلك لكى تبحر فى هذا البحر وتعرف أى نوع من الشعوب يسكن على شواطئه. وأبحرت (هذه السفن) بعد أن تجهزت متجهة إلى عرض البحر[٣] وبعد رحيلها لم يسمع عنها شىء ولم يعرف أحد مصيرها[٤].

---

(١) أتوجه بخالص شكرى إلى الأستاذ حسن عصمت المترجم بالإدارة العامة لجامعة الإسكندرية على مساعدته لى عند ترجمة هذا النص. وتجدر الإشارة إلى أن نفس النص ورد فى مجموعة P.P.T.S. Vol. VI, p. 56. ولكنى فضلت الرجوع إلى النص الأصلى الذى كان أكثر دقة فى تحديد نوع السفن المستخدم.

(٢) تعنى الشينى وهو نوع من السفن المستخدم فى البحر المتوسط وكذلك استخدمت فى النيل أثناء الحملتين الخامسة والسابعة على مصر . وكانت تسير بالمقاتلة والمجاديف. وتراوحت حمولتها ما بين مائة وخمسين وألفًا من المحاربين . كما جهزت بأسلحة ومعدات قتالية مثل أبراج وقلاع للدفاع والهجوم ومخازن للقمح وصهاريج للماء الحلو . انظر : درويش النخيلى، السفن الإسلامية، ص ٨٣-٨٥. ولاشك أن هذا النوع كان بحاجة إلى دار صناعة متخصصة وصناع على درجة كبيرة من المهارة وهذا كله لم يكن يتوفر لأرناط، ويدعم ما ذهبنا إليه من أن السفن المستخدمة كانت من نوع الجلاب المعروف فى البحر الأحمر.

(٣) أشارت المصادر العربية إلى قيام سفينتين منها بمحاصرة جزيرة فرعون . بينما لم تحدد لنا عدد السفن الباقية التى أبحرت . وطبقًا لرواية أرنول تكون ثلاث سفن.

(٤) يتضح غموض رواية أرنول بشأن بقية أحداث الحملة والتى اعتمدنا على مصادرنا العربية بشأنها.

الملحق الثانى

من وصايا السلطان قلاوون إلى ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل.

نقلا عن : شافع بن عليّ، الفضل المأثور، مخطوط بمكتبة البودليان بانجلترا.

ذكر نص بعض ما كتب له من التذاكر ورقة ٨٣و

ممن ذلك وبخط الصاحب محيى الدين بن عبد الظاهر وهو

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه تذكرة مباركة نافعة بما تأمله المقام العالى السلطانى الملكى الصالحى العلاى أعزه الله نصره ملاحظًا ويكون راجعًا إليه ومستمداً عنه ومتمسكًا به ومراقبًا له ومستكثراً منه

وبالله تعالى التوفيق ورقة ٨٣ظ

فصل ورقة ٨٦و

ويؤكد على والى الشرقية وعلى والى العرب فى حفظ المحارص والمياه من جهة البرية. الكرك وغيره من تلك الجهة ويوصى مقدمى العاءيد[1] وغيرهم على حفظ نوبتهم بحيث لا يفوتهم الطاءير إذا طار إلى تلك الجهات بالجملة الكافية ويحفظ جهة السويس[2] وما العنج[3] والطرق

---

(١) عملت هذه القبائل على طريق الحج عند أيلة. وكانت ضمن قبائل جرم وثعلبة وبنو مهدى وبنو عقبة. وهى التى عهد إليها بيبرس بالمسئوليات التى أشرنا إليها من قبل. المقريزى، البيان والإعراب، ص ٧٢-١١٨.

(٢) أشار ياقوت الحموى إلى أن السويس صار ميناء أهل مصر فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى. أما برج السويس فقد ذكر أنه يسع عشرين فارسًا. جـ١، ص ٤٨، ج٣، ص٢٨٦.

(٣) لم أستدل من المصادر على موقع هذا الماء.

البدرية[١] ومن وجد على غير الطريق الجادة رايحًا أو واصلا أمسك ويطالع به ويوصى والى الشرقية فى إنفاذ الحمام إلى برج السويس صحبة من جرت العادة بتجريدهم فيه ويزيد عدتهم فى هذا الوقت به ويؤكد عليهم فى الحفظ التام والاحتراز. ويؤكد على والى الشرقية وعلى والى الحسيرية[٢] فى إقامة الخفرا فى الأماكن المعروفة بهم خلف قلعة الجبل المحروسة وخلف الجبل إلى جهة السويس **ورقة ٨٦ظ**

وإلى جهة أطفيح[٣] ومن جهة شرونة[٤] من الأعمال البهنساوية [٥] بحيث أن هذه الجهات لا يسكنها أحد وتكون محفوظة محروسة محترزًا عليها محفوفة بالخفراء ويدرك مقدموها أمرها حتى أنه إن حصل خلل والعياذ بالله كان دركها لازمًا لهم وكانت أرواحهم قبالة ذلك.

---

(١) عن الطريق البدرية راجع هامش (٢١)

(٢) غير واضحة فى النص وربما تدل على الجيزة والتى كانت إحدى الكور الرئيسية فى العصر المملوكى . انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٠٠؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١ . أما الشرقية فقد كانت متصلة ببر الشام والقلزم والحجاز كما أشار العمرى. وأسهمت أيضًا فى العصر الأيوبى فى الدفاع عن مصر كما حدث فى إغارة إفرنج الداروم على الفرما. انظر هامش (٣٤)

(٣) بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر، وهو شرقى النيل، انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ١ ، ص ٢١٨؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١ .

(٤) قرية بالصعيد الأدنى شرقى النيل، ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ٣٤٠.

(٥) البهنساوية: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غرب النيل وتضاف إليها كورة كبيرة. ياقوت ، معجم البلدان، جـ١ ، ص ٥١٦-٥١٧؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١ .

دراسة لوصايا المنصور قلاوون
من خلال مخطوط الفضل المأثور
لشافع بن على الكاتب

حرص المنصور قلاوون على أن ينتقل الحكم لأبنائه من بعده وإقامة أسرة حاكمة وذلك على غير عادة المماليك. فعهد بالحكم من بعده لابنه علاء الدين على وتلقب بالملك الصالح، ثم بعد وفاته قلد ابنه الأشرف صلاح الدين خليل حكم البلاد. ولكى يضمن نجاحهما فى الحكم ترك لهما مجموعة من التذاكر قام بإنشائها خيرة كتاب الإنشاء فى ذلك العصر وهم : محيى الدين بن عبد الظاهر، وابنه فتح الدين كاتب السر فى عهد قلاوون، وشافع بن على، وأورد شافع هذه المجموعة من الوصايا ضمن مخطوطته «الفضل المأثور سيرة السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبى الفتح قلاون خلد الله سلطانه». ومن هنا وقع اختيارى على دراسة هذا الموضوع وجعلت عنوانه «دراسة لوصايا المنصور قلاوون من خلال مخطوط الفضل المأثور لشافع بن على»، تتبعها دراسة لشافع بن على ودوره من خلال المخطوط نفسه ومن المصادر الأخرى المعاصرة والمتأخرة زمنيًا. ثم أشرت إلى أهمية المخطوط وما ورد فيه من معلومات تاريخية وأهميتها. واعتمدت فى هذه الدراسة على تذكرة شافع بن على بصفة رئيسية مع عقد مقارنة بينها وبين التذاكر الأخرى لمحيى الدين بن عبد الظاهر وفتح الدين بن محيى الدين وأحمد بن المكرم. كذلك تناولت ما ورد فى تقليدى العهد لعلاء الدين على والأشرف صلاح الدين خليل من وصايا، وهما من إنشاء محيى الدين بن عبد الظاهر، وكذلك وصية موجزة أوردها بيبرس الدوادار للمنصور قلاوون وهو على فراش الموت لابنه الأشرف خليل. وقد تضمنت هذه التذاكر مجموعة شاملة من الوصايا فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والإدارية والعسكرية. ثم اختتمت هذه الدراسة بالإشارة إلى الأثر الذى تركته على الأشرف خليل وهل التزم بها أو خالفها.

أما المراجع الحديثة التى تناولت دراسة عصر قلاون فلم يتناول أى منها

دراسة هذه الوصايا باستثناء الدكتور محمد حمزة إسماعيل الحداد فى مؤلفه عن المنصور قلاوون حيث أشار إليها معتمداً على تقليدى عهد علاء الدين على والأشرف صلاح الدين خليل. ولاشك أن هذه المؤلفات قد أفادتنى فى الإطار العام لعصر قلاوون بالإضافة إلى شرح المصطلحات التى وردت ضمن هذه التذاكر.

والله أسأل التوفيق والسداد؛

تعتمد هذه الدراسة لمجموعة وصايا المنصور قلاوون بصفة أساسية على مصدر هام من مصادر عصر قلاوون لا يزال مخطوطاً وعنوانه «الفضل المأثور سيرة السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبى الفتح قلاوون خلد الله سلطانه» لمؤلفه شافع بن على الكاتب[١] وقبل تناولنا لأهمية هذا المخطوط نتوقف للإشارة إلى المؤلف ودوره فى هذه الفترة الهامة. فعلى الرغم من ترجمة حياته التى أوردتها لنا بعض المصادر، فهى لم تعط لنا تفاصيل عن دوره خلال عهد الظاهر بيبرس وابنه الملك السعيد بركة ثم فى عهد المنصور قلاوون بصفة خاصة حيث سجل لنا تاريخه الذى اعتمدنا عليه بصفة رئيسية فى هذه الدراسة.

ولد ناصر الدين شافع بن على بن عباس بن إسماعيل بن عساكر الكنانى العسقلانى المصرى فى أواخر عام ٦٤٩هـ[٢]، ويذكر عن نفسه أنه حضر ليقرأ عقد الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس على ابنه المنصور قلاوون فى عام ٦٧٤هـ لضعف عينى خاله محيى الدين بن عبد الظاهر ظنًا أن السلطان يخرج سحراً. ولكنه خرج فى النهار فقرأه محيى الدين[٣]. ثم يشير إلى حادثة أخرى عن دوره فى عام ٦٧٦هـ وذلك عندما توفى الملك الظاهر بيبرس وكان معه أثناء ذلك ويقول شافع أنه قام بكتابة خبر وفاة بيبرس وأورد نص هذا الكتاب الذى لم يرد فى أى من المصادر الأخرى مما يدل على انفراده بذلك[٤].

أما فى عهد السلطان الملك السعيد بركة فيذكر شافع أنه كان يعتمد عليه «وعوّلَ علىّ فى سر المكاتبات وجهرها على صغر سنى وكبر قدر وسن مَنْ فى الديوان»[٥].

أما علاقته بالمنصور قلاوون فترجع إلى قبل توليه حكم مصر. ففى أثناء قدوم الملك السعيد بركة من دمشق إلى قلعة الجبل فى عام ٦٧٨هـ أمره الأمير عزّ الدين أيدمر الدوادار بأن يكتب إلى الأمير جمال الدين أقش

الجحجى نائب مصياف بإنفاذ أربعين من الفداوية ليسيرهم للتخلص من قلاوون ومن معه من الأمراء الذين وقفوا ضد الملك السعيد، فرفض شافع «فعز عليه امتناعى وتغيرت أوضاعه»(٦) وعندما علم بأنه سوف يخبر السلطان فرّ هاربًا إلى قلاوون وسأله عمن كتب إلى نائب مصياف فأخبره أنه خط أيدمر فشكره هو والأمراء(٧) ويؤكد صدق رواية شافع هذه ما أورده المقريزى من أن قلاوون أظهر للملك السعيد هذه الكتب التى طلب فيها جماعة الفداوية ورفض فك الحصار(٨) ثم يذكر شافع رواية أخرى عن علاقته بقلاوون وذلك عندما أحضره قبل أن يتولى السلطة وأمره بكتابة أسماء الملوك لكى يختار منها واحداً فكتبها ومن بينها المنصور فعلم عليه(٩). وهكذا أخذت صلة شافع بن على تتوثق شيئًا فشيئًا مع المنصور قلاوون فسطر هذا المؤلف عن حياة قلاوون ويذكر أن سبب تأليفه هو :

«وكنت قد باشرت خدمته كاتب إنشاء سفراً وحضراً... وكتبت عنه سراً وجهراً وشهدت وقائعه براً وبحراً واطلعت على ما لم يطلع عليه غيرى بمشافهته وعلمت من أحواله ما لم يعلم إلا كاتب سره بوساطة مشاركته وحررت نسخ الأيمان له وعليه وأوضحت من شكوكها مبهمها فأوجب على ذلك أن أسطر محاسن أيامه الزاهرة وأن أثبتها لتغدو على ألسنة الأقلام على الدوام سايرة...»(١٠).

وبمجرد نجاح قلاوون فى الوصول إلى حكم دولة المماليك أخذ شافع بن على يسهم بدور هام فى هذه الفترة التى يعتبرها كثير من المؤرخين أهم فترات تاريخ المماليك. فقد شارك مع محيى الدين وابنه فتح الدين فى كتابة الرسائل إلى أنحاء الشرق والغرب بتولى قلاوون العرش(١١). وشارك أيضًا فى تحليف الأمراء لقلاوون(١٢). وكذلك شارك فى التحليف لعلاء الدين على ولقبه الملك الصالح وذلك عندما فوض إليه والده فى ١٧ جمادى الآخرة ٦٧٩هـ السلطنة وولاية العهد(١٣).

وبالإضافة إلى شخصية شافع بن على وحبه لعمله كما يذكر «عجب من سرعته وأثنى على همته ـ يقصد فتح الدين كاتب سر قلاوون ـ ولا أقول همتى تضاؤلا عن علو رتبته»[١٤] وأورد شافع هذه الرواية عندما انتهى السلطان قلاوون من أمره بكتابة رسالة فوجد شافع قد أنجزها بمجرد انتهاء كلامه. فبالإضافة إلى ذلك نجد أن صلة قرابته بآل عبد الظاهر كان لها أثر هام فى وجوده فى بلاط قلاوون. ويحدد لنا شافع هنا صراحة قرابته بمحيى الدين فيقول: «وكان كاتب الصداق الصاحب محيى الدين بن عبد الظاهر خالى» «وفى أثناء ذلك نادى السلطان كبيرنا الخال محيى الدين»[١٥].

وشارك شافع فى كثير من الأحداث فى عهد قلاوون وسجلها لنا عن قرب مما يجعل لروايته أهمية خاصة بين مصادر عصر قلاوون. فقد خرج معه إلى بلاد الشام فى عام ٦٨٠هـ وسجل العديد من المراسلات وقام بكتابتها بنفسه ومنها على سبيل المثال لا الحصر: رسالة قلاوون إلى سيف الدين بلبان الطباخى نائب طرابلس بعد إخفاقه فى الإغارة على حصن المرقب[١٦]، ومنها مراسلات قلاوون إلى الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، والملك المسعود خضر، وعرب بنى عقبة وغيرهم[١٧]. ومنشور إقطاع لسنقر الأشقر[١٨]. أما المعاهدات والهدن فقد سجل شافع منها عدداً كبيراً بالإضافة إلى نسخه لها ودوره فى مناقشة بنودها مع ممثلى الصليبيين فقد كتب هدنة قلاوون مع الاسبتارية فى المحرم ٦٨٠هـ/٢٦ أبريل ١٢٨١م[١٩]. وكذلك الهدنة مع السلطات فى عكا فى ٥ ربيع الأول ٦٨٢هـ/٣ يونيو ١٢٨٣م[٢٠]، وناقش هدنتى طرابلس عكا مع ممثلى الصليبيين وأورد لنا تفاصيل أغفلتها المصادر الأخرى.

وهكذا فقد سجل لنا شافع بن على الكثير من أحداث عصر قلاوون وجاءت روايته ومادته التاريخية من الطراز الأول. أما فيما يتعلق بما ذكره الكتبى أنه قد أصيب بسهم أفقده بصره فى وقعة حمص فى عام ٦٨٠هـ

فهذه الرواية غير صحيحة[٢١]. والدليل على ذلك مشاركته فى كثير من الأحداث بعد هذه الوقعة ـ من بينها أنه حضر حفر ترعة الطبرية فى عام ٦٨٢هـ[٢٢] كما أنه كتب نسخة الرد على خطاب السلطان أحمد أغا خان التتار الذى أرسله إلى قلاوون «فعمدنا إلى نسخته ونسختى فكتبنا منهما ما وقع الاتفاق عليه[٢٣]. وعن هدنة عكا فى ٦٨٢هـ يقول «وكتبت الهدنة بيدى»[٢٤] وهذه الروايات وغيرها تخالف ما يذكره الكتبى من أنه أصيب بالعمى فى ٦٨٠هـ وأنه اعتكف فى بيته بعد ذلك.

وثمة أمر آخر يدعونا للتوقف عنده وهو هل يعتبر الفضل المأثور اختصاراً لسيرة قلاوون فى تشريف الأيام والعصور كما يذكر بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى[٢٥]. وبعد عقد المقارنة بينهما يتضح اختلافهما فى تناول الأحداث وأصالة المادة التاريخية التى أوردها شافع. فهو ليس اختصاراً مثل مؤلفه حسن المناقب السرية. وإنما تسجيلا لعهد قلاوون كما أشار فى بداية مولفه. ومن ناحية استخدام المصادر الأخرى له، فربما كان لنسخته الوحيدة أثر فى ذلك، بالإضافة إلى أن مؤلفات محيى الدين بن عبد الظاهر قد أغنت المؤرخين الآخرين عن الرجوع إلى شافع. وبالرغم من ذلك فقد استخدمه المقريزى فى خططه، وكذلك القلقشندى فى صبح الأعشى[٢٦]. ويشير أبو المحاسن أنه كان «إماماً أديباً فاضلا ناظماً ناثراً جمّاعاً للكتب، خلف ثمانى عشرة خزانة كتب نفائس أدبية وغيرها»[٢٧]. ويبدو أن دوره قد تضاءل بعد وفاة فتح الدين فى رمضان ٦٩١هـ، ثم والده محيى الدين بن عبد الظاهر فى العام التالى. فقد استصغر الملك الأشرف القاضى علاء الدين بن فتح الدين الذى كان فى العشرين من عمره فرتب القاضى تاج الدين أبا العباس أحمد بن سعيد بن شمس الدين بن الأثير[٢٨]. وهكذا زال نفوذ آل عبد الظاهر ومعهم شافع بن على ليعكف على كتابة مؤلفاته ومن بينها حسن المناقب السرية والفضل المأثور حتى توفى فى عام ٧٣٠هـ[٢٩].

وإلى جانب الفضل المأثور اعتمدت فى دراسة هذه الوصايا على مصادر أخرى معاصرة ومتأخرة أوردت مجموعة من الوصايا فى عهد قلاوون، فقد ورد فى تقليدى العهد لكل من الملك الصالح علاء الدين على، والملك الأشرف صلاح الدين خليل مجموعة من الوصايا أوردها بيبرس الدوادار فى زبدة الفكرة، وفى القلقشندى(٣٠). كذلك وردت وصية مختصرة لدى بيبرس الدوادارر عن قلاوون وهو على فراش الموت وجهها مباشرة لابنه الأشرف خليل(٣١). هذا بالإضافة إلى مصادر العصر المملوكى التى تناولت شرح المصطلحات الواردة فى مجموعة التذاكر وخاصة العمرى سواءفى التعريف بالمصطلح الشريف، أو فى مسالك الأبصار وذلك لمعاصرته لهذه الفترة الزمنية موضوع الدراسة، وإلى جانب ذلك كان للمراجع الحديثة أثرها الهام فى إثراء هذه الدراسة بكثير من الآراء القيمة.

فقد اهتم المؤرخون فى عصر سلاطين المماليك اهتمامًا خاصًا بالوصايا، وأفردوا لها صفحات كثيرة فى مؤلفاتهم. ومن بيهم ابن فضل الله العمرى فى كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف»(٣٢) فيقول: «وهذا باب كبير، وللقلم فيه سبح طويل، ولو تكلفنا استيعاب الوصايا لألزمنا تكليف ما لا يطاق، وإنما نقدم منها المهم، ونأتى بالجوامع كالتبصرة للناظر، والتنبيه للغافل، ومن كان ذا خاطر تفجرت له ينابيعه، وجرت له شعابه»(٣٣). وعلى الرغم من أن الكتابة بهذه الوصايا قد توقفت فى زمن القلقشندى المتوفى فى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م إلا أنه أشار إلى أهميتها، وإلى أهمية كاتبها حتى أنه أسماها «القلم الأكبر» لأنه بصدد أن يعلم كل واحد من أرباب الولايات ما يلزمه فى ولايته(٣٤).

وعلى الرغم من أن العمرى أورد جملة من الوصايا التى تُذكر فى العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم إلا أنه لم يشر إلى ما يرد فى التذاكر(٣٥) وهى جمع تَذكِرة والتى عرفها بأنها ما يكتب بمهمات الديار

المصرية وأحوالها ومصالحها، وما يترتب فيها، وما يمشى على حكمه بمصر والقاهرة المحروستين، وسائر أعمال الديار المصرية، وما تبرز به المراسيم الشريفة فى أمورها وقضاياها، واستخراج أموالها وحمولها، وعمل سورها وحفائرها، ومايتجدد فى ذلك، وما يجرى هذا المجرى من سائر التعلقات، وتصدر بذلك التذكرة(٣٦). واشترط القلقشندى أن تكون على درجة من الفصاحة والبلاغة على حد الرسائل، فيعلو بذلك شأنها(٣٧).

وتشترك الوصايا جميعاً على الرغم من اختلاف موضوعاتها فى الوصية بتقوى الله عزّ وجل فهى الأسّ الذى يبنى عليه. والركن الذى يستند إليه(٣٨). ولا يشترط أن تكون مفصلة لأنه يجب على الموصى إليه بأن «يفتح مُغلق كل فتح منه بخير إقليد»(٣٩) «وفى الولد أعزّ الله سلطانه من الألمعية ما يفرع أصولها ويوصل فروعها وينتزع من مطاوى مفهومها ما يحسن إلى المصلحة نزوعها وشامل ما تضمنته وينسج على منواله وينتج من مقدماته ما يناسب معنى تفصيله وإجماله»(٤٠) «وثم أمور غير ما ذكرناه وفصول غير ما أردناه ينتفع عنها وتتولد منها وكم أنتج القليل من كثير واليسير من جم غفير، وإذا أمعن الولد النظر فيما نصصناه وتدبر ما أملناه نشأ له عن ذلك أحوال فأحوال وتفصيل وإجمال ونحن واثقون منه بأنه سيكون عند ما توسمناه»(٤١).

ويرجع اهتمام سلاطين المماليك بهذه الوصايا إلى عهد الظاهر بيبرس الذى ضمّن تقليد عهده لابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد مجموعة من الوصايا والتى على الرغم من أنها لم تكن مفصلة فقد أشار أنه سوف يستمر فى تزويده «بما سينشأ معه تواءماً»(٤٢). ويذكر ابن واصل جزء من وصية أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه الملك السعيد عندما شعر بالموت يوصيه بأن يقبض على زمام الأمور بقبضة من حديد وأن يضرب عنق كل من يشوش عليه ملكه إذا تيقن من ذلك(٤٣).

ويعتبر السلطان المنصور سيف الدين قلاوون أكثر سلاطين المماليك اهتمامًا بالوصايا، فقد تضمن تقليدى العهد لأبيه علاء الدين على المقلب بالملك الصالح، والأشرف صلاح الدين خليل مجموعة كبيرة منها تدور حول إدارة أمور البلاد وسياستها الداخية والخارجية وهما من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر[٤٤]. ولم يكتف قلاوون بما ورد فى التقليدين السابقين، بل أورد لنا شافع بن على مجموعة أخرى من الوصايا ضمن التذاكر التى كتبها كل من محيى الدين وابنه فتح الدين وشافع بن على نفسه وذلك بتكليف من السلطان[٤٥]. ولاشك أن قلاوون كان يهدف من وراء ذلك إعداد ابنه الملك الصالح لتولى مهام البلاد أثناء غيابه أو بعد وفاته. فقد حرص على أن يؤسس بيتًا حاكمًا يحمل اسمه من بعده على الرغم من أن ذلك كان يخالف المبدأ الذى سار عليه المماليك فيما يتعلق بمبدأ الخشداشية أى الزمالة، وبغضهم لمبدأ ورثة العرش[٤٦].

وقد تضمنت التذاكر العديد من الإشارات لذلك. فيقول محيى الدين فى تذكرته «ويتقدم إليه بأن يجعلها نصب عينيه وأن يراجعها فى كل أمر يعزم عليه»[٤٧] «ويكون راجعًا إليه ومستمدًا عنه ومتمسكًا به ومراقبًا له ومستكثرًا منه»[٤٨] ويشير فتح الدين أنه عليه «أن يطالعها مطالعة إذا تلحظها يحفظها وإذا نقلها عقلها وإذا غاب عنه فهم اذكرته» «وقد جعلناه بين يديه نورًا يسعى وحكمًا يرعى»[٤٩] أما شافع بن على فيؤكد عليه أن يجعلها «نصب عينيه فهى أوامر ولا يخرج عنها فى دقيق ولا جليل مدة الغيبة»[٥٠].

وعلى الرغم من حرص قلاوون على إعداد ابنه الأكبر علاء الدين على لتولى مهام الحكم من بعده وأن يخلفه على عرش البلاد، فإن القدر لم يبلغه ذلك فقد توفى فى أثناء حياة والده بعد ثمان سنوات قضاها فى الحكم معه وذلك فى عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م. فتولى أخاه الأشرف خليل من بعده

وكتب له القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر تقليداً بذلك والذى تضمن العديد من الوصايا(٥١). ويذكر بيبرس الدوادار أن السلطان عندما حضرته الوفاة استدعاه إلى خيمته وأوصاه بأن «يحفظ مماليكه ويحافظ عليهم ويبالغ فى الإحسان إليهم، ويستمر بهم على إقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشام ويهتم بمصالحهم كل الاهتمام»(٥٢) ولاشك أن ذلك يرجع إلى ما كان يعرفه قلاوون عن ابنه من حدة النفس وما فيه من «وهج واستهتار بالأمور واستخفاف بأكابر الأمراء وكان لا يفتكر ما يفتكره الملوك من العواقب»(٥٣) ويؤكد شافع بن على أن قلاوون أكد عليه أثناء سلطنة أخيه علاء الدين أن «يلزم معه الأدب سراً وجهراً»(٥٤) ولم يكن أمام قلاوون إلا توجيه هذه الوصايا لابنه الأشرف خليل حتى يتمكن من المحافظة على ما كان يصبو إليه وهو استمرار بيته فى الحكم. ونجح بالفعل فى ذلك. كما أن الظروف ساعدت الأشرف خليل فى ذلك حيث تطلب الأمر تولى سلطان جديد لإكمال مشروع طرد الصليبيين من الأراضى المقدسة وهو الذى كان قد أعد له قلاوون ولكن عاجلته منيته قبل اتمامه(٥٥).

اشتملت التذاكر على العديد من الوصايا التى أوصى بها قلاوون عند خروجه للغزاة، وركز شافع بن على فى تذكرته على المعتقلين بالقلعة من الأمراء ذوى الفتن، والمسجونين الآخرين. فأكد على ولى عهده مباشرته بالليل والنهار ومراقبة المتمردين عليهم لمنع أية مؤامرات. ولكنه فى نفس الوقت أمره بتوفير ما يرتب لهم من طعام وشراب وتفقد مرضاهم «المتحقق مرضه» وذلك عن طريق أطباء الخدمة. وأمر بتوفير ما يحتاجون إليه من كسوة «بل تفاض عليهم فى أوانها»(٥٦) أما محيى الدين فقد أكد فى تذكرته فيما يتعلق بهذا الأمر بحفظ المعتقلين والأسارى مؤكداً عليه ضبط أمرهم والاحتراز على الحبوس وعلى الدروب والأبواب(٥٧).

أما الفصل التالى فقد أكد فيه شافع على ضرورة حماية القلعة وأبوابها

وضرورة ملازمة المكلفين بهذا الأمر لوظائفهم وأن «يكونوا على بصيرة من أمرهم واحتراز من ذوى المكر»[٥٨] كما أكد على عدم فتح باب القلعة إلى جهة القرافة «لا يفتح مدة غيبتنا ولا يزال مغلقًا فى وجه ذوى القرب إلى حين أوبتنا»[٥٩] .

أما محيى الدين فقد ركز فى تذكرته فيما يتعلق بالقلعة على ملازمة المجردين بالقلعة لنوبتهم وعدم إخلال أحد منهم بواجباته[٦٠] . ومراعاة الأمراء والمقدمين والبحرية لأبوابها كما جرت العادة بذلك[٦١] . كذلك يعتمد بتجريد جماعة من الجند حولها ومن جهة الجبل ومن جهة القرافة وعند دار العدل ويحضرون فى كل عشية ويبيتون بخيولهم وغلمانهم طائفين وحافظين لجهة الثغرة[٦٢] . وشدد فتح الدين فى تذكرته على حماية القلعة فى عدة فصول منها. فقد أمر قلاوون ابنه بضرورة مراعاة كل فرد لنوبته ومعاقبة كل من يخل بذلك سواء بالقول أو بالفعل. فإذا انقضى السماط ووقت الخدمة يخرج الجميع ولا يتأخر أحد ممن ليست له عادة بملازمة وظائف الخدمة، وكذلك لا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج فى غير وقته المعتاد[٦٣] . ولا يقدم أحدله قصة من يده ولا يتحدث أحد فيما لا يعنيه أو يقف فى مكان غير المحدد له. «ولتكن عينه لذلك مراقبة وفكره فى هذه المهمات صايبة»[٦٤] .

أما حراسة القلعة من الداخل فقد أشار فتح الدين إلى ملازمة صبيان قاعة الأعمدة للباب الجوانى أو باب الرحبة بالنوبة على العادة فى الليل والنهار. أما باب القلعة البرانى فتلازمه المقدمون ومضافوهم من المماليك السلطانية[٦٥] كما أكد على إغلاق أبواب القلعة وقت العادة وأن يقوم والى القلعة بإحضار المفاتيح إلى والى القلة والذى يقوم بدوره بتسليم المفاتيح معًا لمن كانت تسلم له فى العادة باب أمر بعدم فتح أبواب السر أبدًا إلا لمهم كبير يقتضى ذلك»[٦٦] .

وفى ثالث فصول تذكرة شافع تناول مجموعة من الوصايا لمعالجة بعض الأمراض الاجتماعية التى تفشت فى ذلك العصر ووسائل علاجها والعقوبات التى تطبق على مخالفيها. فقد أمر قلاوون بمنع من يمشى فى الليل بغير حاجة وأكد على إرسال من يطوف بالمدينتين وما هو مضاف إليهما من ظواهر لمراقبة ذلك خاصة فى الليالى غير المقمرة[٦٧]. أما باقى الولايات فقد أمر مشايخها بإخراج الخفراءمن الأوقات المختلفة لحراسة الطرق وتزويدهم ببيوت من الشعر للمبيت بها أثناء الليل[٦٨]. كذلك حذره من ذوى الجرائم والمتجرمة وذوى العدوان وضرورة منعهم، وأمر بإغلاق قاعات الفتوة الموجودة بالحسينية والتى كان يأوى إليها من يظن فى نفسه القوة[٦٩]. وأمره أيضًا بمنع جلوس المنجمين فى الطرقات و«أخذ عريشهم وسرماطيهم» وردعهم[٧٠]. ويختتم شافع هذا الفصل بأن ينادى الولد فى البلدين وظواهرهما بأن من سوف يسلك شيئًا من هذه المسالك سوف يعاقب بالصلب والضرب وما أشبه ذلك[٧١]. كما تناولت الوصايا منع الخمور وتداولها وتعفية رسوم المنكرات وإقامة الحدود الشرعية على كل من يوجد سكرانًا أو فى حالة منكرة[٧٢] أما ذوى الدعارة فقد أمر قلاوون بمنعهم من الاجتماع فى أماكن العبث والفساد وتأديب بنات الخطا[٧٣] كذلك أمر قلاوون بتعفية رسوم المنكرات[٧٤].

أما في الفصل الخاص بالقضاء فقد أمر قلاوون قضاته بتحرى الدقة فى أحكامهم وقبول النقض والإبرام وعدم اتخاذ حجاب أو بوابين يمنعون أحداً من الدخول عليهم. وعليهم مباشرة عملهم طرفى كل نهار حتى أيام الجمع للفصل فى القضايا الشرعية بالعزم الصادق. كما يجب عليهم ملازمة دار العدل وعدم التأخر عنها إلا لعذر شرعى. كما طالبهم بترك ما بينهم من التنافس وأن يكونوا يداً واحدة كما يقتضيه حسن التجالس[٧٥]. أما تذكرة فتح الدين فيؤكد عليه ضرورة مراعاة العدالة لأن به «دامت

الدول» «وأمنت البلاد والعباد» (٧٦) وأكد عليه أن يراعى الجميع ولا يحكم للشاكى على المشكى إلا بحضور المتشاكين. وأن يعرض القضايا الشرعية على القضاة المختصين بذلك. ومن قتل يقتل ومن سرق يقطع وكل ذلك بالحق والشرع الشريفين. وأكد فتح الدين فى تذكرته على أمر هام آخر وهو تطبيق الأحكام. «فما جعل السلطان إلا لينصر الضعيف على ظالمه ويقوى يد المسكين الذى لا قدرة له على تخاصمه»(٧٧).

وينتقل شافع بعد ذلك إلى فصل تضمن العديد من الوصايا بشأن النواحى الاقتصادية. فقد طلب قلاوون من ولى عهده إرسال كتبه إلى ولاته بالتشديد عليهم بالعدل والإحسان(٧٨) واعتماد ما يقتضى للبلاد بالعمران وللرعية بحسن الاستبيان. والرفق بالفلاحين وتفقد أحوالهم فى كل حين، وأن لا يمكن منهم عسوف ظالم «ليتضافروا على عمارة البلاد إذا هم لهم كالمعالم بل المعالم»(٧٩). ثم يؤكد على ضرورة تفقده للجسور والترع(٨٠) والعدل فى رى البلاد بحيث تحسم مادة النزاع(٨١).

أما محيى الدين فقد ركز على ضرورة الاهتمام بالجسور والترع من حفظها وضبطها ومبيت الرجال عليها وتوفير ما تحتاج إليه من الآلات لضبط أى خلل يحدث. وخص بالذكر جسور الجيزية، فأمر بترتيب الحمام الرسايلى عند مباشرتها لتدارك أى خلل يحدث فيها، وأن يرسل أمير كبير لتدارك هذا الأمر(٨٢). كذلك ربط بين منسوب المياه فى النيل وبين فتح الجسور حتى لا يؤثر ذلك على أراضى أخرى فتبور. «ولا يكسر جسر إلا بأمر الوالى فى تلك الجهة واتفاق منه بحضور أكابر البلاد ومشايخها وخولتها والإشهاد عليها»(٨٣).

كما طالبه بالاجتهاد فى رى البلاد محذراً أن تبور منهم قصبة أو تهمل قوانين الرى، أو محاباة أحد فى ذلك «وتكون المساواة شاملة والمعونة تامة»(٨٤) كذلك أكد عليه بضرورة إخراج التقاوى المرصدة لتخضير البلاد،

وتحميل الولاة مسئولية بوار أى قطعة أرض منها، بل جعل «أرواحهم وأموالهم» قبالة ذلك[٨٥]. وأكد على والى البحيرة ملازمة البحر المنصورى المعروف بالطبرة والمطالعة بما يتجدد فيه من منفعة وبركة ونمو[٨٦].

وعلى الرغم من أن التذاكر لم تفرد فصلا خاصًا بالتجارة، إلا أنها أشارت إليها ضمن الفصل الخاص بالاهتمام بالثغور خاصة ثغرى الإسكندرية ودمياط[٨٧].

فقد أوصى قلاوون بضرورة إطابة قلوب التجار وحسن معاملتهم بالعدل والإحسان وذلك لكى «يتوجهوا شاكرين حامدين مستجلبين خواطر من يحضر بعدهم من التجار»[٨٨] وأكد شافع على ذلك أيضًا «بما يشيع خبره ويحمد أثره ويتلى على رؤوس الأشهاد سوره»[٨٩] ومن ناحية أخرى حرص قلاوون على تأمين التجارة المارة عبر بلاده فى الليل والنهار وتأنيس الطرقات وإجابة المستصرخ وإمساك المفسد[٩٠]. وشدد على الاهتمام بالطرق البدرية أو الفوقانية وهى المؤدية إلى بلاد الشام[٩١] كما حرص على توفير الأمن وإبعاد الخطر الذى يهدد التجارة من جهة العربان أو الأكراد أو الشهرزورية محذرًا من اجتماعهم فى مكان واحد أو حملهم السلاح[٩٢].

وتتضمن التذاكر الكتابة إلى الأمير «شرف الدين عيسى بن مهنا» أمير آل فضل بحفظ «المعابر من كل عابر وصيانتها حتى من الطير الطاير»[٩٣] كما أكد على الولاة بأن السفارة لا يسافرون إلا بالنهار وأنهم لا يغررون بنفوسهم ولا بأحوالهم[٩٤]. أما فيما يتعلق باستخدام السلطان أو ما يسمى بالخاص الشريف فقد شددت التذاكر على التحذير من بيعه لأى من الأمراء. كما أكد عليه بدفع ثمن ما يتم شراءه من المماليك أو غيرهم وعدم تأخير دفع حقوق هؤلاء التجار، وذلك لكى يكون ذلك أدعى إلى رجوعهم مرة أخرى[٩٥].

أما الفصل الخاص بالبريد فقد أوصى قلاوون ابنه بسرعة المطالعة على ما يصل إليه وتفهم معانيه والوقوف عند أوامره ونواهيه والمجاوبة عنه فى وقته وساعته. كما طالبه بألا يهمل فصل ولا أصل ولا فرع[٩٦]. وفى فصل آخر يؤكد عليه أن يهتم بخيل البريد «ولا تخل المراكز منها ولا طرفة عين، وأن تكون من الخيل السريعة»[٩٧].

وأوصى محيى الدين فى تذكرته باستخدام الحمام الرسايلى وانتقاء الطيور الجيدة مؤكداً على أن يصل الخبر من «غزة لا بل من الشام» فى يوم[٩٨] كما أوصى والى الشرقية على إنفاذ الحمام إلى برج السويس صحبة من جرت العادة بتجريدهم فيه ويزيد عدتهم فى هذا الوقت ويؤكد عليهم فى الحفظ التام والاحتراز[٩٩].

وفى فصل آخر أوصى قلاوون ابنه بأن يكون مستعداً لإرسال العسكر المقيم عنده ومن تأخر عن الخروج بسبب مرض وذلك بحيث إذا «دعت الحاجة والعياذ بالله إلى طلبهم أسرعوا فى الحضور وبادروا إلى ما دعوا إليه من غير فتور»[١٠٠] وأكد أيضاً على ضرورة مراعاة حقوق الأمراء والجند أثناء غيابهم فى الحرب، وذلك حتى لا يؤثر عليهم ذلك ويشغلهم عن الجهاد «وتحسم هذه المادة ويسد أبواب المماطلة عنهم»[١٠١] كذلك أوصاه بمضاعفة حسن السياسة مع الأمراء والجند والإقبال عليهم صغيرهم وكبيرهم ومعاملتهم بما يستميل به قلوبهم ويوفر الملاحظة من نصيبهم[١٠٢].

وفى فصل خاص أفرد شافع مجموعة من الوصايا بشأن تحذير قلاوون لابنه بأنه لا يكثر من الركوب والاحتراز ممن يقرب منه ولا يسمح لأحد بذلك إلا إذا كان واثقًا منه ويجب أن يكون موكبه محفوفًا بالسكينة والوقار، ولا يزيد فى ركوبه على المعتاد ولا يسلك أماكن غير مألوفة. وعليه أن

يتحقق مما يرفع إليه ويكتشف ظلامته بنفسه ولا يعتمد على ذوى التسويف[١٠٣].

وشدد قلاوون فى تذاكره على الاهتمام بالثغور، خاصة ثغرى الإسكندرية ودمياط مؤكداً على ضرورة تأمينها خاصة من خطر الفرنج وكرسالتهم وكذلك من خطر الروم والعرب[١٠٤]. فأكد عليه ضرورة التيقظ لأى خطر يهددها، ومن السفن الكامنة وكذلك من الأسرى الفرنج المأسورين بهما[١٠٥]. وأكد أيضًا على مراقبة فنادق الفرنج وحفظ مفاتيحها فى الليل وفى وقت صلاة الجمعة والأمكنة المجاورة لها[١٠٦]. كذلك طالبه بحفظ وضبط الموانئ الأخرى مثل رشيد وقطيا وتنيس ونسترو ومراقبة كل من يدخلها أو يخرج منها[١٠٧]. أما وظيفة ثغرى الإسكندرية ودمياط وهى «وعلى هذين الثغرين وظيفة موظفة ولوازم كل منهما بها مكلفة من أموال وأقمشة برسم الخزانة الشريفة «فلا يهمل الولد أمرها فى أدائها ويبرز مراسمه بطلبها فى أحيانها من غير إزعاج الرعية ولا مصادرة بطلب ما لا يجب»[١٠٨].

ويربط شافع فى فصل آخر من تذكرته بين وظيفة ثغرى الإسكندرية ودمياط فى توفير الأقمشة للسلطان وبين ضرورة الاهتمام بدار الطراز وضرورة حمل ما تحتاج إليه من أموال وخلافه لكى تقوم بدورها «فليتقدم الولد عزّ الله سلطانه في كل وقت بتفقد أحوالها المواصلة بالأموال التى هى أحوى لها والرفق بها» «وتواصل من حللها بما هو المعلم وتسطر بأقلام أخلتها من القابنا الشريفة كل محكم»[١٠٩].

وفى فصل خاص عن خزائن السلاح يوصى قلاوون بضرورة ملاحظة مجدداتها وتزويدها بالسلاح بحيث «تغدو أجزاءبها شاكية السلاح» ويجب أن يوفر ما تحتاج إليه من أموال وعدم البخل فى ذلك وتزويدها به بصفة دائمة[١١٠] ويذكره فى آخر فصول التذكرة بضرورة الاهتمام بدار الضرب

مذكرًا إياه بأن الملك هو «السكة والخطبة» وأمره بألا يعطل «قلم درهمها ودينارها ولا يغب فيها باسمنا الشريف» «وأن يتجنب إتيان الزايف»(١١١) ويختتم شافع تذكرته بما هو نصه:

«وإذا أمعن الولد النظر فيما نصفاه وتدبر ما أمللناه نشأ له عن ذلك أحوال فأحوال وتفصيل وإجمال ونحن واثقون منه بأنه سيكون عند ما توسمناه وأنه غنى عن ما رسمناه حين رسمنا وإنما الله سبحانه وتعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿وذكّر فإنّ الذّكرى تنفعُ المؤمنين﴾(١١٢)

وبعد دراستنا لهذه المجموعة من الوصايا التى تناولت شتى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والإدارية فى فترة هامة من فترات التاريخ المملوكى يبرز تساؤل هام نختتم به هذه الدراسة وهو هل تركت أثرًا على الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون؟.

على الرغم من قصر عهد الأشرف خليل (ذو القعدة ٦٨٩هـ ـ المحرم ٦٩٣هـ) إلا أن المصادر أشارت إلى عمله بهذه الوصايا فى جوانب وإهماله لها فى جوانب أخرى. فقد تركت وصية والده له بالاحتراز عند ركوبه أثرها عليه فنجح فى التخلص من أول مؤامرة دبرها له حسام الدين طرنطاى أثناء ركوبه(١١٣). أما علاقته مع الرعية فقد استهل الأشرف عهده بإبطال عدة حوادث وهى المكوس التى لا تستند على قانون شرعى وسامح فيما تأخر من البواقى وأكثر من تفرقة الأموال على الفقراء، كما أبطل من دمشق مكسًا كان يؤخذ فى باب الجابية وكتب بخطه «ولنكشف عن رعايانا هذه الظلامة، ونستجلب الدعاء لنا من الخاصة والعامة»(١١٤).

وقد استطاع الأشرف أن يحكم قبضته على زمام الأمور بسرعة عقب وفاة والده فلم «يختلف فيه اثنان ولا تحركت شفة ولا لسان»(١١٥). وعلى الرغم من وصية والده له بأن يحسن علاقته مع الأمراء فقد ابتدأ عهده

بالقبض على حسام الدين طرنطاى وقتله وزين الدين كتبغا وأفرج عنه[١١٦]. كذلك قام بالقبض على شمس الدين سنقر الأشقر وجرمك الناصرى وأعدمهما[١١٧]، وكان ذلك من بين الأمور التى عدها عليه بدر الدين بيدرا استهتاره بالأمراء مماليك أبيه، ونفور الأمراء منه لقتله عدداً منهم[١١٨]. وعلى الرغم من نصيحة والده بأن يستمع إلى الشكاوى بنفسه ولا يعتمد على ذوى التسويف، إلا أنه كان يستمع إلى وزيره شمس الدين بن السلعوس مما أدى إلى زوال ملكه[١١٩].

أما عن علاقته مع الصليبيين فى بلاد الشام فقد سار على نهج والده الذى رفض ما قدمه له الصليبيون من أعذار بشأن نقضهم للهدنة فى عكا[١٢٠]. ولما استقر له الملك «وخلا وجهه ممن كان يقصد مناوأته»[١٢١] صرف اهتمامه نحو غزو عكا وطرد بقايا الصليبيين من الأراضى المقدسة. ويؤكد بيبرس الدوادار ذلك ـ وكان أحد المشاركين فى هذه الحروب ـ بقوله ـ وفيها عزم السلطان على المسير إلى عكا وإنزالها والجد فى قتالها «متمماً لما عزم والده عليه من أخذها واستئصالها»[١٢٢] أما شافع بن على فيشير إلى ذلك ضمن قصيدة له مهنئاً بفتح عكا:

وعنى بوصية والده فيها فنفذها

ومازال ببره أعنى[١٢٣]

وعلى الرغم من هذه الجملة من الوصايا فإن الأشرف تعاظم فى أواخر أيامه وصار لا يكتب اسمه وإنما يكتب «خ» إشارة إلى أول حروف اسمه، ومنع أن يكتب لأحد «الزعيمى» وقال «من زعيم الجيوش غيرى»[١٢٤] وكان لإهماله نصيحة والده بالاحتراز عند الركوب وعدم الخروج على غير العادة ولا يسلك أماكن غير مألوفة سبباً فى مقتله ـ بالإضافة إلى الأسباب السابقة التى أشرنا إليها. فانتهز بيدرا ذلك بعد أن وصلته الأنباء عن خروجه

بمفرده ولم يكن معه سوى شهاب الدين أحمد بن الأشل فانتهز جماعة الأمراء التى اتفقت على قتله هذه الفرصة وباغتوه فتمكنوا منه وقتل فى ١٢ محرم ٦٩٣هـ[١٢٥].

الهوامش

(١) توجد نسخة وحيدة للمخطوط بمكتبة البودليان بأكسفورد رقم ٤٢٤ (ميكروفيلم) وكذلك انظر: بروكلمان (كارل)، تاريخ الأدب العربى، نقله إلى العربية د. السيد يعقوب بكر، مراجعة د. رمضان عبد التواب، جـ٦، القاهرة، جـ٦، القاهرة، ط٢، بدون تاريخ، ص ٢٠.

(٢) انظر مقدمة شافع بن على «حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية» تحقيق ونشر د. عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الرياض بدون تاريخ، ص ١٤.

(٣) شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٥٩، وأشار ابن شداد إلى أن محيى الدين هو الذى قرأه، وكذلك النويرى، وأنعم بيبرس عليه بمائة دينار، انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فيسبادن ١٩٨٣، ص ١٣٥، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٣٠، تحقيق د. محمد عبد الهادى شعيرة، ومراجعة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٩٠، ص ٢٢٣.

(٤) ذكر النويرى أن الكتاب بخط بيليك، أما ابن شداد فذكر أنها بيد بيليك. ولكنهما لم يذكرا نص الكتاب. انظر: شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٦٧-١٧٠ك ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٢٤، النويرى، نهاية الأرب، جـ٣٠، ص ٣٦٩.

(٥) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٢٤ظ ـ وكان شافع آنذاك فى حوالى الثامنة والعشرين من عمره لأن الملك السعيد حكم فى الفترة من (٦٧٦-٦٧٨هـ).

(٦) شافع بن على الفضل المأثور، ورقة ٢٤ظ، ٢٥و. وعن هذه الأحداث انظر: بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٥١-١٥٣. ويذكر العمرى أن هؤلاء الفداوية كانوا يتبعون من يملك مصر «ولصاحب مصر بتشيع هؤلاء مزية، يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل من هؤلاء إليه من يقتله ولا يبالى أن يقتل معه». مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ـ دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دوروثيا كرافولسكى، بيروت ١٩٨٦، ص ١٣٨-١٣٩.

(٧) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٢٤ظ.

(٨) المقريزى، السلوك، جـ١ ، ص ٦٥٤.

(٩) ذكر شافع أن ذلك الأمر ظل سراً وأنه أخفاه عمن معه حتى تم خلع العادل بدر الدين سلامش وفى ذلك تأكيد لموقف قلاوون من أنه كان يسعى للحصول على السلطنة على الرغم من تظاهره برفضها. وعن آراء المصادر فى ذلك انظر: بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٥٤ ، والمقريزى، السلوك، جـ١ ، ص ٦٥٨ ، وعن اختياره لهذا اللقب رواية أخرى ـ انظر: ابن الوردى (زين الدين عمر) تتمة المختصر فى أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوى، المجلد الثانى، بيوت ١٩٧٠ ، ص ٣٢٩.

(١٠) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٣و ـ ظ.

(١١) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٢٧ظ.

(١٢) نفسه، ورقة ٢٢ ظ.

(١٣) نفسه، ورقة ١١٩ظ ، وانظر أيضًا : القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد) ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤؛ القاهرة ١٩١٣–١٩٢٠ ، جـ١٠ ، ص ١٧٣ وما بعدها.

(١٤) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٤٠ظ، وعن عمل فتح الدين أثناء عهد بيبرس، انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٣٩.

(١٥) فى حسن المناقب السرية لم يحدد شافع درجة قرابته بابن عبد الظاهر واكتفى بالإشارة إلى أنه قريبه ـ أما هنا فيحددها كما ذكر فى العبارات أعلاه. انظر: حسن المناقب، ص ١٣٢ ، الفضل المأثور، ورقة ٢٧ظ.

(١٦) شافع بن على، الفضل المأثور، ١٠٤و.، وكذلك بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٧١–١٧٢ ؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١و ص ٦٩–٧٠.

(١٧) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٤٠و–ظ، وكذلك بيبرس المنصورى (الداودار)، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، نشر : د. عبد الحميد صالح، بيروت ١٩٨٧ ، ص ٩٨ ؛ المقريزى، السلوك، جـ١ ، ص ٦٩١–٦٩٢.

(١٨) شافع بن على، الفضل المأثور، ٦٤و ـ ٦٥ظ. وتجدر الإشارة إلى أن نص المنشور الذى كتبه شافع لم يشر فيه إلى لقب الملك وإنما لقب «الأمير» راجع: محيى

الدين بن عبد الظهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٨٧، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ٢٤.

(١٩) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٨٢؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ص ١٩٣.

(٢٠) شافع بن على، الفضل المأثور، ١٢٨ظ، حسن المناقب السرية، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢١) على الرغم من أن حسن المناقب السرية يتناول اختصاراً لتاريخ الظاهر بيبرس، فإن شافع بن على أورد بضع صفحات فى أثناء حديثه عن طرابلس وعكا وذلك فى عهد قلاوون وهى بحاجة للمناقشة مع ما أورده فى الفضل المأثور، انظر: حسن المناقب، ص ١٣٢-١٣٦، ١٣٧-١٤٠.

(٢٢) فوات الوفيات، ٢ جـ، القاهرة، ١٩٧١، جـ١، ص ٢٣٤، أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف (بن تغرى بردى)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جـ، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩-١٩٧٢، جـ٩، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٢٣) يذكر شافع أنه كان كاتبًا للدرج أثناء ذلك. وعن حفر هذه الترعة انظر: محمد حمزة إسماعيل الحداد، السلطان المنصور قلاوون، القاهرة ١٩٩٣، ص ٦٥-٦٧.

(٢٤) ذكرت بعض المصادر أن الخطاب كان من إنشاء محيى الدين والأصوب هو فتح الدين ابنه، وكاتب السر آنذاك، أما القلقشندى فقد أورد نص الرسالة ونسبها إلى شافع بن على على الرغم من أنه لم ينسبها إلى نفسه. وبعد عقدى لمقارنة بين نسخة الخطاب لدى شافع ونسخة القلقشندى وجدت اختلافًا بينهما فى بعض العبارات ولا ندرى هل اعتمد القلقشندى على نسخة أخرى للفضل المأثور فقدت، أم أنه تصرف فى العبارات. للمزيد انظر: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ١٠ ح (٥)، مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بولشيه، ٢ جـ، باريس ١٩١١-١٩١٢، جـ٢، ص ٣٤٦. وفى حاشية رقم ١٢ إشارة إلى فتح الدين وهو الأصوب.

(٢٥) جـ٦، ص ٢٠، جـ(١).

(٢٦) الخطط، جـ٢، ص ٢٠٣–٢٠٤؛ صبح الأعشى، جـ٧، ص ٢٣٧.

(٢٧) النجوم، جـ٩، ص ٢٨٣.

(٢٨) بيبرس الدوادار، زبدة الفكر، ص ٢٦٩–٢٧٠، ٢٧٣. وعن تولى فتح الدين كاتبًا للسر وتطور هذه الوظيفة انظر: أبو المحاسن، النجوم، جـ٧، ص ٣٣٢–٣٤٣.

(٢٩) هناك رأى آخر عن وفاته عام ٧٣٣هـ. انظر مقدمة حسن المناقب السرية، ص١٤.

(٣٠) زبدة الفكرة، ص ١٦٧–١٧٠، صبح الأعشى، جـ١٠، ص ١٦٦–١٦٧.

(٣١) زبدة الفكرة، ص ٢٥٣.

(٣٢) ابن فضل الله العمرى شهاب الدين أحمد بن يحيى (٧٠٠–٧٤٩هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، عنى بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه محمد حسين شمس الدين، بيروت ١٩٨٨، ص ١٢٩–١٨٥.

(٣٣) نفسه، ص ١٢٩.

(٣٤) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ١١، ص ٩١ وما بعدها.

(٣٥) التعريف، ص ١٢٩ وما بعدها، وأوضح لنا ما يصدر من الوصايا فى كل واحدة منها. فالعهود لا تكون إلا للخلفاء عن الخلفاء أو للملوك. والتقاليد لا تكون إلا لكفلاء المملكة وقد يكون لأكابر قضاة القضاة. أما التفاويض فهى لعامة القضاة، والتواقيع فهى لجمهور من عانى الكتابة فى زمان العمرى ومنها لعامة أرباب الوظائف والمراسيم ما يكتب فى صغائر الأمور. وللعمرى فى ذلك رأى أورده ضمن هذا الفصل الخاص بالوصايا.

(٣٦) القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص ٧٩–٩١.

(٣٧) نفسه، جـ١٣، ص ١٠٣، ويقارن بين تذكرتين أحدهما للقاضى الفاضل والأخرى لمحيى الدين بن عبد الظاهر، حيث «أهمل فى الثانية مراعاة الفصاحة والبلاغة جملة، بل لم تراع فى الأخيرة منهما قوانين النحو».

(٣٨) راجع: وصايا العمرى فى التعريف، وكذلك القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص ٩١ وما بعدها.

(٣٩) القلقشندى، صبح، جـ١٠، ص ١٧٢-١٧٣.

(٤٠) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٨ ظ، ٩٠و.

(٤١) نفسه، ورقة ٩٩ ظ.

(٤٢) كتب هذا التقليد محيى الدين بن عبد الظاهر وذلك فى شوال ٦٦٢هـ، وأورده نقلا عنه كل من شافع بن على وبيبرس الدوادار والقلقشندى، انظر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، ص ٢٠٤-٢٠٩.

(٤٣) «ولما أحس «الملك الظاهر» بالموت رحمه الله كتب تذكرة إلى ولده الملك السعيد وهو بمصر، ومن جملتها، إنك صبى، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى، فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك، وتحققت ذلك عنه، فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله، ولا تستشر (فى الأصل تستشير) أحداً فى هذا، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك» المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول والثانى تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، جـ١، ص ٦٤١، وتجدر الإشارة إلى أن محيى الدين بن عبد الظاهر وشافع بن على وابن شداد لم يشيروا إلى هذه الوصية ضمن مؤلفاتهم عن الظاهر بيبرس.

(٤٤) بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق د. زبيدة محمد عطا، شركة المدينة للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٦٧-١٧٠، القلقشندى، صبح، جـ١٠، ص ١٦٦-١٧٣.

(٤٥) «فإذا لم يبق إلا الركوب من قلعته تقدم أمره بكتابة تذكرة بتفصيل ما أجمله من وصيته ويشملها بخطه الشريف» شافع. الفضل المأثور، ورقة ٨٣.

(٤٦) محمد الحداد، قلاوون، ص ٣٨-٣٩.

(٤٧) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٨٣و.

(٤٨) نفسه، ورقة ٨٣ظ.

(٤٩) نفسه، ورقة ٨٩و.

(٥٠) نفسه، ورقة ٩٣و.

(٥١) لم تشر المصادر التاريخية المعاصرة إلى الرواية الخاصة بتوقف قلاوون عن التوقيع على تقليد العهد خاصة محيى الدين بن عبد الظاهر وشافع بن على وبيبرس الدوادار ولم يشر إليها إلا النويرى الكندى المتوفى عام ٧٣٢هـ. ويذكر النويرى نفسه أن السلطان فوض ولاية العهد لولده الأشرف صلاح الدين وكتب بذلك إلى الشام وسائر البلاد وخطب له بولاية العهد بعد أبيه على عادة أخيه الملك الصالح. وهذه جميعًا لا تصدر إلا بعد توقيع السلطان عليها. انظر: النويرى الكندى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٣١، تحقيق د. السيد الباز العرينى ومراجعة د. عبد العزيز الأهوانى، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٦٠، ١٧٨.

(٥٢) زبدة الفكرة، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٥٣) على إبراهيم حسن، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٥٠؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٧١.

(٥٤) الفضل المأثور، وورقة ٨٢ظ.

(٥٥) يذكر بيبرس الدوادار أن الأشرف تمكن من إحكام قبضته على الأمور، خاصة بعد نجاحه فى التغلب على مؤامرة حسام الدين طرنطاى لقتله، بحيث «لم يختلف فيه اثنان ولا تحركت شفة ولا لسان»، انظر: زبدة الفكرة، ص ٢٥٣.

(٥٦) اهتم المنصور قلاوون اهتمامًا خاصًا بالسجون. فقد عمَّر الجب الذى فى القلعة فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٣م لكى يحبس فيه الأمراء ـ وكان «مهولاً» مظلمًا كثير الوطاويط كريه الرائحة يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه». ومن أماكن الحبوس أيضًا خزانة البنود وخزانة شمائل. أما أحمد بن المكرم فقد زاد فى تذكرته فى فصل الحبوس بضرورة حلق الأسارى من الفرنج لحاهم وتعهد ذلك دائمًا. وعدم استخدام أى شخص غريب أو فيه ريبة ومضاعفة الحراسة على هذه الحبوس. للمزيد انظر:

المقريزى، السلوك، جـ١، ص ١٣٣، ح(١)، العينى (بدر الدين محمود)، عقد

الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٨، جـ٢، ص ١١٠، ح(٢)؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٩٧؛ محمد الحداد، قلاوون، ص ٨٠، ح(١).

(٥٧) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٤و- ظ.

(٥٨) نفسه، ورقة ٩٤و- ظ.

(٥٩) يذكر القلقشندى عن باب القرافة أنه «وهو أقل أبوابها سالكًا وأعزها استطراقًا» ويشير كريزويل أنه كان نادر الاستخدام ومن الصعب جدًا الوصول إليه. انظر: صبح، جـ٣، ص ٣٧٤؛ كريزويل وصف قلعة الجبل، ص ٩٨.

(٦٠) لها معان عديدة ولكنها تدل هنا على فرق الجند المكلفة بحراسة القلعة. وتدل أيضًا على الفرق المخصصة لحراسة شخص السلطان وهى خمس نوبات يجرى تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ومنتصف الليل وعند الصباح. انظر: العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى، ص ١٠٣-١٠٤؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٦١ ح(١) ، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم بمصر، جـ٢، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٥٣-٥٤.

(٦١) للمزيد عن ذلك راجع: السيد الباز العرينى، المماليك، بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٤ وما بعدها.

(٦٢) أطلق على هؤلاء تسمية «المجردون» وهم الحرس الليلى المكلف بالحراسة خارج القلعة. وأضاف أحمد بن المكرم فى تذكرته تجريدهم جهة المدينتين مصر والقاهرة وخارج الحسينية وعدم إهمال ذلك ليلة واحدة وعدم مفارقتهم مراكزهم إلا عند السفور وكامل الضوء، انظر القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص٩٤.

(٦٣) السماط، المائدة السلطانية أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين. وعن عددها وما يقدمه السلطان فيها لمماليكه وغيرهم انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠٤؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين الممالك، ص١١٦-١١٧.

(٦٤) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٣و. ويتولى الداودار الكبير رفع القصص إلى السلطان أو نائبه ويتولى أيضًا الحصول على التوقيع عليها. والقصة هي طلب الجندى الحصول على إقطاع أو إعلانه بخروجه عن إقطاع بيده أو طلب بإعادته إلى إقطاع خرج عنه. انظر:

السيد الباز العرينى، المماليك، ص ١٤٩، ١٨٩-١٩٠. وكذلك راجع: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠١-١٠٢.

(٦٥) باب الرحبة هو المؤدى إلى الرحبة الفسيحة التى فى صدرها الإيوان الكبير الذى أعده قلاوون لجلوسه فى أيام المواكب وإقامة دار العدل والتى أنشأها بدلا من دار بيبرس. للمزيد انظر: العمرى، مالك الأبصار، ص ١٤١-١٤٢. كذلك محمد الحداد، قلاوون، ص ٨١ح(١).

(٦٦) ذكر العمرى أن باب القلة كان فى وسط الدوركاة التى كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول، ويدخل منه فى دهاليز فسيحة إلى ديار وبيوت ومساكن وإلى المسجد الجامع وسمى بذلك لوجود قلة عنده بناها الظاهر بيبرس، للمزيد انظر:

العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٤١-١٤٢؛ محمد الحداد، قلاوون، ص٨٢-٨٣.

أما باب السر فيختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة ـ كالوزير وكاتب السر ونحوهما ويتوصل إليه من الصوة وينتهى مدخله من مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أمام المواكب. انظر: القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٣٧٤، كريزويل، وصف قلعة الحجبل، ص ٦٩.

(٦٧) كان هناك والى مخصص للطواف فى الشوارع والحارات لحراساتها وتأمينها وكان يرافقه المقدم أحد رجال الشرطة. وفى تذكرة أحمد بن المكرم أمر قلاوون بمنع خروج النساء ليلا. انظر: السلوك، جـ١، ص ٦٧٣، جـ١؛ القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص ٩٢.

(٦٨) ظهر بعض الأشخاص فى بداية حكم قلاوون عاثوا فساداً فى القاهرة ومصر وذاع صيتهم حتى أن الناس خشوهم وقاموا بدفع أموال وغيرها لهم اتقاء لشرهم. وعندما بلغ قلاوون ذلك أحضر والى مصر والقاهرة وأغلظ إليهما فى

القول حتى تم القبض عليهم وهؤلاء الأشخاص هم الجاموس والمحوجب والكريدى وتم تسميرهم والطواف بهم فى شوارع القاهرة حتى ماتوا. انظر: محيى الدين بن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل ومراجعة د. محمد على النجار. القاهرة، ١٩٦١، ص ٧٩-٨٩.

(٦٩) لم أعثر على شرح لهذه القاعات فى المصادر المتاحة، وأمر قلاوون بهدمها، «ومن ظفر به فليمثل به غاية التمثيل» شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٥و.

(٧٠) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٥ظ، ويعطى لنا هذا انطباعًا بأن قلاوون لم يكن مثل بقية سلاطين المماليك الذين ولعوا بالنجوم وبأصحاب التقاويم فالظاهر بيبرس اعتقد فيما يقوله هؤلاء المنجمون وتربط بعض الروايات سبب وفاته وبين تصديقه لما قاله له أصحاب التقاويم من أنه يموت بدمشق فى عام ٦٧٦هـ ملك من الملوك بالسم فحصل عنده من ذلك أمر عظيم. انظر:

Ayyabids, Mamlukes and Crusaders, Selections from the Tarikh al Adual Wa'l Muluk of Ibn al Furat, Text and Trans. by M.C. Lyons Rily Smith, 2 Vols., Cambridge, 1971, pp. 212-213.

وانظر : وصية منجم فى العمرى، التعريف، ص ١٨٠، وفى عام ٧٣٣هـ قام الناصر محمد بمنع المنجمين وضربهم لإفسادهم حال النساء. انظر: سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٤١.

(٧١) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٥ ظ. وتجدر الإشارة إلى قيام قلاوون بتطبيق الحد على أحد القتلة وتم إعدام آخر شنقًا. وراجع أيضًا ما تم تطبيقه من عقوبات على الكريدى والمحوجب والجاموس. كذلك تم عقاب ثلاثة شاركوا فى عملية تزوير لتوقيع السلطان. فأمر بقطع لسان الجندى وتجريسه، وتسمير النصرانى واليهودى. ثم عاد ورسم قلاوون باستفتاء الفقهاء فى القضية فأفتوا بتأديبهم وحبسهم وتعزيرهم التعزير الشرعى فأمر بتطبيق ذلك عليهم. ويشير العمرى أنه كان على متولى الشرطة أن يكتب مطالعة جامعة للسلطان يخبره فيها ما يقع من قتل أو حريق كبير وما شابه ذلك. انظر: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٨٩-١٢٢؛ العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠٦.

(٧٢) يذكر المقريزى أنه قد رسم بتضمين الخمر، فظهر وكثر السكارى وزال الاعتراض عليهم ولكن لم يقم ذلك سوى أيام قلائل وأبطلت ومنع التظاهر بشىء من المنكرات، وكان هذا المرسوم قد صدر فى ٢٥ ربيع أول ٦٨٠هـ وتم إبطالها وإراقة الخمور. ولاشك أن إباحة الخمور وحظرها كان يثير جدلا كبيراً فى تلك الفترة. فقد كانت الدولة المملوكية تجبى من ذلك أرباحًا طائلة فيذكر ابن شداد أن جملة ما كان يتحصل زمن بيبرس منها فى أعمال مصر ألف دينار يوميًا كما أن وجود الأجانب خاصة فى الإسكندرية كان عاملا آخر فى هذا الجدل وأوردت د. حياة ناصر الحجي دراسة عن ذلك وما أحدثه قرار منع الخمور من رد فعل. انظر: النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ٨٠؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٦٦٨؛ ابن شداد. (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم)، تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط ـ فيسبادن، ١٩٨٣، ص ٢٩٩–٣٠٠، حياة نصار الحجى، أحوال العامة فى حكم المماليك (٦٧٨–٧٨٤هـ/ ١٢٧٩–١٣٨٢م) دراسة فى الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الكويت، ١٩٨٤، ص ٧٢–٧٨.

(٧٣) وردت مسميات أخرى على هذه الفئة من النساء فى مصادر العصر المملوكى من بينها الخواطى وهى جمع خاطية أى المرأة الداعرة، وتسمى محظية وتجمع على محظيات، كما أطلق عليهن ابن شداد لفظ المومسات. وكان لهن ضامنة تسمى ضامنة المغانى. ويذكر أحمد بن المكرم فى تذكرته ضرورة منع أحد من الاجتماع فى هذه الأماكن ليلا أو نهاراً، بل إنه أشار أيضًا إلى عدم اجتماع النساء والرجال فى ليالى الجمع بالقرافتين للحد من هذه الناحية الاجتماعية السيئة وكان الظاهر بيبرس قد حارب هذه الظاهرة من قبل وذلك بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجيات. وكذلك بسلب جميع أموال المفسدات حتى يتزوجن. وأبطل المقرر من هذه الجهة وعوضهم مالا حلالا. انظر: ابن شداد، تاريخ الظاهر بيبرس، ص ٣٠٠؛ المقريزى، السلوك، ص ٥٠٠، ٥٥٣–٥٥٤، وكذلك : سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣٧؛ قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ط٢، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٣٩–١٤٠.

(٧٤) من المنكرات التى كانت منتشرة أيضًا تعاطى الحشيش والأفيون بخلاف أنواع

الخمور المختلفة. فأصدر بيبرس أمرًا بمنعها وتأديب آكلها وأبطل ضمان الحشيشية بل أنه أمر بمنع كل مسكر وأخذ خطوط ولاته على ألا يمكنوا أحدًا من تعاطيه البتة وساد المنع بين أمرائه ورعيته. وفى عام ٦٨٧هـ تم ضبط نصرانى وامرأة مسلمة يشربان الخمر فى رمضان، فأمر نائب السلطنة فى دمشق بحرق النصرانى وقطع بعض أنف المرأة وشفع فيها فأطلقت. انظر: ابن شداد، تاريخ الظاهر بيبرس، ص ٢٩٩-٣٠٠؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٦٦، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٩-٢٣٣؛ عبد المنعم ماجد، نظم، ص ١٢٢-١٢٣، وعن المرأة والنصرانى انظر:

النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ١٥٨-١٥٩. وللعمرى رأى فى ذم الحشيش، انظر: التعريف، ص ٢٨٨، ح(٥٠).

(٧٥) كان السلطان يجلس بنفسه فى دار العدل فى يوم الاثنين من كل أسبوع عدا شهر رمضان. فإذا قعد للمظالم كان يجلس على يمينه قضاة المذاهب الأربعة أولهم الشافعى من الحنفى ثم المالكى وأخيرًا الحنبلى. وكان السلطان يراجعهم إذا احتاج الأمر للمراجعة. وعلى الرغم من أن قاضى الشافعية كان أعلاهم إلا أن هذه الإشارة تدل على ضرورة تعاونهم وعدم التنافس بينهم. وأشار العمرى فى التعريفإلى مجموعة من الوصايا للقاضى عامة. ثم خص قاضى كل مذهب بوصية خاصة به. وفى تقليد عهده للأشرف خليل أكد عليه مراعاة العدل فهو «معمر بيوت الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال...» وأمره أيضًا بإقامة حدود الله وعدم تجاوز حدوده فى القصاص. وهناك عقوبات أخرى طبقت مثل التشهير والتجريس والعصر بالمعصرة والتسمير وغيرها. عن ذلك آنظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٠١-١٠٢؛ التعريف، ص ١٥٤-١٦٠؛ القلقشندى، صبح، جـ١٠، ص ١٦٧-١٦٨؛ وكذلك : سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص٩٨-٩٩.

(٧٦) شافع بن على، الفضل المأثور، ٨٩ط، ٩٠و. وعن قيام الظاهر بيبرس بجعل قاضى لكل مذهب ودوافعه فى ذلك انظر:

J.S. Nielsen, Sultan al Zahir Baybars and the Oppoinment of Four Chief Qadis (6563/1265) in Studia Islamica, Paris, 1984, pp. 167-176.

وكذلك شافع بن على، حسن المناقب، ص ١٠٣.

(٧٧) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٩٠و.

(٧٨) ذكر محيى الدين بن عبد الظاهر فى تقليد الأشرف بولاية العهد نفس العبارة بعد أن تحدث عن العدل «وأقرنه بالفضل ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ﴾ الآية. القلقشندى، صبح، جـ١٠، ص ١٧٠.

(٧٩) لم يقتصر اهتمام قلاوون بالفلاحين على هذا الجانب، بل أكد فى فصل آخر بالاستكثار من الغلال «من غير إجحاف ولا طلب ما لا يستحق بيت المال». وعرف القلقشندى ما يتحصل من الغلال بأنه المال الخراجى وهو على ضربين شرعى وغير شرعى، ويذكر أنه فى زمانه كان أكثر خراج الوجه القبلى من الغلال وهى القمح والشعير والحمص والفول والعدس وغيرها. ويعبر فى عرف الدواوين فيما عدا القمح والشعير والحمص بالحبوب. وفى الغالب يؤخذ عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة ما بين أردبين إلى ثلاثة بكيل تلك الناحية، وربما زاد عن ذلك أو نقص. وفى الغالب أيضًا يؤخذ على كل أردب درهم أو درهمان. وكان لانخفاض النيل فى العصر المملوكى أثر كبير على إعادة تحقيق خراج الديار المصرية. وجرت محاولات كثيرة لضبط هذه الأمور. للمزيد انظر: القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٤٥٢-٤٥٤؛ السيد الباز العرينى، المماليك، ص ١٧٣ وما بعدها.

(٨٠) كان هناك كاشف للجسور فى العصر المملوكى ويسمى بالأمير كاشف الجسور فى العمل الفلانى، وكان يعاونه عدد من الخولة والمهندسين فى مراقبة الجسور. وكان أحمد بن المكرم أكثر تحديدًا فى مسئولية الولاة عن الجسور حيث ذكر فى تذكرته بأن تؤخذ خطوطهم «بأن الجسور قد اتقن عملها على الوضع المرسوم به، وأنها اتقنت ولم يبق فيها خلل، ولا ما يخشون عاقبته ولا ما يخافون دركه، وأنها عملت على ما رسم» القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص ٩٥؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٢٧٦.

(٨١) قدم محيى الدين بن عبد الظاهر تفاصيل أكثر فى تذكرته فيما يتعلق بهذه النواحى الاقتصادية حيث أفرد لها ثلاثة فصول انظر ما يلى.

(٨٢) كانت الجسور على نوعين: السلطانية وهى التى يعم نفعها كافة البلاد ويصرف عليها مما يجبى من أموال الأعمال الشرقية والغربية. والثانى هى الجسور البلدية

وهى الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم.

انظر: القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٤٤٨-٤٤٩؛ محمد جمال الدين سرور دولة بنى قلاوون فى مصر (الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص)، القاهرة ١٩٤٧، ص ٢٨١-٢٨٧.

(٨٣) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٨٧ظ.

(٨٤) نفسه، ورقة ٨٨و.

(٨٥) نفسه، ورقة ٨٨ط.

(٨٦) أوردها شافع هكذا ـ وهى ترعة الطيرية أو الطبرية والتى قام قلاوون بحفرها ومعه الأمراء والملك المنصور صاحب حماة حيث تم إنجازها فى عشرة أيام وذلك فى عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وتركت أثراً هامًا على هذه النواحى فى بلاد البحيرة وتتضمن التذكرة هنا ضرورة مراعاتها والاهتمام بها ـ كما تدل على أنها كتبت بعد حفر الترعة للمزيد انظر: محمد الحداد، قلاوون، ص ٦٥-٦٧.

(٨٧) أفرد أحمد بن المكرم فصلا للثغور المحروسة، وكذلك محيى الدين بن عبد الظاهر، أما فتح الدين فقد اختصر شافع تذكرته ولم يوردها كاملة.

(٨٨) نصت الهدن والمعاهدات التى عقدها قلاوون مع مختلف القوى الصليبية فى الأراضى المقدسة مثل الداوية وبوهمنهد السابع صاحب طرابلس ومع السلطات فى عكا ومع صاحبة صور، على شروط عديدة لتأمين التجارة وعبورها الأراضى المملوكية. انظر: جوزيف نسيم يوسف، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١٠٣-١١٠.

(٨٩) الفضل المأثور، ورقة ٩٨و.

(٩٠) نفسه، ورقة ٨٥و.

(٩١) عبرت القوافل هذا الطريق بعيداً عن تهديد الصليبيين وكان يقطع فى ثمانية أيام، كما سلكه المتهربون من التجار بعيداً عن دفع الحقوق السلطانية عند القرما. انظر: حسن عبد الوهاب، مصر وأمن البحر الأحمر فى عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، أبريل ١٩٩٢، ص ٨٦.

(٩٢) حذر قلاوون والى البحيرة بحفظ الطرقات والمنازل من جهة برقة وضبطها من كل «متسلك أو متسحب أو نازح». كما حذر ولاة البهنساوية والفيوم ومن تسلل أحد من الأكراد والشهرزورية وهذه العبارة تدل على ظهور خطرهم مرة أخرى على الرغم من قيام بيبرس بتشريدهم بعد مؤامرتهم ضده. أما خطر العربان فقد نجح الظاهر بيبرس فى القضاء عليهم. واستمر قلاوون فى إخضاعهم محذراً من حملهم للسلاح وضرورة أخذه منهم وإرساله إلى خزائن السلاح. عن ذلك راجع: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٦١، ١٦٣، التعريف، ص ١٠٩، ص ٥٨-٥٩، ١٤٨، ١٤٩، السيد الباز العرينى، المماليك، ص ٧٢-٧٣؛ حسن عبد الوهاب، مصر وأمن البحر الأحمر، ص ٦٨-٦٩.

(٩٣) عن آل فضل وفروعها انظر: العمرى، التعريف، ص ١١١-١١٢؛ القلقشندى، صبح، جـ٤، ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٩٤) حدد ابن المكرم وقت السفر ما بين طلوع الشمس إلى غروبها. انظر: القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص ٩٥.

(٩٥) حرص سلاطين المماليك على تشجيع التجار الذين يحضرون المماليك والخيول وذلك بمنحهم خلع وامتيازات مثل الرواتب الدائمة من الخبز واللحم والتوابل والحلوى والمسامحات نظير كل ما يباع عليه من الرقيق للمماليك والجوارى مع ما يسامحهم به أيضاً من حقوق أخرى تطلق. وللمزيد انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١٣٥-١٣٦؛ التعريف، ص ١٣٤. وكذلك السيد الباز العرينى، المماليك، ص ٧٣-٧٧.

(٩٦) عن البريد ووصوله من وإلى السلطان وكيفية عرضه وقيام كاتب السر بقراءته وأخذ الأمر من السلطان، انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص١٠٥-١٠٦.

(٩٧) أكد قلاوون على والى الشرقية والعرب بالاهتمام بإعداد الخيول الجيدة بحيث لا يكون بها أية عيوب، وكذلك بألا يفارق صاحب النوبة مكان نوبته حتى يحضر صاحب النوبة الأخرى ويتسلمها. ومن يخالف ذلك يؤدب ويغرم. وكانت بلبيس هى آخر المراكز التى لخيل السلطان أما بعدها فكانت مقررة على عربان ذوى إقطاعات عليها خيول تحضر فى هلال كل شهر، فإذا انسلخ الشهر جاء غيرهم، ولذا يسمون خيل الشهارة. ويدخل هؤلاء ضمن طبقة أجناد الحلقة.

وكان بيبرس أول من اهتم بضرورة سرعة وصول الأخبار إليه ـ انظر: العمرى، التعريف، ٢٣٩، ٢٤٥-٢٤٦، ومسالك الأبصار، ص ١٣٦، وكذلك المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٤١-٤٤٧؛ السيد الباز العرينى، المماليك، ص١٨٦؛ عبد المنعم ماجد، نظم، ص ٣٦-٣٨. وعن صفات الخيل الجيدة انظر: العمرى، التعريف، ص ٢٨٩، وما بعدها.

(٩٨) اهتم سلاطين المماليك اهتمامًا خاصًا بسرعة وصول الأخبار إليهم ـ وصنف القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كتابًا أسماه «تمائم الحمائم». ويذكر العمرى أن أول من اعتنى به نور الدين محمود بن زنكى ويؤكد كريزويل ذلك من أنه عثر على إشارة فى أحد المصادر عن اهتمامه بذلك. كما ذكر أن هناك برجًا فى القلعة يسمى برج المطار كان له ارتباط باستخدام الحمام وكانت القاهرة مركزًا خرجت منه الرسائل المعلقة فى الحمام إلى كل من الإسكندرية ودمياط والسويس وبلبيس متصلا بالشام. وتسمى الحمامة التى تحمل البطاقة باسم الحمام البطائقى وكانت هذه البطاقة تعطر لنقل الأخبار السارة، أما الطائر الملطخ بالسواد أو المسّود فكان لنقل الأخبار السيئة. عن ذلك راجع: العمرى، التعريف، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ مفضل ابن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه، ص ٢٤٠-٣٣١؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٦٩٧، ح(١).

(٩٩) شافع بن على، الفضل المأثور، ورقة ٨٥ظ.

(١٠٠) نفسه، ورقة ٩٦ظ.

(١٠١) القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص ٩٧.

(١٠٢) أكد قلاوون على ابنه الأشرف خليل وهو على فراش الموت الاهتمام بالأمراء وحسن معاملتهم. انظر: بيبرس الدوادار، زبدة، ص ٢٥٣. وعن اهتمام قلاوون بمماليكه وما جمعه منهم انظر : محمد الحداد، قلاوون، ص ٤١-٤٥.

(١٠٣) عن موكبه انظر: العمرى، مسالك الأبصار، ص ١١٦، ويشير العمرى أنه كان ينيب عن السلطان فى قراءة القصص وسماع الشكوى. إذا احتاج لأمر السلطان فكان يعلم بذلك عند اجتماعه به، أو يرسل من يعلمه ويأخذ أمره. ولاشك أن قلاوون كان يعلم جيداً المؤامرات التى تدبر أثناء المواكب وأثناء الصيد

فجاءت نصائحه لابنه لتجنب ذلك. وعن مثال ذلك ما حدث أثناء مقتل قطز. عن هذه الروايات انظر: حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٢٣٢ ح(١١).

(١٠٤) أوردت المصادر المملوكية لفظى حرامية البحر والكرسالية للإشارة إلى القراصنة. انظر: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ١٦١، ١٦٥، ٢٠٦؛

P.M. Holt, The Treaties of the Early Mamluk Sultans with the Frankish States, SOAS, Vol. XIIII, London, 1980, pp. 67-76.

(١٠٥) أشار أحمد بن المكرم فى تذكرته إلى ضرورة الاحتياط على الأسرى من الفرنج وضرورة حلق لحاهم وتعهد ذلك دائماً. القلقشندى، صبح، جـ١٣، ص٩٣.

(١٠٦) شافع، الفضل المأثور، ورقة ٨٦و.

(١٠٧) يذكر العمرى أن قطيا تقع على الجفار الذى هو طريق الشام وجعلت لأخذ الموجبات وحفظ الطرقات وأمرها مهم ومنها يطالع بكل وارد وصادر. وجعل بها جماعة من العربان حتى لا يمر أحد ليلا. انظر: التعريف، ص ٢٤٦ ح(٥)؛ القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٤٠٤.

(١٠٨) عن أقمشة الإسكندرية، انظر: العمرى، مسالك الأصار، ص ٨٤–٨٥، ١٥٠، ١٥٧–١٥٨، وكانت هناك خزانة خاصة يحمل إليها ما يعمل بدار الطراز فى الإسكندرية ودمياط وغيرها. وتسمى خزانة الكسوة، انظر: القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٤٧٦.

(١٠٩) أورد العمرى وصفًا للملابس والخلع التى تصنع فى دار الطراز، وللمزيد راجع: مسالك الأبصار، ص ١٣٠–١٣٤. وكذلك السيد الباز العرينى، المماليك، ص ١٥٣–١٥٤؛ سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٨ وما بعدها؛ عبد المنعم ماجد، نظم، ص ٦٦–٦٨؛ جوزيف نسيم، دراسات، ص١٠٢.

(١١٠) كانت إمرة سلاح لمقدم السلاح دارية، ومن وظائفه حمل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة، وهو المتحدث فى السلاح خانة وما يستعمل لها، وما يقدم إليها ويطلق منها، وهو من أمراء المئين. وعن أنواع السلاح فى عصر العمرى انظر:

التعريف، ص ٢٦٤-٢٧٣؛ مسالك الأبصار، ص ١١٨؛ السيد الباز العرينى، المماليك، ص ١١٠-١١١. وعن الزردخاناة انظر: بيبرس الدوادار، زبدة، ص ٩٨ ح(٨).

(١١١) أشار العمرى فى وصية محتسب كيف يتم اختبار النقود لمعرفة ما فيها من نسبة الفضة أو ما يسمى بالروباص. وأوصى بأن يقوم المحتسب بعمل ذلك بنفسه وأن يقيم الرقباء على دار الضرب حتى لا يخرج شيء من الزائف خارجها. كما أورد القلقشندى ما كان يتم التعامل به من تعاملات فى تلك الفترة. للمزيد انظر: العمرى، التعريف، ص ١٦٣، مسالك الأبصار، ص ٨٠-٨١؛ القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٤٤٠-٤٤٥؛ ٤٦٥-٤٦٧.

(١١٢) سورة الذاريات، آية : ٥.

(١١٣) كانت هناك أسباب أخرى لسوء العلاقة بينهما خاصة فى عهد قلاوون منها أن حسام الدين كان يرجح الملك الصالح على أخيه الأشرف، كما أغرى قلاوون على شمس الدين السلعوسى ناظر ديوان الأشرف حتى ضربه وصرفه. انظر: النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ١٧٩-١٨٠؛ بيبرس الدوادار، زبدة، ص ٢٥٥؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٧٥٦-٧٥٧.

(١١٤) المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٧٥٩؛ النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١، ص١٩٧.

(١١٥) بيبرس الدوادار، زبدة، ص ٢٥٣.

(١١٦) نفسه، ص ٢٥٥.

(١١٧) النويرى، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ٢٤٥.

(١١٨) المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٧٩٢.

(١١٩) على إبراهيم حسن، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية، ص ٥٠؛ سعيد عاشور، العصر المملوكى، ص ٧١-٧٢.

(١٢٠) انفرد شافع بن على برواية مفصلة عن مناقشة هدنة عكا وتجديدها خاصة وأن لديه نسختها كما ذكر. انظر: الفضل المأثور، ورقة ١٢٨و- ظ.

(١٢١) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم)، تاريخ ابن الفرات، المجلد الثامن، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩، ص ١١٠.

(١٢٢) زبدة الفكرة، ص ٢٥٩

(١٢٣) شافع بن علي، الفضل المأثور، ورقة ١٣١ظ.

(١٢٤) المقريزى، السلوك، جـ، ص ٧٩١.

(١٢٥) النويرى، نهاية الأرب، جـ١، ص ٢٥٩-٢٦٢.

أثر العوامل الجغرافية علي الحروب الصليبية
منذ الحملة الأولى حتى معركة حطين
(١٠٩٧-١١٨٧م/ ٤٩٠-٥٨٣هـ)

مقدمة

لا تزال الحروب الصليبية معيناً لا ينضب بالنسبة للباحثين فيها. وهذه الدراسة التى أقدمها للقارئ الكريم تتناول تفسير أحداثها من زاوية جديدة ونظرة جغرافية لوقائع هذه الحروب التى وقعت فوق أرض بلاد الشام ومصر ووسط مناخها مما كان له أكبر الأثر وانعكس بصورة مباشرة عليها. وقد حاول كلا الجانبين أن يستغل هذه العوامل الجغرافية لصالحه. وبالفعل وضعت الخطط والتكتيكات العسكرية اعتماداً على الطبيعة الجغرافية لهذه المنطقة واستغلت الطبوغرافية فى نصب الكثير من الكمائن والتى كان لها أكبر الأثر أيضًا فى إلحاق الهزيمة بالعدو. أما المناخ ـ والذى كان العدو الرئيسى للصليبيين ـ فقد ترك تأثيره على مجريات المعارك واستطاع المسلمون فى كثير من الأحيان أن يستغلوه فى معاركهم. أما سلاح المياه أو التعطيش فقد كان أشد تأثيراً فاستسلمت القلاع وتساقطت القوات فى ميدان المعارك وهى تلهث وراء نقطة من المياه عندما كان المسلمون يستخدمون هذا السلاح اعتماداً على معرفتهم بطبيعة البلاد.

ومن ناحية أخرى فإن المسلمين حرصوا على القتال فى فصل الصيف مستغلين عنصراً هامًا من عناصر المناخ ـ هو الحرارة. فقد انعكست بصورة مباشرة على المقاتلين الجدد من الغرب الأوروبى أثناء المعارك، كما كان لها تأثيرها على الأسلحة أيضًا، وعلى مدى نشاط المقاتلين.

كما أن تضاريس بلاد الشام كان لها دور فى هذه الحروب. فقد رسم الصليبيون استراتيجيتهم على هذه الناحية الجغرافية. فتم بناء القلاع والحصون عند المناطق الواقعة مع حدود المسلمين، ثم فى مرحلة تالية رسموا سياستهم على أن يجعلوا من بعض الظاهرات الطبيعية حدوداً لهم. مثل الصحراء فى بعض مناطق الحدود لمملكة بيت المقدس والأنهار فى مناطق

أخرى. وأدى ذلك إلى قيام سلسلة من المعارك لتحقيق هذه الاستراتيجية والتى ثبت بعد ذلك فشلها عندما نجح صلاح الدين الأيوبى فى توحيد مصر والشام مما كان بداية النهاية لهذا الكيان الصليبى.

أما عن الدراسات السابقة لهذا الموضوع، فلم أعثر بين دراسات تاريخ الحروب الصليبية على دراسة تناولته من قبل، وما ورد فى بعض ثناياه تناولته بعض الدراسات المتعلقة بالنواحى العسكرية. وقد اخترت له تلك الفترة الزمنية المحددة باعتبار أنمعركة حطين تمثل نهاية لهذه الاستراتيجية الصليبية التى استندت على العوامل الجغرافية، وبات على الصليبيين بعدها أن يعيدوا التفكير فى وضع سياسة جديدة تستند على امتداد دولتهم الاسمية الجديدة التى خلفتها الحملة الصليبية الثالثة.

ويعتمد أسلوب الدراسة على تناول أهم وقائع هذه الحروب وكيف انعكست العوامل الجغرافية على مجرياتها مع توضيح كيف تمكن أيًا من جانبى الصراع أن يستغل هذه النواحى لصالحه. وقد اعتمدت فى ذلك على دراسة وتحليل مختلف الروايات سواء فى المصادر العربية أو الأجنبية. وثمة ملاحظة جديرة بالتسجيل هنا وهى أن القادة المسلمين كثيراً ما استلهموا هذه التكتيكات من سرايا وغزوات الرسول ﷺ بنصيحة الحباب بن المنذر فى غزوة بدر بشأن ضرورة تأمين الماء للمسلمين ومنعه عن الكفار. كا أشار الله عز وجل إلى أثر المطر أيضًا فى هذه المعركة. كما اهتم الرسول ﷺ. بالموقع كما فى غزوة أحد وغيرها من الغزوات.

وفى النهاية فإننا لا نستطيع أن ننكر أهمية العامل البشرى وسط هذه العوامل الجغرافية فعندما وضع المسلمون خلافتهم جانباً وتوحدت كلمتهم وارتفعت راية الجهاد لطرد أعداء الدين جاء نصر الله وتحقق وعده للمؤمنين ﴿ولينصرن الله من ينصره. إنّ الله لقوى عزيز﴾ (الحج، من الآية: ٤٠)

تميز سطح بلاد الشام بتنوع مظاهره بين السهول الساحلية والمرتفعات الجبلية والهضاب التى تخترقها الكثير من الأودية والسهول النهرية. أما السهول الساحلية فتمتد من خليج الإسكندرونة شمالا حتى رفح جنوباً. ويتسع هذا السهل فى بعض أجزائه، بينما تشرف الجبال على البحر الأحمر مباشرة فى مناطق أخرى. كما يكثر فيه النتواءات الطبيعية والصخور الضاربة مما يسهل قيام العديد من الموانئ على امتداده. وعبر هذه السهول ارتبطت بلاد الشام بمصر، كما أنها أيضًا اتصلت بالداخل عبر عدد من الممرات والأودية النهرية.

كذلك امتدت سلسلة من المرتفعات من الشمال إلى الجنوب عرفت باسم جبال أمانوس فى الشمال والوسطى باسم جبال العلويين والجنوبية هى جبال لبنان. أما فى الجزء الجنوبى فى فلسطين فقد كانت هضاباً أقرب منها إلى الجبال. ويوجد منخفض أوسط عبارة عن منطقة ضيقة من الأراضى المنخفضة وهى امتداد طبيعى للشق الذى يجرى فيه نهر الأردن وتشمل سهل العمق ووادى نهر العاصى ثم سهل البقاع والهضبة التى ينبع منها نهر الأردن ويجرى فيها عدة أنهار هامة مثل نهر العاصى والليطانى وغيرهما. وكذلك فإن مرتفعات فلسطين تعتبر امتداداً لهذه المرتفعات الشمالية وتميل إلى الهضاب مثل الجليل والسامرة والخليل ويهوذا. كذلك فقد أحاطت الصحراء مناطق الشام وهى مستوية وتكثر بها التلال الرملية.

وكان لهذا التباين فى التضاريس أثره على اختلاف المناخ من منطقة لأخرى. ففى المناطق الساحلية تسقط الأمطار بغزارة وتغطى الثلوج قمم الجبال. أما فصل الصيف فيتميز مناخ السهل الساحلى بالحرارة والرطوبة وتأخذ الحرارة فى الشدة كلما اتجهنا شرقًا حتى يصبح صحراوياً فى المناطق الداخلية[١].

عقب دعوة البابا «أوربان» الثانى للقيام بالحملة الصليبية الأولى سارع آلاف من المعدومين والفقراء فى أوروبا للخروج إلى بيت المقدس يدفعهم فى ذلك الطمع الدنيوى بامتلاك الضياع فى فلسطين ـ تلك الأرض التى تفيض لبنًا وعسلا ـ وعبر الألفى ومائتى ميل التى قطعها هؤلاء عبر أوربا حتى وصلوا إلى اسيا الصغرى ظهرت لهم حقيقة هذا السراب الذى كان يشهدونه وذلك عندما أجهز عليهم السلاجقة بعد أن منعوا عنهم الماء واشتد بهم الظمأ وراحوا ضحية الجهل بجغرافية أسيا الصغرى[٢].

أما عن قادة الحملة النظامية فقد حرصوا عند عبورهم لآسيا على تلافى أخطاء الحملة الشعبية. وعلى الرغم من ذلك ووجود الأدلاء معهم عانوا الأمرين خاصة عند عبورهم للمنطقة بين «ضورليوم» و«هرقلة». وذلك فى يونيو ١٠٩٧م/ رجب ٤٩٠هـ فقد كانت تعانى من نقص المياه بالإضافة إلى الحرارة الشديدة. فهلكت أعداد كبيرة منهم قدرها بعض المؤرخين بخمسمائة شخص[٣].

وصلت الحملة أمام أنطاكية فى أكتوبر ١٠٩٧م/ ذى القعدة ٤٩٠هـ، فاقترح بعض الأمراء تأجيل الحصار بسبب قرب الشتاء ـ خاصة بعد أن أرهقهم حر الصيف [٤] غير أنه تم رفض النصيحة السابقة وبدأ الحصار من أكتوبر ١٠٩٧ إلى يونيو ١٠٩٨م / ذى القعدة ٤٩٠ ـ ٤٩١هـ. وأثناء ذلك واجه الصليبيون البرد ووابل الأمطار وتمزقت خيامهم وتعفنت بقية المؤن. ولم يجد كثير من الناس الغطاء الذى يقيهم برودة هذا المناخ القارس أمام أنطاكية[٥].

وعقب محاولات مستميتة نجح الصليبيون فى الاستيلاء على أنطاكية فى ٣ يونيو ١٠٩٨م/ أول رجب ٤٩١هـ. وحاول «كربوغا» حاكم الموصل استرداد المدينة حيث قامت عدة معارك بين الجانبين استخدمت فيها طبيعة

المنطقة. فقد أضرم السلاجقة النيران فى الأعشاب الجافة مما أدى إلى تصاعد الدخان الكثيف مع ما أثارته الخيول من غبار فى المنطقة وأعطى للسلاجقة ستارًا كثيفًا للانسحاب[٦].

فشلت محاولة الاسترداد، وعقد الصليبيون اجتماعًا للتشاور فيما يتم عمله فى هذه المرحلة القادمة. وقد ظهر بصورة واضحة أثر العوامل الجغرافية فى هذا النقاش. فقد فضل الكثيرون الانتظار حتى يتم تحسن المناخ وذلك بسبب الحرارة الشديدة التى لا تحتمل وكذلك ندرة الأمطار فى هذه الفترة وكان لهذا الرأى أثره المباشر على تأجيل رحيل الحملة حتى نوفمبر ١٠٩٨م/ ذو الحجة ٤٩١هـ[٧].

غير أن هذه النصيحة لم يتم تنفيذها، وظل الصليبيون حتى يناير ١٠٩٩م/ صفر ٤٩٢هـ حيث بدأ قسم مهم فى التحرك، ثم تحرك البقية فى فبراير ١٠٩٩م/ ربيع أول ٤٩٢هـ وقد أوقعهم ذلك فى خطأ استراتيجى. فقد وصلوا أمام بيت المقدس فى يونيو ١٠٩٩م/ رجب ٤٩٢هـ. واستخدم الأهالى ما فى وسعهم من أجل مقاومة هذا الحصار الصليبى لمدينتهم خاصة بعد حالة الانقسام التى كان يعانى منها المسلمون آنذاك ـ فبدأوا باستخدام سلاح التعطيش. فقاموا بطمر الينابيع الواقعة فى طريق الصليبيين وتدمير صهاريج المياه وإلقاء الحيوانات الميتة فى بعض الآبار[٨]. وقد نجح الأهالى فى استخدام هذا السلاح. ويعترف المؤرخون الغربيون بمدى المعاناة التى واجهت الصليبيين بسبب العطش، بخلاف من لقى حتفه أثناء التدافع الجنونى للحصول على المياه ـ بعد أن دلهم عليها بعض الخونة مما أدى إلى هلاك الكثيرين.

وكان الضعفاء يزحفون على الأرض بجوار النبع بأفواه فاغرة، وقد أخرسهم جفاف ألسنتهم وامتدت أيديهم التماسًا للمياه من الذين هم أكثر حظًا»[٩] وزادت معاناة الصليبيين مع حرارة الصيف اللافحة فى هذا الوقت

من العام. ويشير «وليم الصورى» لذلك بقوله «مع الطقس الثقيل الوطأة، وحرارة شهر يونيو الشديدة». كما ساعد الغبار أيضًا على شدة المعاناة مما سبب لهم «جفافًا للفم والصدر»(١٠).

أدرك الصليبيون بعد فترة المعاناة السابقة أن هناك منطقة بالقرب من سور المدينة يستوى فيها السطح مما يسهل معه تحريك آلات الحصار عندها. فتحركت القوات الصليبية متجهة إلى المنطقة. وفى ١٧ يوليو ١٠٩٩م/ ٢٦ شعبان ٤٩٢هـ تمكنت من الاستيلاء على المدينة بعد هذه المعاناة الشديدة والتى نجح فيها الأهالى فى الدفاع عن مدينتهم مستغلين هذه العوامل الجغرافية التى توفرت لهم(١١).

حققت الحملة الصليبية الأولى الهدف الذى خرجت من أجله وهو الاستيلاء على بيت المقدس. وتأسست فى بلاد الشام إمارتين هما الرها وأنطاكية، بالإضافة إلى بيت المقدس. وعلى الرغم من حالة المسلمين آنذاك من الفرقة والضعف والانقسام، فإن العوامل الجغرافية وقفت ضد هؤلاء الغزاة، وكان المناخ هو عدوهم الرئيسى. فاشتدت معاناتهم من الأمطار أثناء المعارك، وكذلك من الحرارة أثناء تقدمهم إلى بيت المقدس وكذلك من العطش.

امتدت أملاك الصليبيين فى الجنوب إلى الرملة واللد وطبرية ونابلس وبالإضافة إلى بيت المقدس عند وفاة «جودفرى» أول حاكم صليبى لها فى ١٨ يوليو ١١٠٠م/ ٧ شعبان ٤٩٣هـ. وكذلك يافا، ثم سقطت حيفا فى أغسطس ١١٠٠م/ شوال ٤٩٣هـ. وعندما مرَّ «بلدوين» شقيق «جودفرى» بالمنطقة بين بيروت وجبيل واجهته صعوبات شديدة بسبب طبوغرافيتها. فقد نجا بصعوبة بالغة من الكمين الذى نصبه له السلاجقة فيها مستغلين معرفتهم الجغرافية بها. كذلك عانى من العطش الشديد وأيضًا الحرارة حسب رواية «وليم الصورى» وربما يكون مبالغًا فى ذلك لأنه مر بالمنطقة

فى شهر سبتمبر وعادة يكون المناخ معتدلا فى هذه المنطقة الساحلية فى هذا الوقت[١٢]. ويشير مؤرخ آخر هو «ألبرت اكس» إلى أنه جرت محاولة استكشافية لحصار «أرسوف» ولكن هذا الحصار باء بالفشل بسبب عدم اختيار الوقت المناسب، فقد جرت المحاولة فى شهر ديسمبر وواجه الصليبيون الصقيع والبرد فعادوا إلى بيت المقدس. كما فشلت الكمائن الصليبية ضد المدينة[١٣].

أصبح الصليبيون فى حاجة ماسة إلى مزيد من الرجال لمواجهة النقص الذى حدث عقب عودة الكثيرين منهم إلى أوروبا عقب الحملة الأولى. وخرجت جموع غفيرة ـ خاصة من فرنسا ـ متجهة إلى بلاد الشام وذلك فى عام ١١٠١م/ ٤٩٤هـ غير أن السلاجقة استوعبوا درس الحملة النظامية السابقة. وبدلا من أن تسلك هذه الجموع أقصر الطرق عبر آسيا الصغرى للوصول إلى بلاد الشام، قررت التوجه إلى «كبادوكيا» للانتقام من أسر بوهمند وهكذا نبش الصليبيون قبورهم بأيديهم. فقد دل ذلك على جهلهم بأبسط العوامل الجغرافية. فقد اندفعوا فى هذه المنطقة الجبلية وحل بهم التعب والإرهاق نتيجة العطش وما إن رأوا أحد الأنهار حتى اندفعوا لكى يرووا عطشهم بعد أن كاد الظمأ يسبب لهم الجنون. وأدرك السلاجقة ذلك ـ بسبب معرفتهم بطبيعة بلادهم الجغرافية فكمنوا لهم عند ذلك النهر. ثم انقضوا على هذه الجموع الصليبية حيث اضطرب نظامهم وانتشر الذعر بينهم نتيجة لهذه المفاجأة[١٤].

وقد أحسن السلاجقة استخدام طبوغرافية المنطقة فى القضاء على هذه الحملة الصليبية. كما أن المسئولية تقع أيضًا على الصليبيين حينما لم يقدروا طبيعة هذه المنطقة فوقعوا فى الكمين الذى نصب لهم. وبهذه الهزيمة فى آسيا الصغرى أصبح هذا الطريق مغلقًا أمام الجيوش الصليبية القادمة من أوروبا وصار اعتمادهم بعد ذلك على الطريق البحرى مما أدى

إلى تغير فى الاستراتيجية الصليبية فى المرحلة القادمة وهى الاستيلاء على المدن الساحلية خاصة وأنهم حتى هذه المرحلة لم يكن بأيديهم فى الجنوب سوى يافا وحيفا.

لم ييأس المسلمون عقب استيلاء الصليبيين على مدينتى «أرسوف» و«قيسارية» فى عام ١١٠١م/٤٩٤هـ، بل حاولوا استغلال الإمكانيات الطبيعية فى المنطقة لمقاومة الصليبيين فعند وادى فلاح حيث تكثر الأشجار مكونة ما يشبه الغابات استطاع أهالى المنطقة أن يكمنوا لبلدوين الأول ملك بيت المقدس فى يوليو ١١٠٣م/ شوال ٤٩٦هـ وأصيب الملك إصابة خطيرة كادت تودى بحياته [١٥]. كذلك استغل الأهالى الكهوف والمغارات، الموجودة فى المنطقة ما بين الرملة وبيت المقدس فى مهاجمة الصليبيين الذاهبين إلى هناك[١٦].

ازداد الخطر الصليبي أيضًا في شمال بلاد الشام عقب تأسيس إمارتى الرها وأنطاكية، وتعرضت حران لهذا الخطر، فخرج شمس الدولة جكرمش أتابك الموصل ومعين الدولة سكمان الأرتقى صاحب ماردين من أجل وقف هذا الخطر. وجرت المعركة بالقرب من نهر البليخ الذى يفصل بين الرها وحران فأدرك السلاجقة أهمية هذا العامل الجغرافي الذى توفر لهم. فقاموا بتقسيم قواتهم إلى قسمين، أحدهما مهمته مواجهة الصليبيين والآخر إدخال المؤن إلى المدينة المحاصرة. وفى نفس الوقت وضعت الخطط اعتمادًا على الطبيعة الجغرافية للمنطقة. فأظهر السلاجقة الهزيمة عند بداية اللقاء فخرج الصليبيون وراءهم دون أن يدركوا أن هناك كمينًا قد أعد لهم. وبينما كان الصليبيون يعبرون نهر البليخ فاجأهم السلاجقة فاضطرب النظام وغرقت أعداد كبيرة منهم فى النهر أثناء العبور وحلت بهم الهزيمة ووقع «بلدوين» الثانى أمير الرها وعدد آخر من الصليبيين أسرى، ولاذ الباقون بالفرار بعد صعوبة بالغة[١٧].

وفى ١١٠٨م/٥٠٢هـ أرسل صاحب عرقة يطلب من «طغتكين» أتابك دمشق أن ينقذ قلعته ذات الموقعت الاستراتيجى الهام والتى كانت بمثابة البوابة الرئيسية لطرابلس وتسبب المطر والثلوج التى تساقطت ما يقرب من شهرين فى تأخر وصول النجدة إليها مما أدى فى النهاية إلى سقوطها فى قبضة «وليم جوردان»[١٨].

بتولى شرف الدولة مودود حركة الجهاد ضد الصليبيين فى هذه المرحلة الهامة التى كان يمر بها شمال الشام، كان عليه أن يحافظ على بعض المكاسب التى أحرزت فى هذه الفترة السابقة مثل هزيمة صليبية عام ١١٠١م/٤٩٤هـ فى اسيا الصغرى، وعند حران فى عام ١١٠٤م/ ٤٩٧هـ. وبدأ جهاده ضد الصليبيين عندما خرج بقواته فى عام ١١١٠م/ ٥٠٤هـ بحملة ضخمة متجهاً إلى الرها. فى الوقت نفسه جمع الصليبيون قواتهم من الرها وأنطاكية وطرابلس ـ تلك الإمارة الناشئة ـ ومعهم «بلدوين» الأول ملك بيت المقدس. وبدأ «مودود» حرباً اقتصادية فعمل على حرمان الفرنج من المؤن وبدأ الطعام يشح تماماً كما يذكر وليم الصورى[١٩]. وحرص أيضاً على استدراج الصليبيين إلى حران كما حدث فى معركة البليخ السابقة، غير أن الصليبين أدركوا الخطة هذه المرة فعادوا إلى الفرات، واتفقوا على تزويد الرها بما أمكنهم من المؤن وإجلاء بعض سكان المدن الأخرى الواقعة فى المنطقة من «الأرمن واليعاقبة» ولكنهم ما لبثوا أن وقعوا فى عائق طبيعى تمثل فى عبورهم لنهر الفرات. وبينما كانوا مشغولين بذلك انقض عليهم السلاجقة فالحقوا بهم القتل، ولم يستطع الصليبيون الذين على الجانب الآخر أن يقدموا المساعدة لزملائهم إذا لم تتوفر القوارب الكافية للعودة لمواجهة قوات «مودود»[٢٠]. ومرة أخرى استطاع السلاجقة استغلال طبوغرافية المنطقة لصالحهم وأنزلوا الهزيمة بالصليبيين. وثمة عامل جغرافى آخر ظهر فى المعركة وهو أن الحرارة أثرت على القوات الصليبية وقد انفرد المؤرخ «ألبرت اكس» بهذه الرواية[٢١].

وفى حملته الثانية فى عام ١١١١ م/ ٥٠٥هـ حاول مودود أن يستخدم سلاح المياه، فعند حصاره لتل باشر قام بطمر آبارها ومنع المؤن عنها. غير أن هذا الحصار لم يأت بالثمار المرجوة فقد قاوم الصليبيون هذا الحصار. ولاشك أن ذلك كان راجعاً إلى اعتمادها فى الشرب على مياه نهر الساجور، كما أن صاحبها أحمد بك الكردى لعب دوراً فى فك الحصار(٢٢).

عاود الصليبيون هجماتهم فى الجنوب للاستيلاء على ما تبقى من المدن الساحلية وفى ٢٩ نوفمبر ١١١١م/ ٢٥ جمادى الأولى ٥٠٥هـ شرعوا فى حصار مدينة صور. فأرسل واليها «أنوشتكين» الأفضلى يطلب النجدة من «طغتكين» أتابك دمشق فى الوقت الذى استمر فيه الحصار الصليبى فى فصل الشتاء. «وهجم الشتاء فلم يضر بالإفرنج لأنهم كانوا نزولا فى أرض رملة صلبة، والأتراك بالضد من ذلك قد كابدوا من مقامهم شدة عظيمة»(٢٣). وذلك بسبب ـ كما يقول سبط ابن الجوزى ـ «والمسلمون فى أرض وعرة»(٢٤).

تقدم الصليبيون بعد أن نجحوا فى تخريب الاستحكامات الدفاعية للمدنية باتجاه السور وتم بناء برجين لهذا الغرض، حيث دفعوا أحدهما إلى السور. وعندما رأى المدافعون ـ تقدم البرج قاموا بإلقاء النفط والمواد المشتعلة عليه مستغلين فى ذلك هبوب الرياح التى ساعدت على اشتعال النيران بسرعة فيه، كما أنها اتصلت بالبرج الآخر، ومن بين العوامل الجغرافية الأخرى التى ساعدت على فشل الحصار وانسحاب الصليبيين قرب موسم جنى الغلات فآثر «بلدوين» الانسحاب خشية أن يهاجمه السلاجقة فانسحب فى ٢٥٠ شوال ٥٠٥هـ/ ١٠ أبريل ١١١٢م(٢٥).

تحول «مودود» لمهاجمة الصليبيين فى المنطقة المجاورة لبحيرة طبرية. فتجمعت قواته ومعه قوات «طغتيكن» لشن الغارات فى هذه المنطقة. ونصبا

للصليبيين فخا عند الأقحوانة أو شبه الجزيرة التى يصنعها نهر الأردن مع نهر اليرموك. ولم يدرك الصليبيون هذا الكمين ويعترف «فوشيه أوف شارتر» بذلك «وبينما كنا فى جهل عما يقصدون أرسل السلاجقة من يستدرج الصليبيين من مكمنهم وانقضوا عليهم معملين فيهم القتل والأسر وغرقت أعداد كبيرة منهم فى البحيرة بعد أن قطع الأتراك الجسر مما زاد من الخسائر التى لحقت بالصليبيين وقد أطلقت المصادر على هذه المعركة اسم الصنبرة أو سن النبرة والتى وقعت فى ٢٨ يونيو ١١١٣م/ ١١ محرم ٥٠٧هـ[٢٦].

وصلت الإمدادات الصليبية بقيادة «روجر» أمير أنطاكية وعندما أدركت التفوق العددى للسلاجقة لجأت إلى الجبل الموجود غربى طبرية للاحتماء به غير أن الماء لم يكن متوفراً فيه فكادت تقع فى خطأ آخر لولا أن السلاجقة أدركوا صعوبة القتال عند هذا الموقع الجغرافى فى الوقت الذى ظل فيه الصليبيون متحصنين فى الجبل. وعندما أدرك أهالى المنطقة ما حل بالصليبيين من هزيمة، تقدم أهالى عسقلان لمهاجمة حقول الصليبين فأشعلوا النيران فى الحبوب التى كان المزارعون قد جمعوها[٢٧].

حشد «ايلغازى» صاحب ماردين قواته من أجل إنقاذ حلب التى تعرضت للخطر من جانب «روجر» حاكم أنطاكية والذى طلب أيضًا مساعدة «بلدوين» الثانى ملك بيت المقدس وبقية الصليبيين. ونزلوا بالقرب من الأثارب بموضع يقال له «تل عفرين» بين جبال ليس لها طريق إلا من ثلاث جهات. وظن الفرنج أن أحداً لا يسلك اليهم لضيق الطريق[٢٨] وعلم إيلغازى بقلة قوات روجر والذى لم يدرك طبيعة المنطقة جغرافيا كما أنه استهان بقوة المسلمين معتقداً أنهم لن يصلوا إليه عبر هذه الطرق الضيقة. ودارت المعركة قريبًا من ارتاح أو سرمداً وذلك فى ٢٨ يونيو ١١١٩م/ ١٧ ربيع أول ٥١٣هـ. وبالإضافة إلى نجاح «إيلغازى» فى مباغته الصليبيين عبر الطرق السالفة مستغلا معرفته بطبوغرافيتها أشار «وليم الصورى» إلى عامل

آخر ساهم فى هزيمة الصليبيين هو هبوب رياح عنيفة أثناء المعركة أدت إلى تكوين سحبًا من الغبار مما أدى إلى هزيمة الصليبيين وقتل «روجر» فى المعركة. (٢٩) ويبدو أن هذه الرياح كانت فى مواجهة الصليبيين مما أدى إلى عدم رؤيتهم فى ميدان القتال. وترتب على هذه المعركة نتيجة هامة هى نجاح المسلمين فى حماية حلب من الوقوع فى قبضة الصليبيين وظلت بمثابة الجبهة الأمامية ضد إمارتى الرها وأنطاكية.

ومن الطريف أن طبيعة الأرض بالقرب من سروج ساهمت فى وقوع «جوسلين دى كورتناى» أسيرًا فى قبضة بلك غازى بن بهرام صاحب خرتبرت فى ١٣ سبتمبر ١١٢٢م/ ٩ رجب ٥١٦هـ. فقد تقدم الصليبيون لمهاجمة بلك. «ومن لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج وصلوا إلى أرض قد نضب عنها الماء فصارت وحلا غاصت خيولهم فيه فلم تتمكن من ثقل السلاح والفرسان من الإسراع والجرى» وعندئذ تم أسر جوسلين ونقل إلى الرها. وفى خلال أقل من عام استطاع بلك أيضًا أن يأسر الملك الصليبى «بلدوين» الثانى فى ١٨ أبريل ١١٢٣م/ ١٧ صفر ٥١٧هـ. فقد أدرك بلك أن الملك الصليبى سوف يعبر نهر سنجة عبر القنطرة المقامة فوقه وذلك لاستحالة عبور المخاضات الموجودة فى هذا النهر وذلك لأن قراره رمل سيّال وكلما وطأه الإنسان برجله سال به فغرقه. فكمن له «بلك» عند هذه القنطرة وتمكن من أسره(٣٠).

وعندما حاصر الصليبيون صور للمرة الثانية استخدموا عنصرًا هامًا لمحاصرة المدينة. فقد أدركوا أنها ترتبط بالبر عن طريق برزخ ضيق وتأتى إليها مياه الشرب عبر قنوات ممتدة من البر إلى المدينة، كما أنه لا يوجد بئر للمياه بها. واستطاعوا إغلاق هذه القنوات فى محاولة لإجبارها على الاستسلام، ولكن سقوط الأمطار جعل السكان لا يشعرون بوطأة استخدام هذا السلاح ضدهم إلا بعد فترة. وأمام عنف الهجمات الصليبية عليها ووفاة «بلك»

الأرتقى اضطرت إلى التسليم فى أوائل يوليو ١١٢٤م/ منتصف جمادى أول ٥١٨هـ. بعد حصار دام أربعة أشهر ونصف(٣١).

وفى معركة أخرى حدثت عند عزاز بين «بلدوين» الثانى وجوسلين دى كورتناى - بعد أن تم إطلاق سراحهما - وذلك فى أواخر مايو وأوائل يونيو ١١٢٥م/ جماد أول ٥١٩هـ هلكت أعداد كبيرة من الجالبين بسبب العطش والإنهاك. كما يقول فوشيه «كان يومًا قائظًا وقد زادته شدة الجهد قيظًا»(٣٢).

استغل «بلدوين» الثانى وفاة طغتكين» أتابك دمشق فأرسل إلى أوربا يطلب الإمدادات. وعندما وصلته هذه القوات خرج إلى بانياس فى أكتوبر - نوفمبر ١١٢٩م/ ذى القعدة - ذى الحجة ٥٢٣هـ ومنها إلى دمشق حيث أصبح على مسافة ستة أميال فقط إلى الجنوب الغربى منها. وعندما سمع تاج الملوك بورى بذلك خرج بقواته لرد هذا الهجوم وبينما كان الصليبيون ينتظرون وصول بقية القوات، أرسل «بلدوين» جانبًا من قواته لجلب المؤن من حوران. وعندما علم بورى بذلك سارع فأرسل جانبًا من قواته لمهاجمة هذه القوات الصليبية. واستطاع أن يقدر وقت العودة(٣٣). ويتفق ابن الأثير «ووليم الصورى» فى أن المطر لعب دورًا هامًا فى هذه المعركة. وما حل بالصليبيين من هزيمة. وكان خروجهم فى ليلة شاتية كثيرة المطر ولقوا الفرنج من الغد فواقعوهم(٣٤) أما وليم الصورى فيشير إلى أن المطر لم يقتصر على هذه الليلة فحسب، بل أيضًا خلال المعركة نفسها. «ولكن فجأة هبطت عليهم عاصفة ممطرة وافقها ضباب شديدة إلى درجة أن المطر المتساقط جعل الدروب غير سالكة، كما كانت العاصفة شديدة جدًا إلى درجة تعذر فيها النجاة من الموت، وكانت الغيوم الكثيفة والضباب والرياح المندفعة من جميع الاتجاهات والبرق والرعد المستمران أعطيا إنذارًا بأن عاصفة ستحدث، وذلك قبل حدوثها(٣٥). ولاشك أن وليم اعترف بغباء قومه فى هذه الرواية فعلى

الرغم من جدوث الغيوم والبرق إلا أن الجيش سار فى طريقه مما أوقعه فى هذه الكارثة نتيجة جهله بهذه العوامل الجغرافية من ناحية أخرى.

استخدم التركمان أيضاً سلاح المياه أثناء حصارهم لقلعة بارين وذلك فى أكتوبر ١١٣٣م/ ذى الحجة ٥٢٧هـ وكاد يهلك بونز أمير طرابلس عندما منعوا الماء عنه [٣٦] ويعترف «وليم الصورى» مرة أخرى بمعرفة هؤلاء بالمنطقة «كان رجالها مطلعين على المنطقة ويعرفونها بشكل جيد»[٣٧].

استمرت محاولات عماد الدين زنكى من أجل توحيد الجبهة الإسلامية لمواجه الصليبيين. وبينما كان يحاول ضم حمص فى نهاية يونيو ١١٣٧م/ رمضان ٥٣١هـ وردت إليه أنباء بشأن تقدم الصليبيين لمهاجمته. فقرر التوجه إلى حصن بارين. وتجمعت القوات الصليبية وعلى رأسها الملك فولك أوف أنجو. وبعد أن تركت هذه القوات الطريق السهلى اتجهت إلى منطقة وعرة، وألقى وليم الصورى باللائمة على الأدلاء الذين «قادوا المسيحيين خلال منطقة ضيقة ومهجورة ولم يكن فيها أى مكان موائم للقتال حيث يتعذر المقاومة أو أية فرصة مواتية للهجوم». وسرعان ما أدرك زنكى الأفضلية التى يتمتع بها، فانقض عليهم ولم يعد لديهم أمل فى المقاومة «لوجودهم فى الشعاب الضيقة». واضطر الملك فولك بعد صعوبة بالغة أن يتجه إلى حصن بارين، وفى الوقت نفسه سارع بطلب المساعدة من بقية القوى الصليبية. غير أن زنكى نظراً لمعرفته جيداً بطبوغرافية المكان استطاع أن يمنع وصول أية أنباء للمحاصرين بداخله، كما منع أى شخص من الخروج. «فكان من به لا يعلم شيئًا من أخبار بلادهم لشدة ضبطه للطرق وهيبته على جنوده» كما يذكر ابن الأثير [٣٨]. وبعد أن يأس الملك من وصول أية أخبار، فى الوقت الذى علم فيه زنكى بقرب وصول إمدادات لهم، سارع بعقد صلح مع فولك سلم الأخير بمقتضاه الحصن. وما أن خرجوا حتى قابلتهم الإمدادات فى الطريق ووجهوا إليهم اللوم بسبب

تسرعهم فى الاستسلام «فحلفوا لهم أنا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن فلم عميت الأخبار ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دمانا بتسلم الحصن»(٣٩).

أما الملك بلدوين الثالث فقد نسى تحالفه مع دمشق وخرج على رأس حملة صليبية للاستيلاء على صرخد وبصرى بعد أن قدم التونتاش عارضًا عليهم ذلك مقابل أن يساعدوه على الاستقلال بحوران. وأخطأ الصليبيون فى حساباتهم فقد كانت العلاقة بين نور الدين محمود ومعين الدين أنر قوية فى هذه المرحلة. وسارع أنر فى طلب المساعدة من نور الدين الذى لم يتوان عن ذلك. وأسرع متجهًا إلى بصرى قبل أن يصل إليها الجيش الصليبى والذى وقع أيضًا فى خطأ آخر تمثل فى اختيار وقت الحملة. فقد خرج الصليبيون فى أواخر مايو ١١٤٧م/ أواخر ذى الحجة ٥٤١هـ حيث كانت الحرارة قد بدأت تشتد، وزاد نور الدين من معاناتهم بإفساد الآبار الواقعة على الطريق. وزاد الأمر صعوبة أيضًا ــ كما ذكر وليم الصورى ــ أن المنطقة كانت قد تعرضت لهجوم الجراد وفسدت مياه الينابيع والبرك نتيجة لموت كثير من الحشرات بها. وعندما وصلت هذه القوات وجدت أن نور الدين تمكن من الاستيلاء على بصرى وصرخد فقرر الصليبيون الانسحاب عائدين إلى بلادهم. وازدادت متاعبهم عندما استخدم المسلمون سلاحًا جغرافيًا آخر. فقد كانت الأعشاب جافة فى ذلك الوقت وهبت الرياح فأشعل السلاجقة النيران فى الأعشاب التى تحولت باتجاه الصليبيين وزادت الحرارة الصادرة من ألسنة النيران مضافة إلى حرارة فصل الصيف والعطش الشديد من معاناتهم إلى حد يفوق الاحتمال»(٤٠) وبذلك يلخص وليم الصورى هذه العوامل الجغرافية التى تسببت فى هزيمة الصليبيين. أما ابن القلانسى فيوردها بشكل آخر فيقول «ملكوا عليهم المشرب... وأكثروا فيهم القتل والجراح وإضرام النيران فى هشيم النبات فى طرقهم ومسالكهم»(٤١).

وهكذا فإن هذه الحملة لم تحقق أى نجاح، إضافة إلى أنها أفسدت العلاقة مع الحليف الوحيد للصليبيين ـ معين الدين أنر ـ ودلت على حماقتهم فى أمورهم السياسية وخططهم العسكرية. فى الوقت نفسه أوضحت نجاح نور الدين فى استغلال العوامل الجغرافية فى خططه العسكرية.

عقب سقوط الرها فى قبضة المسلمين اختل ميزان القوى فى شمال بلاد الشام وأسرع الصليبيون للإعداد لحملة جديدة هدفت إلى محاولة الاستيلاء على الرها مرة ثانية. ويبدو أن الصليبيين نسوا ما حدث لصليبية عام ١١٠١م/٤٩٤هـ فى آسيا الصغرى. فتقدم كونراد ومعه حملة ألمانية عبر آسيا الصغرى. ولم يأخذ بنصيحة الإمبراطور البيزنطى مانويل بأن يسلك الطريق الساحلى ـ على الرغم من طوله ـ إلا أنه أمن من الطريق الآخر الذى يمر فى وسط آسيا وغير صالح من الناحية العسكرية لاعتبارات كثيرة، بالإضاف إلى سيطرة السلاجقة عليه. وتقدم كونراد وسرعان ما اكتشف خطأه. فقد عانت قواته من نقص المؤن ثم العطش الشديد. وما أن وصلت إلى نهر باتيس قرب ضوريليوم أسرعت هذه القوات لكى تروى ظمأها ولكنها وجدت المفاجأة عندما انقض عليهم السلاجقة وأعملوا فيهم القتل وراح تسعة أعشار الجيش الألمانى فى هذه المعركة فى ٢٥ أكتوبر ١١٤٧م/ ٢٨ جماد أول ٥٤٣هـ. وكانت هذه الهزيمة بسبب تسرع الألمان فى سلك ذلك الطريق وجهلهم بجغرافية المكان، وإن كان كثيراً من المؤرخين يلقون باللائمة فى ذلك على البيزنطيين(٤٢).

أما القسم الثانى من هذه الحملة بقيادة لويس السابع ملك فرنسا، فعلى الرغم من أن تدارك خطأ الألمان السابق بالنسبة للطريق، إلا أنه وقع فى خطأ جغرافى آخر تمثل فى تقدم هذه القوات خلال شهر ديسمبر ١١٤٧م حيث كان فصل الشتاء وتساقطت الثلوج فوق المرتفعات مما أى إلى بطء

تقـدم هذه القـوات ـ كما أنهـا عـانت من قلة المؤن لأن الوقت لم يكن زمن حصار(٤٣).

وعندما وصل قادة هذه الحملة إلى عكا تم اتخاذ أغرب قرار ألا وهو مهاجمة دمشق خليفهم الوحيد. وكانت المصالح الشخصية وراء اتخاذ ذلك القرار. ويلقى المؤرخون المحدثون بتبعية هذه الحملة على «كونراد» الثالث و«بلدوين» الثالث. وأثبتا عدم درايتهما بالنواحى الجغرافية. فبعد أن تقدمت الحملة لحصار دمشق من الجهة الغربية والتى كان بإمكانهم الاستمرار فى هذه المنطقة نظراً لتوفر المياه والمؤن بها، إلا أنه تم اتخاذ قرار أثبت الجهل التام عندما تحولت هذه القوات إلى الجهة الشرقية. وسواء أكان «كونراد» أو «بلدوين» المسئول عن ذلك فقد أدرك الصليبيون الخطأالذى وقعوا فيه فلم يكن هناك مياه متوافرة فى هذا الموقع الجديد، وأخذت المؤن فى النفاد. ويضاف إلى ذلك عامل جغرافى آخر هام هو عدم ملائمة المناخ فى هذا الوقت بالنسبة للصليبيين بصفة عامة، ولأولئك القادمين الجدد بصفة خاصة فقد كان ذلك فى ٢٦ يوليو ١١٤٨م/ ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ. وفى نفس الوقت فإن الدمشقيين استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم واستخدم معهم «أُنر» سلاح الترهيب والترغيب. فقد لوح لهم بأنه سوف يسلم المدينة إلى نور الدين ـ وهذا كان أشد ما يخشاه الصليبيون ـ إذا لم تنسحب الحملة كما وعدهم بإعطائهم بانياس. وأخيراً قررت الحملة الانسحاب وكان ذلك من أكبر الأسباب التى أدت إلى زوال هيبتهم وانتعاش آمال العالم الإسلامى بعد أن تمكن من التغلب على هذه الحملة الفاشلة.

وبالإضافة إلى العوامل الجغرافية السابقة والتى أدت إلى فشل الحملة فقد أشار سبط ابن الجوزى إلى عامل آخر فقد «كان زمان الفواكه، فنزل الفرنج بالوادى، فأكلوا منها شيئًا كثيراً فأخلت أجوافهم، ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون»(٤٤) ولا نستبعد حدوث ذلك خاصة مع أولئك

القادمين الجدد الذين لم يعتادوا مناخ هذه المنطقة. كذلك فقد استخدم «أُنر» هذه العوامل لصاحله فى مقاومة الحملة ـ فقد قطع مجارى المياه إلى منازلهم وطمى الآبار[٤٥].

استطاع نور الدين أن يستغل طبيعة بلاد الشام الجغرافية مرة أخرى. ففى معركة أنب التى وقعت فى ٢٩ يونيو ١١٤٩م/ ٢١ صفر ٥٤٤هـ واجه نور الدين «ريموند بواتييه» أمير أنطاكية. وقبل أن يدخل معه فى قتال، حرص نور الدين على أن يتبين قوة خصمه فوصلت إليه تقارير متوالية عن هذه القوات وعما إذا كان هناك قوات احتياطية أخرى معه. ولاشك أن ذلك لم يكن ليتم إلا إذا علم بدروب وطرق المنطقة. واندفع «ريموند» معتقداً أنه بإمكانه تحقيق نصراً سهلاً. غير أنه فوجئ فى صباح المعركة بأن قوات نور الدين قد أحاطت به. وعبثًا حاول اقتحام الحصار. غير أن طبيعة أرض المعركة لم تكن فى صالحه. وبينما كان الفرسان يحثون جيادهم على ارتقاء المنحدر، إذ بالرياح تهب فى وجوههم فأثارت التراب وأعمتهم. وسرعان ما تساقط هؤلاء الفرسان صرعى وعلى رأسهم «ريموند» [٤٦] . وأدرك ابن القلانسى استخدام نور الدين لهذه العوامل الجغرافية فأشار إلى معرفته بالموقع الجغرافى للمعركة «وتفرق المسلمون عليهم من عدة جهات ثم أطبقوا عليهم»[٤٧] .

وتشير المصادر العربية إلى غارة قام بها الصليبيون بالقرب من بعلبك فى منتصف ديسمبر ١١٥١م/ أوائل رمضان ٥٤٦هـ، واستولوا على كثير من الغنائم وأسروا البعض. وعندما علم أيوب بن شادى ـ والد صلاح الدين ـ والى بعلبك بذلك أرسل خلفهم من يتعقبهم وفشلت هذه الغارة بسبب سقوط الثلوج على الصليبيين أثناء عودتهم. «وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما أبطأهم عن الوصول إلى بلادهم». وهذا دليل آخر على جهلهم بالمناخ فى هذه المنطقة مما أوقعهم فى قبضة المسلمين[٤٨] .

أثبت الإمبراطور البيزنطى جهله أيضاً بجغرافية بلاد الشام وذلك عندما اشترى بقايا إمارة الرها فى عام ١١٥٠م/ ٥٤٥هـ. فقد كانت تقع وسط أملاك المسلمين وبعيدة عن مركز الإمبراطورية ومن ثم لم يتوفر لها الحماية. وبالفعل لم يمض أقل من عام حتى تقاسمها نور الدين محمود والسلطان مسعود السلجوقى(٤٩). كما أن العامل البشرى ساهم فى فشل هذه الصفقة. فقد فضل سكانها من النصارى الحكم الإسلامى خاصة وأنهم جربا الحكم البيزنطى واللاتينى، مما يدل على سماحة الإسلام(٥٠).

كان ضم نور الدين لدمشق خطوة كبرى فى سبيل توحيد الجبهة الإسلامية، وعندما هاجم بلدوين جماعة من الرعاة المسلمين فى فبراير ١١٥٧م/ محرم ٥٥١هـ خرج نور الدين لمحاصرة بانياس فى مايو ١١٥٧م/ ربيع أول ٥٥١هـ. ثم عاد نور الدين وانسحب منها فاستولى عليها بلدوين الثالث مرة ثانية. وفى أثناء عودته أدرك نور الدين أنه سوف يتجه إلى مخاضة يعقوب ـ الواقعة على نهر الأردن (٥١). وسارع نور الدين باستغلال طبيعة هذا المكان الجغرافى فكمن بقواته دون أن يشعر الصليبيون بذلك. ونترك وليم الصورى يصف ما حدث:

«استأنف الجيش المسيحى سيره... وكل من فيه غير عالم بالكمين الذى نصب أثناء الليل، وجاهل أيضاً بخطط أعدائه. وتوجه إلى الموقع الذى كان الأتراك قد سيطروا عليه خلسة... عندما انطلق فجأة الذين كانوا قد كمنوا هناك من أجل مباغة المسيحيين الغافلين من مكانهم(٥٢).

وهكذا نجح نور الدين لمعرفته الجغرافية بهذا الموقع أن يدبر هذا الكمين الناجح للصليبيين منزلا هزيمة ساحقة بهم.

باستيلاء الصليبيين على عسقلان فى عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ، وتولى عمورى حكم بيت المقدس اختلفت استراتيجية الصليبيين فى هذه المرحلة.

فمن ناحية حدودهم مع مصر لم تعد الصحراء هى الحد الطبيعى بالنسبة لهم، أما فى هذه المرحلة فقد أصبحت مصر هى هدفهم خاصة بعد توقف حملاتهم تجاه الشمال بسبب ازدياد قوة نور الدين محمود، وكذلك ضعف الخلافة الفاطمية فى مصر. وفى عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ توجه عمورى إلى مصر محاولا مهاجمتها. ووصل عمورى إلى الفرما حيث حاصرها ولكن ضرغام استغل فيضان النيل فقام بفتح الجسور مما أحال المنطقة إلى أوحال أعاقت الصليبيين من التقدم وأجبرتهم على العودة إلى بيت المقدس(٥٣).

وفى أثناء الصراع على السلطة بين شاور وضرغام، لجأ الأول إلى نور الدين محمود طالبًا منه المساعدة. وبعد أن استخار الله عز وجل، أرسل أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين ومن هنا بدأ السباق بين نور الدين والصليبيين من أجل امتلاك مصر. وكانت النتيجة المباشرة له هو إيجاد شكل جغرافى ـ سياسى جديد (٥٤). كذلك فإن هذه المعارك لم تخل من استخدام العناصر الجغرافية. ففى معركة البابين أو المنيا التى وقعت فى ١٨ مارس ١١٦٧م/ ٢٥ جمادى أول ٥٦٢هـ نجح أسد الدين شيركوه وصلاح الدين فى استغلال طبيعة هذه المنطق من الناحية الجغرافية فى رسم خطة المعركة. فتمكن من السيطرة على الهضاب الواقعة على اليمين واليسار، كما أن الأرض الصاعدة والطبيعة اللينة للرمال جعل من الصعب على الصليبيين وشاور الذي تحالف معهم هذه المرة أن يقتربوا من جيش أسد الدين الذى استطاع أن ينزل بهم الهزيمة ويأسر عددًا من قادتهم(٥٥).

أثار وصول قوات نور الدين إلى مصر مخاوف الصليبيين وكذلك البيزنطيين. فتم تجديد الاتفاق السابق بينهما بشأن اقتسام مصر فى حالة الاستيلاء عليها. فخرجت حملة مشتركة. وعلى الرغم من أن الأسطول البيزنطى خرج من مياه الدردنيل فى ١٥ يوليو ١١٦٩م/ ١٢ رمضان ٥٦٤هـ إلا أنه لم يصل قبالة دمياط إلا فى أول صفر ٥٦٥هـ/ ٢٥ أكتوبر

١٢٦٩م. وهكذا فإن هذا التأخير جعل الحملة تضع نهايتها الفاشلة بنفسها.

واتخذت القوات البرية طريقها متجهة إلى دمياط حيث عسكرت فى منطقة لا يتعد طولها ميل بحيث حشرت نفسها فى هذا الموقع الذى جعلها صيداً سهلا لقذائف المسلمين أما من ناحية العوامل الجغرافية فقد جاء توقيتها فى فصل الشتاء. وبالفعل هطلت الأمطار فأحالت المعسكر الصليبى إلى أوحال مما أثر على الكفاءة القتالية لهم حيث اضطرت إلى حفر الخنادق حول خيامهم وعزلها عن بعضها البعض.

أما العامل البشرى فى هذه الحملة فقد كان له دور هام، فقد بذل أهل دمياط كل ما فى وسعهم من أجل مقاومة الحملة. فيقول وليم الصورى أن المدافعين ردوا كل المحاولات الهجومية حتى أنهم «اخترعوا خططاً لم يفكر بها أحد حتى الآن» (٥٦). فقد كان الأسطول البيزنطى راسيًا عند مدخل فرع دمياط ولم يستطع أن يصل إلى المدينة بسبب وجود السلسلة(٥٧). وانتهز الأهالى فرصة عدم وجود البحارة البيزنطيين فى سفنهم فأحضروا قاربًا من الحجم العادى وملأوه بالخشب الجاف والقطران وجميع المواد القابلة للاشتعال وأضرموا فيه النيران ودفعوه نحو السفن البيزنطية الراسية حيث اصطدم بها وأحرق ستًا من سفن الأسطول البيزنطى. وقد استغل الأهالى ظاهرة جغرافية هامة وهى جريان النيل من الجنوب إلى الشمال، وربما وجدت رياح جنوبية ساعدت القارب على سرعة وصوله إلى السفن البيزنطية شمال دمياط. ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ بعد فشل الحملة حلت الكارثة ببقية هذا الأسطول عندما أبحر فى وقت غير مناسب إذ هبت عاصفة عنيفة أتت على عدد كبير من سفنه وغرق الكثيرون من بحارته ولم ينج منهم إلا عدد صغير عادوا إلى البسفور فى أوائل العام التالى(٥٨).

وثمة عامل جغرافى آخر ترك أثره المباشر على الصراع بين الجانبين ألا

وهو الزلازل فقد شهدت بلاد الشام سلسلة منها تركت أثرها المدمر على العديد من المدن والقلاع، سواء الواقعة فى حوزة المسلمين أو الصليبيين[٥٩]. وكان أسوأها ما حدث فى عامى ١١٥٦م/٥٥٢هـ، ١١٧٠م/٥٦٥هـ. ففى الزلزلة الأولى توقفت الحرب مؤقتًا بين الجانبين لانشغالهما بإصلاح ما أحدثته من دمار وخراب فى أسوار هذه المدن والقلاع، غير أن نور الدين حرص أيضًا على حماية هذه القلاع حتى لا يستغل الصليبيون ذلك الدمار فأشار ابن الأثير إلى أنه «جمع عساكره وأقام بأطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من أسوار البلاد»[٦٠]. ويؤكد أبو شامة ذلك بقوله «وتهدمت الأسوار والدور والقلاع ولولا أن الله منَّ على المسلمين بنور الدين الذى جمع وحفظ البلاد وإلا لكان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال»[٦١].

وفى عام ١١٧٠م/٥٦٥هـ حدثت سلسلة أخرى من الزلازل شملت العديد من مدن الشام وقلاعه. ويذكر وليم الصورى أنه على الرغم من تهدم بعض القلاع وأن البعض الآخر أصبح مفتوحًا من جميع الجهات فإن كلا منهما انشغل بمشاغله الخاصة ولهذا لم يفكر فى إيذاء جاره[٦٢]. أما المصادر العربية فتشير أيضًا إلى أن نور الدين محمود كان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج. وتهدمت قلعة بارين بصفة خاصة ولم يبق من سورها شيء البتة فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير ووكل العمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً. كما أن حلب كانت مركزاً لهذه الزلزلة حتى أن المؤرخين أطلقوا عليها زلزلة حلب[٦٣]. وبالفعل توقفت الأعمال العسكرية بينهما فترة.

عقب نجاح صلاح الدين فى تثبيت أقدامه فى مصر بدأ يعد استراتيجية على أساس جغرافى. فقد جرت محاولات للاستيلاء على مصر، بالإضافة إلى سيطرة الصليبيين على قلعة أيلة الواقعة على خليج العقبة،

وكذلك قلعة الداروم جنوبى غزة مما أدى إلى سيطرتهم على الطريق المؤدى إلى سيناء . هذا بخلاف سلسلة القلاع التى هدفت للسيطرة على الطريق ما بين مصر والشام والذى يتفرع جزء منه إلى الحجاز(٦٤) . وأدرك صلاح الدين كل هذه الحقائق الجغرافية عندما بدأ بمهاجمة قلعة الداروم فى ١١٧٠م/ ٥٦٥هـ، ثم حاول أن يهاجم غزة نفسها ثم انسحب بعد ذلك عائداً إلى مصر. وفى ديسمبر ١١٧٠م/ ربيع آخر ٥٦٦هـ هاجم أيلة وتمكن من استردادها (٦٥) . وهنا أدرك الصليبيون أن استراتيجيتهم القائمة على أن تكون الصحراء حداً طبيعياً لحدودهم باءت بالفشل، ومن ثم بدأت محاولات للاستيلاء على مصر مرة ثانية وذلك عن طريق التحالف الصليبى البيزنطى (٦٦) . كما آعتمدت هجمات صلاح الدين على شن حرب اقتصادية ضد الصليبيين خاصة فى زمن الحصار(٦٧) .

فى حوالى سبتمبر ١١٧٧م/ ربيع أول ٥٧٣هـ وصلت سفارة بيزنطية إلى بيت المقدس تعرض على ملكها بلدوين الرابع القيام بحملة مشتركة لغزو مصر فى الوقت نفسه كان فيليب الإلزاسى كونت فلاندرز قد وصل أيضًا إلى بيت المقدس (٦٨) وعرض عليه بلدوين الرابع قيادة هذه الحملة المشتركة ضد مصر بعد أن يتم تعيينه وصيًا على المملكة. وعرضت عليه المعاهدة التى تم الاتفاق عليها بين الجانبين البيزنطى والصليبى إلا أنه بعد دراسته لها دراسة دقيقة رفض القيام بالحملة وذلك لبعدها، كما أنه غير مطلع على أحوال المنطقة بأكملها، كما أن الأنهار فيها تفيض فى مواسم محددة من العام وتغمر الأرض بشكل كامل كما أنه سمع من الذين زاروا مصر أن الموسم الحالى لم يكن مواتيًا للغزو. فقد بات الشتاء على الأبواب وأن مصر مغطاة بفيضان النيل. كما أنه سمع بأن الأتراك اندفعوا إلى مصر بأعداد ضخمة، كما خشى حدوث مجاعة عندما يتقدم الجيش إلى مصر(٦٩) .

ويلقى البعض باللائمة على فيليب فى أنه اختلق الأعذار لعدم الخروج بالحملة إلى مصر. وفى الحقيقة فإن رواية وليم الصورى واضحة فى أن المعلومات نقلت إلى فيليب، فهو قادم من الغرب الأوروبى ومن ثم لم تتوفر له هذه المعلومات. ويتضح فى موضع آخر من الرواية أن أميرى أنطاكية وطرابلس هما اللذان نقلا إليه هذه المعلومات وذلك بغية الاستفادة من الحملة لصالحهما [٧٠]. ومن ناحية أخرى، فإننا إذا أمعنا النظر فى هذه الأسباب لعدم القيام بالحملة ـ والتى تشكل العوامل الجغرافية جانبًا كبيراً منها أسباب صحيحة ومقنعة. فمن ناحية فصل الشتاء وعدم ملائمته للقتال فوق أراضى الدلتا، وكذلك موسم الفيضان، فإنهما صائبان فى ذلك والدليل على ذلك هو ما حدث فى الحملة الصليبية البيزنطية فى عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ.

وثمة عامل آخر هو أن الأتراك قد اتجهوا بأعداد كبيرة إلى مصر. وهى أيضًا رواية صحيحة وذلك من واقع المصادر العربية. فقد أشار العماد الأصفهانى إلى أن صلاح الدين أرسل العساكر التى طال مكوثها للجهاد فى بلاد الشام ـ أرسلها إلى مصر. فقد كانت بلاد الشام تعانى آنذاك من جفاف فرغب فى التخفيف عنها بذلك. «ورأينا المصلحة فى مسيره لمنافع كثيرة وفوائد أثيرة منها التخفيف عن الشام فى مثل هذا العام»[٧١].

اتجه فيليب بحملته لمهاجمة حارم ـ بعد فشله فى الهجوم على حمص وحماة ـ وبالإضافة إلى استغلال الصليبيين لوجود صلاح الدين فى مصر آنذاك، فإنهم حاولوا استغلال عامل جغرافى هام فى ذلك الوقت. فقد كانت بلاد الشام تعانى من الجدب الشديد مما اضطر صلاح الدين إلى إرسال جانبًا من قواته إلى مصر لأن الشام لم يكن يحتمل حشد العساكر الكثيفة. ويشير أبو شامة إلى ذلك بقوله «خرج الكفار إلى البلاد الشامية فاسخين لعقد كان محكمًا غادرين غدراً صريحًا مقدرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحا»[٧٢].

أما وقعة الرملة التى وصفها المؤرخون بأنها «كانت يومًا عظيمًا على الإسلام لم يجبره إلا وقعة حطين» فقد حدثت فى ٢٩ جمادى الأولى ٥٧٣هـ/ ٢٤ نوفمبر ١١٧٧م[٧٣] وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين القدامى فى تفسير سبب الهزيمة إلا أنها تدور جميعها حول العوامل الجغرافية. فقد أشار العماد الأصفهانى إلى حرص صلاح الدين على استصحاب الأدلاء معه عند خروجه من مصر. وفى يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة/ ٢٥ نوفمبر اعترضه نهر عليه تل الصافية[٧٤] . فازدحمت العساكر للعبور ولم يشعروا إلا بالعدو يهاجمهم وهكذا حلت الهزيمة بالمسلمين بسبب هذا العائق الطبيعى ألا وهو النهر[٧٥]. أما أبو شامة فيورد نفس الرواية ويضيف عليها آخرى نقلا عن ابن شداد حيث أشار إلى أن المسلمين رغبوا فى تعديل تشكيل القوات ليكون حال لقاء العدو تل معروف بأرض الرملة، وبينما هم كذلك إذ فاجأهم العدو «فانكسروا كسرة عظيمة»[٧٦] أما وليم الصورى فقد أشار إلى أن سبب الهزيمة هو سقوط الأمطار الغزيرة فجأة ولمدة عشرة أيام متتالية، مما أدى إلى فقد قوات صلاح الدين لخيولهم. ثم وقعوا أسرى لجهلهم بالمنطقة وعدم وجود الأدلاء معهم[٧٧] . وتجدر الإشارة إلى أن وليم هو الذى انفرد بذكر سقوط الأمطار وهو احتمال قائم لأن المعركة حدثت فى شهر نوفمبر – ويتفق فى باقى روايته مع المصادر العربية من فقدان الأدلاء وأن عدداً كبيراً من المسلمين قد ضل الطريق ودخل إلى المناطق الصليبية معتقداً أنه فى الأراضى الإسلامية[٧٨] .

وفى مايو ١١٨٠م/ ذى الحجة ٥٧٥هـ عرض بلدوين الرابع عقد هدنة مع صلاح الدين وقبل صلاح الدين هذا العرض حيث كان بحاجة إلى فترة من الراحة ولكى يستكمل جهوده فى شمال الشام والعراق[٧٩] . غير أن هناك عاملا جغرافيًا هاماً أدى إلى قبوله هذه الهدنة. فقد عانت بلاد

الشام ـ خاصة الجزء الداخلى منها أى الواقع تحت سيطرته ـ من الجفاف ويصف لنا العماد الأصفهانى ذلك بقوله «حتى دخل الشتاء وترادفت الأنواء وتضاعفت الأنداء ونحن مقيمون صابرون مصابرون، ما نؤثر قتالا بل ننتظر لتلك العقد انحلالا»(٨٠).

وعقب استكمال صلاح الدين جهوده فى توحيد الجبهة الإسلامية، بدأ مرحلة جديدة اعتمدت على شن حرب اقتصادية ضد الصليبيين. وعندما هاجم قلعة كوكب المشرفة على الطريق المودى إلى الناصرة حدثت معركة فى ربيع أول ٥٧٨هـ/ يوليو ١١٨٢م وتأثر الجانبان نتيجة الحرارة الشديدة ـ وكما يذكر وليم الصورى «فقد كانت الحرارة خلال تلك الأيام أعلى بكثير من المعتاد إلى درجة أن العديد من الجيشين هلكوا نتيجة إصابتهم بضربة شمس وكانوا بقدر من هلك قتلا بالسيوف»(٨١). ويعترف أبو شامة أيضاً بأثر الحرارة فى هذه المعركة بقوله «وكان قائم الظهيرة فى الغور قد منع من استتمام عودة المغار»(٨٢) ويتضح من الروايتين أن الحرارة تركت تأثيرها فى هذه المعركة، وربما كان تأثيرها أكثر على الصليبيين نظراً لأن تكتيكاتهم القتالية كانت تعتمد على تغطية أنفسهم وخيولهم بدروع واقية مما كان يزيد من شعورهم بالحرارة بالإضافة إلى العطش الذى يؤدى إلى انهاك قواهم بسرعة.

كذلك حاول بلدوين الرابع القيام بالهجوم على بصرى فى سبتمبر ١١٨٢م/ جمادى أول ٥٧٨هـ/ وواجهته صعوبات كثيرة بسبب قلة المياه فى هذه المنطقة. كما أن الأهالى حطموا صهاريج المياه وأفسدوها بإلقاء القاذورات فيها حتى يجبروا الصليبيين على الرحيل (٨٣).

بعد هذه المعركة بعدة سنوات وبالتحديد فى يوليو ١١٨٧م/ ربيع آخر ٥٨٣هـ استطاع صلاح الدين أن يضع إصبعه فوق حلق الشرق اللاتينى(٨٤). واستدرج الصليبيين لمعركة فاصلة عند حطين. ولن ندخل فى

تفاصيل هذه المعركة والتى تناولتها كثير من الأبحاث بالدراسة والتحليل، وإنما سوف نتناولها من زاوية أخرى. ونستطيع القول أن صلاح الدين بعد اعتماده على الله عز وجل تمكن من أن يستغل جميع العوامل الجغرافية التى توفرت له في هذا اللقاء المصيرى. فقد تمكن من استدراج الصليبيين للمعركة فى شهر يوليو حيث تشتد الحرارة وفى هذه المنطقة الداخلية من بلاد الشام بل إنه فى صباح يوم المعركة لم يبدأ القتال إلا بعد أن اشتدت الشمس وذلك فى الساعة التاسعة من صباح يوم السبت وكانت الشمس فى مواجهة الصليبيين مما زاد من صعوبة الموقف(٨٥).

وطبقًا لتكتيكاتهم العسكرية فقد كانوا يغطون أنفسهم بدروع واقية فزاد هذا الأمر من شعورهم بحرارة الجو، بالإضافة إلى تلك المسافة الطويلة التى كانوا قد قطعوها للوصول إلى ميدان القتال. ثم جاء إشعال المسلمين للنيران فى الحشائش الجافة مستغلين هبوب الرياح التى كانت باتجاه المعسكر الصليبى ليزداد الأمر صعوبة(٨٦). «فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار وحر القتال»(٨٧).

أما السلاح الثانى فقد كان المياه. وعندما علم صلاح الدين بتقدمهم إلى الموقع الذى حدده سارع بوضع قواته ليحجز بينهم وبين الماء، فى الوقت نفسه عمل صلاح الدين على أن يؤمن المياه للمسلمين. كذلك قام بإفساد المياه الموجودة فى الصهاريج التى كانت فى طريق الصليبيين. وتقدمت القوات الصليبية حيث عسكرت بالقرب من موقع اعتقد ريموند الثالث خطأ بأن البئر الموجود فى المنطقة به ماء وسرعان ما اتضح لهم خطأ ذلك. فبات هم الصليبيون هو الوصول إلى نقطة ماء واندفعوا فى محاولة يائسة لاختراق صفوف الحصار التى ضربها صلاح الدين حولهم. ولكن ذلك كان ضربًا من الخيال فلم يعد حتى بإمكان أحد ولو كان قطة أن يخرج من هذا الحصار. فانهارت القوات الصليبية وهى ترى مياه بحيرة طبرية على مسافة منها وتساقطت صرعى القتال والحرارة والعطش(٨٨).

وبالإضافة إلى ما سبق فقد تمكن صلاح الدين أن يستغل طبيعة الموقع الجغرافي استغلالا تامًا في هذه المعركة. فتمكن من استدراجهم إلى قرون حطين وعلم بتحركاتهم فسارع إلى الموقع ووزع قواته بحيث حاصرت الصليبيين من جميع الجهات. وأدرك ريموند الفخ الذى نصبه له صلاح الدين وعندما أدرك ذلك بخبرته العسكرية صاح قائلا «يا الله لقد انتهت الحرب، لقد هلكنا، لقد زالت المملكة»(٨٩). وكان الموقع أيضًا دافعًا للمسلمين على القتال ـ وكما يشير ابن شداد «وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى»(٩٠).

وفى النهاية لابد أن نشير إلى عامل حسم هذه المعركة لصالح المسلمين هو العامل الديني. فقد كان القائد يدافع عن الإسلام، بينما بقية المعسكر الإسلامى يرتل الآيات القرآنية ويسمع التهليل والتكبير طيلة ليلة اللقاء، فزلزل ذلك الأرض من تحت أقدام الصليبيين فزاغت أبصارهم وبلغت القلوب الحناجر وألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين. وتم نصره لعباده المؤمنين ﴿وكانَ حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾ الروم : ٤٧ جزء من الآية.

اعتقد الصليبيون أن هدف صلاح الدين فى المرحلة التالية هو بيت المقدس. غير أنه كان مدركًا لأهمية المدن الساحلية والتى كانت تغذى هذه المملكة الصليبية بالدماء الجديدة فتوجه لاسترداد هذه المدن باستثناء صور التى عصت عليه فتركها لكى يعاود مهاجمتها مرة أخرى، ثم استرد بيت المقدس فأدى ذلك إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة والتى انتهت بالفشل فى الاستيلاء على بيت المقدس، وإن كان تمخض عنها فقط تكوين مملكة جديدة اقتصرت على الساحل وأصبحت عكا حاضرة لها. ومن هنا أصبح على الصليبيين إعادة حساباتهم فى ضوء هذا المفهوم الجغرافى الجديد وهو ما يحتاج لدراسة مستقلة بمشيئة الله تعالى.

الهوامش

(١) للمزيد عن جغرافية بلاد الشام انظر: محمد سطيحة، الجغرافيا الإقليمية: دراسة لمناطق العالم الكبرى، بيروت ١٩٧٤، ص ٤١٦ وما بعدها ؛ يسرى الجوهرى ومحمد خميس الزوكة، دراسات فى جغرافية العالم الإسلامى، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١٠٨، ١١٧، ١٣٠ ؛ فتحى أبو عيانة، دراسات فى جغرافية دولة الإسلام من العصر النبوىّ حتى منتصف القرن الثالث الهجرى، (تحت الطبع) الإسكندرية، ص ١٠٠-١٠٢. وتجدر الإشارة إلى أن جبال بلاد الشام تركت آثارًا على المياه بها، مثل تسربها إلى باطنها لمسافات طويلة وتظهر على شكل ينابيع أو تسحب إلى السطح من الآبار. وقد اجتذبت المياه فى بلاد الشام نظر الرحالة والجغرافيين. انظر: محمد حسين العطار الدمشقى، علم المياه الجارية فى مدينة دمشق، ضبط وتحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق ١٩٨٤ ؛ العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دورتيا كرافوسكى، بيروت ١٩٨٦.

(٢) يورد المؤلف المجهول وتيدبوده وصفًا رائعًا لما حلّ بالحملة الشعبية فى آسيا الصغرى ومدى المعاناة بسبب العطش، انظر:

Gesta Francorum Hierosolimitanrum, ed. by Rosalin Hill, London 1933, p. 24-5; P. Tudbode, Historia, Philadelphia, 1974, pp. 19-20.

(٣) William of Tyre, A History of the Deeds Done Beyond the Sea, Trans. and annoted by E.A. Babock and A.C. Kary, 2vols., New York, 1943, i, xvi, 173-4; Gesta Franco rum, p. 28.

وكذلك سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى، ٢ جـ، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٦٦ ؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين فى الحملة الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٨٩ ، ص ٢٣٥. وتجدر الإشارة إلى أن الصليبيين حملوا معهم كميات من المياه أثناء عبورهم بعض المناطق الجافة، وعلى الرغم من ذلك فقد أصابهم العطش والإجهاد نتيجة للحرارة الشديدة.

(٤) يشير وليم الصورى أيضًا إلى أن الوباء انتشر فى المعسكر الصليبى بسبب الأمطار التى سقطت. انظر:

William of Tyre, op.cit., i. xxii, p. 182.

(٥) Fulcher of Chartres, A History of the Expeditions to Jerusalem (1095-1127) trans. by Frances Rita Ryan.ed. with an introduction by H.S. Fink, Knouville, 1969, xv, p. 92.

(٦) ريموند داجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ١٤٥؛ وأيضًا، محمد محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ١٣٩.

(٧) وقع الصليبيون فى خطأ آخر عندما أجلوا المسير بعد شهر نوفمبر. كما أن الجيش لم يتحرك قسم منه إلا فى ١٢ يناير ١٠٩٩م، أما بقيته فقد تحركت فى فبراير ١٠٩٩م. وقد أدى ذلك إلى وصولهم أمام بيت المقدس فى فصل الصيف. وفى خلال الفترة التى أمضوها بعد الاستيلاء على أنطاكية شنوا حملات على البارة ومعرة النعمان ومنعوا الناس من الماء وباعوه منهم فهلك أكثر الناس من العطش». انظر: ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشر وتحقيق سامى الدهان، دمشق، ٣جـ، ١٩٥١–١٩٦٧، ص٥٠٥–٥٠٦، وكذلك:

J. France, The Crisis of the First Crusade ; From the Defeat of Kerbogah to the Departure from Arqa, Byzantion, t. xi, 1970, pp. 298-299.

(٨) Fulcher of Chartres, op.cit., xxvii, p. 119; William of Tyre, op.cit., I, vii, pp. 352-53.

(٩) ريموند أجيل، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(١٠) William of Tyre , op.cit., I, viii, p. 354-55.

(١١) ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٤، وكذلك:

J. Prawer, the Jerusalem the Crusaders Captured; a cantribution to the Medieval Toporgraphy o the city, in : Crusade and Settlement, ed. by P.W. Edbury, Cardiff 1985, pp. 7-17.

(١٢) William of Tyre, op.cit., I, p. 423.

(١٣) أشار ألبرت إلى هذه المحاولة دون أن يحدد العام الذى حدثت فيه . وربما كانت فى عام ١١٠٠م/٤٩٣هـ وذلك لأن هذه المدن سارعت بعقد اتفاق معه بعد أن علمت بسياسته العدوانية. انظر: ·

Albert d'Aix, Historia Hierosclymitana, ed., RHC.H. Oc. t. , Paris 1879, pp. 511, 541; cf. also; Röhricht, Regesta Regni Hierosolymitani, 2 vols. Insbruck, 1893-1904, doc. 48.

(١٤) عن هذه الحملات فى آسيا الصغرى انظر:

The Alexiad of Anna Comnena , Trans. from the Greek by : E.R. Sewter, Penguin books, 1982, pp. 355-57; Fulcher of Chartres, op.cit., pp. 164-66; William of Tyre, op.cit., I. xii, xiii, p. 430-33.

(١٥) Albert d' Aix, op.cit., pp. 602-3.

(١٦) كذلك استخدمت أشجار الجميز للاختباء بها فى هذه المناطق من جنوب فلسطين وأشار إليها أيضًا الرحالة الروسى دانيال. انظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ٩ جـ، بيروت ١٣٩٨هـ، جـ٨، ص ٩٠، وكذلك :

Pilgrimage of the Russian Abbot: Danil, in P.P. T.S. IV, London, 1888, p. 26.

(١٧) اختلفت المصادر الصليبية فى تفسير سبب الهزيمة. فبينما يذكر فوشيه أن السبب يرجع إلى خطايا الصليبيين ، يشير وليم أن الاختلاف بين القادة حول من يتسلم المدينة هو السبب مما أدى إلى وصول الإمدادات إليها. ويذكر ألبرت أن الصليبين عسكروا عند نهر الخابور، ثم نقلوا معسكرهم بعد ذلك إلى موقع آخر أما مصادرنا العربية فلم تمدنا بتفاصيل كافية عن هذه المعركة. ويشير العظيمى إلى أنها وقعت فى برية القتار ومات الباقون عطشاً. انظر:

Fulcher of Chartres, op.cit., W, 1-6; William of Tyre, op.cit., I.x. 29; Albert d' Aix, op.cit., pp. 614-615.

ابن القلانسى، تاريخ دمشق، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ص ٢٣٢.

(١٨) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٦٠. فحدث في الوقت من الثلوج والأمطار ما عاق المسير إليها. أما ابن الأثير فيحدد مدة الشهرين، فنزل الغيث والثلج مدة شهرين ليلا ونهاراً فمنعه ذلك. الكامل، جـ٨، ٢٥٦. وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(١٩) William of Tyre, op.cit., I. x, 7, p. 472-73.

(٢٠) تجدر الإشارة إلى أن بعض المراجع أخذ برأى المصادر الصليبية في أن مودود قام بقتل الأطفال والنساء وهو مالم تُشر إليه المصادر العربية، بل أن بعض المصادر الصليبية أشارت نفسها إلى أن قاربين قد غرقا لأنهما كانا يحملان أكثر من حمولتهما.

William of Tyre , op.cit., x, 7, p. 472; Fulcher of Chartres, op.cit., xIix, p. 205-6; Albert d, Aix, op.cit., xxiv, 673f;

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٧١؛ ابن العديم، المصدر السابق، ص ٥١٢؛ وكذلك محمد الشيخ، الجهاد المقدس، ص ٢١٧ وما بعدها، سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٤٥٧-٤٥٩.

(٢١) Albert d'Aix, op.cit., p. 675-81.

(٢٢) وقد أشار ابن شداد إلى ذلك. وشرب بلدها جميعه من الساجور. انظر: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، نشر وتحقيق آن مارى ادة، منشور في : B.E.O. الجزء ٣٢-٣٣ دمشق، ١٩٨٠-١٩٨١، ص ٢٣-٢٤.

(٢٣) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٨٦.

(٢٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ٨، حيدر آبار، ١٩٥١، ق ١، ص٣٨.

(٢٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ٢٦٣؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ٢، ٣، نشر محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٧١، جـ٣، ص٤٨؛ The Alexiad, p. 443.

(٢٦) Fulcher of Chartres, op.cit. II, p. 206, Alebrt d., Aix, op.cit., p. 694.

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٢٩٤-٢٩٥ سبط ابن الجوزي، المصدر السابق، جـ٨، ق١، ص ٤٢-٤٣.

(٢٧) William of Tyre, op.cit., I.x., p. 493-94.

وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٣١٩-٣٢٢؛ محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢٨) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ٢٨٨.

Galterii cancellerii, Bella Antiocena, RCH-H. Occ. Vol v., pp. 107; Mathieu d' Edesse, Chronique (692-1136) in Bibiotheque Historique Armenienne Par Dulaurier, Paris 1858, p. 299; Fulcher of Chartres, op.cit., Iv, p. 227-28.

(٢٩) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، جـ٨، ق ١، ص ٧٩؛ ابن منقذ، الاعتبار، تحقيق فليب حتى، برنستون، ١٩٣٠، ص ٤٠. وتعرف هذه المعركة أيضًا باسم ساحة الدم لكثرة ما أريق فيها من دماء الصليبيين.

(٣٠) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ٣٠٤، وكذلك:

Fulcher of Chartres, op.cit., xii, p. 237.

(٣١) William of Tyre, op.cit., i, xii, p. 539.

ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٣٢) William of Tyre, op.cit., ii, xiii, 1, pp. 1ff.

وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٥٢٠-٥٢١.

(٣٣) Fulcher of Chartres, pp. 256-58.

(٣٤) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٣٥٧-٣٥٨.

(٣٥) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ٣٢٩.

(٣٦) William of Tyre, op.cit., ii, xii, 26, pp. 40-41.

(٣٧) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٣٨٠؛ وتجدر الإشارة إلى أن هذه القلعة كان لها أهمية خاصة لأنها تقع عند أهالى وادى نهر الأورنت، كما أنها تسيطر على حماة وحمص.

(٣٨) William of Tyre, op.cit., ii, xiv, 7, pp. 57-58.

(٣٩) Ibid.

(٤٠) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٨، ص ٣٥٧-٣٥٨؛ أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، بيروت (بدون تاريخ)، جـ١، ص ٣٤؛ وكذلك محمد الشيخ، المرجع السابق، ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٤١) William of Tyre, op.cit., ii, xvi,9-10, pp. 149-153.

(٤٢) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٥٢؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.

(٤٣) William of Tyre, op.cit., ii, xvii, 20-22, pp. 167-172.

(٤٤) محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنين، الإسكندرية ١٩٨٥، ص ١٥٩-١٦٠.

(٤٥) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٤٦٢؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣، ص ٨٨-٨٩؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، جـ٨، ق١، ص ١٩٨؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٥٢.

J. Prawer, Histoire du rayaume latin de Jerusalem, 2 vols. Paris 1970, vol. I, 380-87; Aryah Grab ois, The Crusade of Louis VII; A reconsideration , in: Crusadde and Settelment , pp. 94-105.

(٤٦) سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، جـ٨، ق١، ص ١٦٧-١٨٩.

(٤٧) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٤٦٣.

(٤٨) ابن القلانسى، المصدر السابق، ص ٤٧٢-٤٧٣؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٥٧-٥٨؛ ابن العديم، المصدر السابق، جـ٢، ٢٩٨-٢٩٩؛ وكذلك : سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٦٣٧-٦٣٨.

William of Tyre, op.cit., ii, xvii, 9, pp. 196-198.

(٤٩) تاريخ دمشق، ص ٤٧٣.

(٥٠) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٢١١؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٨٣-٨٤.

(٥١) William of Tyre, op.cit., ii, xvii, 10, p.199.

(٥٢) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٦٤٣؛ محمود عمران، السياسة الشرقية، ص ١٨٧–١٨٨. وشملت بقايا الإمارة «تل باشر وسمياط وقلعة الروم ودلوك وعينتاب والراوندان». راجع أيضاً: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص ٢٤ وما بعدها.

(٥٣) William of Tyre, op.cit., ii, xviii, 13, pp. 258-59

وأشار ابن القلانسي إلى الكمين الذى وقع فيه الصليبيون. تاريخ دمشق، ص ٥١٩، ٥٢٠؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ١٠٧. وتجدر الإشارة إلى أنه كانت توجد عدة نقاط أو جسور لعبور نهر الأردن منها جسر بنات يعقوب وسن النبرة أو الصنبرة وجسر الحسين وجسر دامية ومخاضة القديس يوحنا. انظر:

Prawer, Crusader Institutions, Oxford 1980, p. 477

(٥٥) William of Tyre, op.cit., ii, xix, 5, p. 302.

وكذلك قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، ١٤٩، الكويت ١٩٩٠، ص ١٤٠.

(٥٦) Prawer, Crusader Inst., p. 479.

(٥٧) يضيف وليم الصورى الموقع بقوله «كان الميدان الذى قدر أن تجرى فيه المعركة على الحدود بين المنطقة الخصبة والصحراء. وكانت الأرض وعرة وتتخللها هضاب من الرمال ومنخفضات لذلك استحالت رؤية القادمين أو الذاهبين من مسافة بعيدة». انظر:

William of Tyre, op.cit, ii, xix, 25, p. 331; cf. also: Omran, King Amalric and the Siege of Alexandria 1167. Crusade and Settlement, pp. 191-197.

وكذلك: البندارى، سنا البرق الشامى، تحقيق فتحية النبراوى، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١–٣، تحقيق. د. جمال الدين الشيال، جـ١، ص ١٤٩؛ ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٧، تحقيق د سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ٢٨. ويمتدح الأخير أسد الدين شيركوه لاهتمامه بالعامل الجغرافى، ويورد قصيدة للشاعر عمارة اليمنى يقول فيها:

أخذتم على الإفرنج كل ثنّية   وقلتم لأيدى الخيل مُرّى على مرى

(٥٨) William of Tyre, op.cit., ii, xx., 17, pp. 368-69.

(٥٩) امتدت السلسلة بين برجين أحدهما فى وسط النيل والآخر أحد أبراج مدينة دمياط مقابل له. وكان رجال برج المدينة يرخونها فى حالة السماح للسفن بالدخول أو الإبحار ثم تشد عند إغلاق الميناء. أما البرج الواقع فى النيل فكان أقرب إلى الجهة الغربية، وكان يتم استخدامه أيضاً كمرشد للسفن. وأطلقت عليه المصادر قفل دمياط أو قفل الديار المصرية: وأضاف البعض وجود سلسلة أخرى تتصل بالجانب الآخر- ولكن من وصف المصادر يتضح وجود السلسلة الأولى فقط انظر: محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، الإسكندرية ١٩٨٥، ص ١٨٧-١٨٨.

(٦٠) William of Tyre, op.cit., ii, xx, 17, p. 368-69.

وكذلك محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية، ص ٢٨٥، ٣١٠-٣١٧.

(٦١) حدثت العديد من الزلازل فى بلاد الشام جمعها لنا ماير من كتاب رورشت وهى على الترتيب:

١١٠٥، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٧، ١١٣٨، ١١٥٧، ١١٦٤، ١١٧٠، ١١٧٨، ١٢٠٢، ١٢٠٤-١٢٠٥، ١٢٦٩، ١٢٨٧ وكان أسوأها ما حدث فى أعوام ١١١٤، ١١٥٧، ١١٧٠، ١٢٠٢. انظر:

H.E. Mayer, Two unpublished letters on the Syrian Earthquake of 1202, Festschrift A.S. Atiya, Leiden 1972, pp. 295-310.

(٦٢) الكامل، جـ٩، ص ٥٣.

(٦٣) الروضتين، جـ١، ص ١٠٣-١٠٥، وكذلك ابن القلانسى، تاريخ دمشق، ص٥١٤-٥١٥. وتجدر الإشارة إلى أن الأهالى، قاموا ببناء منازل من خشب لحين انتهاء الزلازل. ويقول الشاعر:

تعوضوا من مشيدات المنازل بالأ	كواخ فهى قبور سقفها خشب
كأنها سفن قد أقبلت وهم	فيها فلا ملجأ منها ولا هرب

(٦٤) أبو شامة، نفس المصدر وكذلك:

William of Tyre, op.cit., ii, xx, 18.

(٦٥) سبط ابن الجوزى، مرآة الزمان، جـ٨، ق ١، ص ٢٧٩ ؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩، ص ١٠٦ ؛ أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ١٨٤ ؛ ابن نظيف الحموى، التاريخ المنصورى ـ أو تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان، صورة خطية، موسكو ١٩٦٠، لوحة ١٧٨ ؛ وكذلك سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٧١٥-٧١٦.

(٦٦) للمزيد عن استراتيجية الصليبيين وصلاح الدين فى هذه المرحلة . راجع: حسن عبد الوهاب، مصر وأمن البحر الأحمر فى عصر الحروب الصليبية، بحث منشور فى مؤتمر العلاقات المصرية ـ اليمنية، القاهرة ، فبراير ١٩٩٠م.

(٦٧) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٧-٧١٨.

(٦٨) انظر ما يلى عن مشروع هذه الحملة المشتركة.

(٦٩) شن صلاح الدين حرباً اقتصادياً فى هذه المرحلة وذلك بهدف الضغط على الصليبيين قبل أن يبدأ حملته ضدهم. كما أن الصليبيين أيضًا حاولوا استخدام نفس السلاح معه. وتمتلئ مصادر هذه الفترة من عربية وأجنبية بالإشارة إلى ذلك سواء لدى ابن الأثير وابن واصل وأبو شامة وسبط ابن الجوزى والعماد الأصفهانى وغيرهم وكذلك لدى وليم الصورى وأرنول من المؤرخين الأجانب.

(٧٠) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٧٥٣.

(٧١) William of Tyre, op.cit., ii, xxi, 16, pp. 420-21.

(٧٢) Loc. cit وكذلك حسين عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الإسكندرية ، ١٩٨٩، ص ١٨٣-١٨٤ .

(٧٣) القاضى عماد الدين الأصفهانى، البرق الشامى، جـ٣، تحقيق الدكتور مصطفى الحيارى، الأردن، ١٩٨٧، ص ٧٤.

(٧٤) أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ٢٧٥ ؛ العماد الأصفهانى، البرق، جـ٣، ص ٧٣-٧٤. وقد أشارت المصادر العربية إلى كونت فلاندرز بمسميات مختلفة مثل أقلندس وأقلند. وأفلند . راجع أيضًا : ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص ٦٤، وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٧٥٥.

(٧٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان، جـ٨، ق١ ، ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٧٦) يطلق عليها أيضًا اسم Blance Garde وأسسها الصليبيون فى عام ١١٤٢م ضمن خطتهم الاستراتيجية للسيطرة على الطريق المؤدى إلى مصر ـ وتقع بالقرب من بيت جبرين بنواحى الرملة. راجع: ياقوت الحموى، معجم البلدان، ٥جـ، بيروت ١٩٧٧، جـ٢، ٤٢.

(٧٧) العماد الأصفهانى، البرق، جـ٣، ص ٣٦-٣٧٨.

(٧٨) أبو شامة، المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٣.

(٧٩) William of Tyre , op.cit., II, xxi, 23, pp. 430-431.

وتؤكد المصادر العربية رواية وليم فيما يتعلق بأن أعدادًا كبيرة ضلت الطريق، بل إن العماد يشير إلى أن الأدلاء خرجوا للبحث عن صلاح الدين حتى وجدوه، انظر: البرق، جـ٣، ص ٤١.

(٨٠) Ibid.

(٨١) سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٧٦٣.

(٨٢) البرق، ج-٣، ص ١٤٤، ١٥٠، وكذلك:

William of Tyre, op.cit., II, xxii, 1, pp. 446-47.

(٨٣) Ibid, II, xxii, 16, pp. 472-73.

(٨٤) الروضتين، جـ٢، ص ٢٨-٢٩.

(٨٥) William of Tyre, op.cit., ii, xxii, 20, pp. 481-82.

(٨٦) Prawer, Crusader Inst., p. 493ff.

(٨٧) Ibid, pp. 496-97.

(٨٨) اختلف المؤرخون حول أشعال النيران فى الحشائش الجافة وتوقيت حدوثها. وبعد مقارنة هذه الروايات ببعضها البعض يتضح لنا أن ذلك تم وفق تكتيكات المعركة. فقد استغل المسلمون هبوب الرياح الغربية التى ساعدت على زيادة اشتعال النيران والدخان الكثيف الناتج عنها فى زيادة الضغط على الصليبيين. وأشار ابن القادسى إلى أن توقيت هبوبها كان فى منتصف نهار المعركة، ولكن من باقى الروايات يتضح أنها أشعلت قبل ذلك

ربما مع بداية يوم القتال نفسه، ولم تشعل مصادفة ، بل أن سبط ابن الجوزى أشار إلى أن مظفر الدين بن زين الدين هو الذى أشعلها. ولاشك أن الجيش الإسلامى نجح فى استغلال هذا العامل الجغرافى استغلالا كاملا مع حرارة الجو والعطش الذى أدى إلى هلاك الصليبيين . انظر:

ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين ، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٤-٧٩؛ سبط ابن الجوزى، المصدر السابق، ص ٣٩٢؛ أبو شامة، الروضتين، جـ٢ ، ص ٧٥-٧٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩ ، ص١٧٨ .

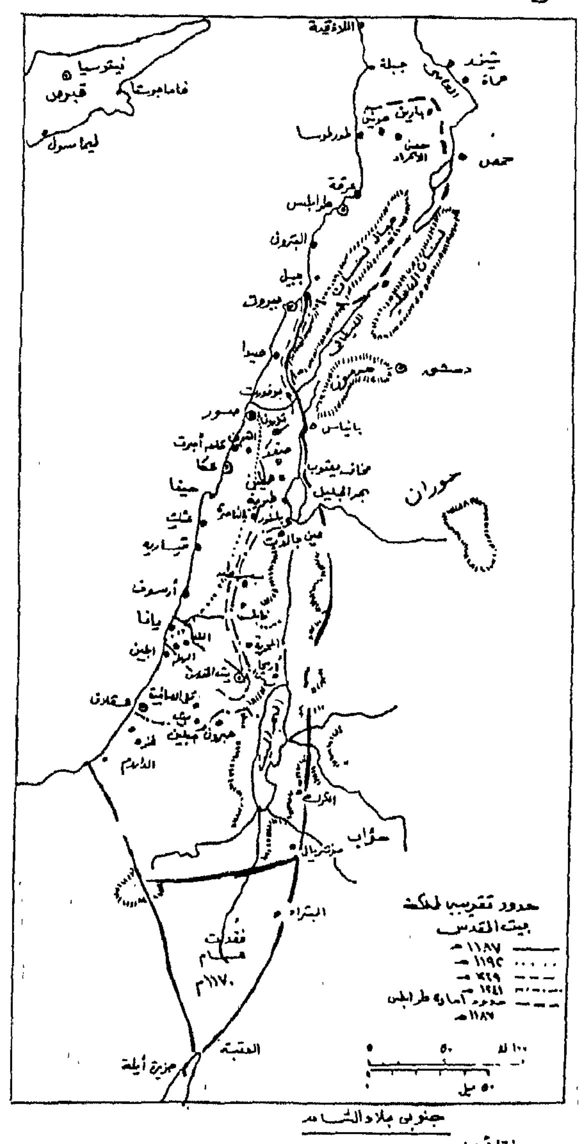
(٨٩) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٩ ، ١٧٨ .

(٩٠) أشار ابن الأثير إلى إفناء ماء الصهاريج، أما أرنول وتاريخ هرقل فيلومان ـ ريموند على اختيار أرض المعسكر التى اعتقد أن الماء متوافر عندها على حين أن النبع كان جافًا. ويشير العماد الأصفهانى إلى قطع الطريق بين الصليبيين وبين المياه. عن ذلك انظر: الكامل، جـ٩ ، ص ١٧٧ ؛ البرقى الشامى والفتح القسى فى أبى شامة، جـ٢ ، ص٧٥ .

Peawer, Crusader Inst., p. 496.

(٩١) النوادر السلطانية ، ص ٧٤-٧٩.

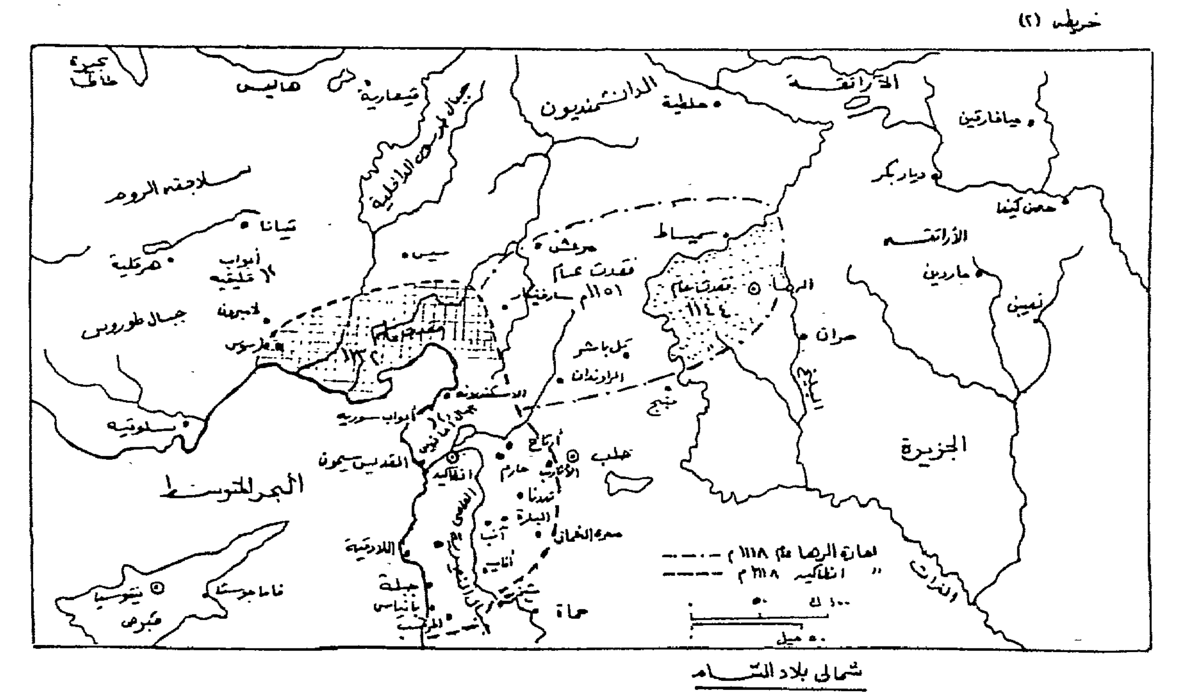
خريطة (١)



جنوبي بلاد الشام

نقلاً عن: « Mayer, The Crusades »

خريطة (٢)



شمالي بلاد الشام

نقلا عن: « Mayer : The Crusades »

فهرس المحتويات